منهج جديد للدراسات الانسانية

محاولة فلسفية

هـ . ب . ريكمان

ترجمة وتقديم وتعليق

دكتور علي عبد المعطي محمد

استاذ الفلسفة المساعد بجامعة
الاسكندرية وجامعة بيروت العربية

دكتور محمد علي محمد

استاذ علم الاجتماع المساعد بجامعة
الاسكندرية وجامعة بيروت العربية

الطبعة الأولى

١٩٧٩

مكتبة سكاوي

تلفون ٢١٦٢٦٦

ص . ب ٩٢٢٣ بيروت

منهج جديد للدراسات الانسانية

محاولة فلسفية

هـ . ب . ريكمان

ترجمة وتقديم وتعليق

دكتور علي عبد المعطي محمد

استاذ الفلسفة المساعد بجامعة

الاسكندرية وجامعة بيروب العربية

دكتور محمد على محمد

استاذ علم الاجتماع المساعد بجامعة

الاسكندرية وجامعة بيروت العربية

الطبعة الأولى

١٩٧٩

مكتبة مكاوي

تلفون ٣١٦٢٦٦

ص . ب ٩٢٢٣ بيروت

هذه ترجمة كاملة لكتاب

H. P. Rickman ; Understanding and the Human Studies ;
HeinemannEducational Books Limited – London , 1967 .

تقديم الترجمة العربية

(١) ماكس فيبر واسهامه في تطور النظرية والمنهج

(٢) الفهم ومقولة المعنى

تقديم الترجمة العربية

بقلــــم

الدكـــتور محمد علي محمد

(١)

ماكس فيبر واسهامة فى تطور النظرية والمنهج

لا يكاد يخلو كتاب معاصر في علم الاجتماع سواء تعلق بالنظريــة أو المنهج أو الموضوع ، أو كان بصدد تأريخ الفكر الاجتماعي بعامة من اشارة لماكس فيبر ، فلقد تجلت عظمة فيبر في قدرته الفائقة على شمول كافة مسائل علم الاجتماع ، اذ من خلال اطار نظري واضــح المعالم ، وباستخدام منهج جديد متميز ثاقب الرؤية واسع البصيرة ، استطــاع فيبر أن يقدم مضمونا محددا لعلم الاجتماع ، ذلك العلم الذي يضطلــع بمهمة دراسة وتحليل السلوك الانساني لفهم مقاصده ومعرفة دوافعــه وغاياته ، فضـــلا عن استطـــلاع أسس التنظيمات الاجتماعيـــة ووصف وتشخيص مقوماتها ، وتعيين معالم بنائها ككل .

ومع أن لعلم الاجتماع عند فيبر قسمات محددة دقيقة تختلف عن الصورة التي اتخذها علم الاجتماع عند غيره من الرواد ، فاننـــا نستطيع

أن نستوعب طبيعة علم الاجتماع عنده من خلال معالجة مقارنة لأفكاره سيرا على المنهج الملائم لدراسه النظريات الاجتماعية الكبرى،فماكس فيبر وان اطلق عليه زايتلن «ماركس البرجوازي» استطاع آن يشيد صرح علم الاجتماع في ضوء اعادة النظر التي أجراها للموضوعات التي طرحها كارل ماركس ، تشهد على ذلك مؤلفاته ودراساته المختلفة ، فاهتمامه بتتبع أصول الرأسمالية الحديثة ومن ثم محاولته فحص كافة النظم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في الحضارة الغربية يعكس تأثره بمنهج ماركس في محاولة لاتخاذ موقف يتعارض معه حول نفس المسائل المطروحة قيد البحث .

ان من يدرس علم الاجتماع عند فيبر يستطيع أن يقف على تيارات عديدة تجمعت وانصهرت فأثمرت نسقا فكريا متكاملا ، فلقد أدخل فيبر العنصر السيكولوجي ، اذ يعتقد أن علم الاجتماع كعلم يتعين أن يبحث عن تفسير سببي للفعل الانساني قادر على معرفة غاياته ومقاصده ، والتفسير السببي يحقق لعلم الاجتماع صفة « العلم » التي كافح من أجلها أوجيست كونت « العلم الوضعي » واميل دور كايم ، ولكن دراسة السلوك الانساني يتعين عند فيبر أن تبرز بعدا آخرا هو بعد « الفهم » الذي يقوم على التعاطف مع الآخرين ، وسبر أغوارهم للتأكد من حقيقة هذا السلوك بدلا من الاكتفاء بمظاهره الخارجية فقط ، ومن هنا برزت نزعة جديدة تدعو الى الاهتمام بدراسة الظواهر الاجتماعية من الداخل أيضا ، مثلما ندرسها من الخارج كما لو أنها أشياء . ولم يقتصر فيبر — كما سنرى — على هذا التصور الجديد لموضوع العلم ، وانما راح ينقب في التاريخ ليبحث عن دور الأفكار في تفسير العمليات التاريخية الكبرى ، وبالطبع لجأ فيبر الى المنهج التاريخي المقارن فظهر واضحا جليا في بحثه عن علاقة البروتستانتية بالرأسمالية الحديثة . وبالاضافة

الى ذلك كله كان فيبر رائدا في عدة ميادين هي علم الاجتماع الديني ، وعلم الاجتماع السياسي ، وعلم الاجتماع القانوني ، وسوسيولوجيا التنظيم والادارة •

١ ــ خلفية تاريخية :

لا تكتمل دراسة نظرية علم الاجتماع عند فيبر بدون معرفة السياق التاريخي لأفكاره ، ويمتد بحثنا في هذا السياق التاريخي ليشمل الأسرة التي نشأ فيها ماكس فيبر ، اذ أن الجو الأسري الذي عاشه فيبر كان له أثر واضح في تشكيل افكاره واهتماماته العلمية • فلقد ولد فيبر في ألمانيا عام ١٨٦٤ في أسرة موسرة ، اتسمت بالاهتمام الواضح بالعمل السياسي، اذ كان والده يعمل في ميدان السياسة في عهد بسمارك، وظل لعدة أعوام عضوا في الريشستاخ . وانتمى الى الحزب الوطني المتحرر • ولقد أتاح اهتمام والده بالسياسة والقانون الفرصة لماكس فيبر لكي يلتقي في منزل العائلة ببعض الشخصيات البارزة في هذا الوقت من أمثال ديلتاي Dilthey ومومسن Mommsen ، والشيء الذي يعنينا من ذلك أن هذا الاهتمام المبكر أثار عند فيبر ذلك الوعي المستمر بأهمية العمل السياسي (١) • وفي جامعة برلين تخصص فيبر في الفقه ، وكان من المتوقع أن يكون استاذا للقانون، ولكن اهتمامه انصرف عنه بعض الشيء حيث دعي الى جامعة فرايبورج Fruibwrg عام ١٨٩٣ لكي يعمل استاذا للاقتصاد بها • غير أن اهتمامه بالقانون ظل مع ذلك ملازما له وان دعمته النظرة التاريخية، فقد كان ميالا نحو فحص العلاقة بين القانون والتنظيم الاقتصادي • وتكشف رسالته للدكتوراه عن ذلك فقد جعل موضوعها : « الشركات التجارية في العصور الوسطى » ، وهي توضح

(١) Fletcher, R. the Making of Sociology, *op. cit*, p. 287.

تحوله من التاريخ القانوني الى التاريخ الاقتصادي (١) • ثم انتقل فيبر من جامعه فرايبورج الى جامعة هيدلبرج Heidelberg ، ولكنه اصيب في عام ١٩٠٠ بنوبة عصبية حادة اضطر معها الى ترك منصبه العلمي ، ولم يعد للتدريس مرة ثانية حتى عام ١٩١٨ خلال الحرب العالمية الاولى ، وتوفي عام ١٩٢٠ حينما بلغت أفكاره كامل نضوجها •

ولقد كان فيبر يتسم بنشاط واضح ، الى جانب سحر وقوة في الشخصية ، وقدرة عقلية ثاقبة ، احدثت تأثيرا كبيرا عند كل من التفوا حوله ، الأمر الذي دفع البعض الى وصفه بأنه «بنى القومية الألمانية» (٢) • ومما يدل على نشاط فيبر الواسع النطاق أنه زار الولايات المتحدة عام ١٩٠٤ » ودرس اللغة الروسية لكي يطلع بنفسه على الصحف الروسية ، وتابع الثورة التي لم يكتب لها النجاح عام ١٩٠٥ ، كما كان من كبار المناوئين لسياسة القيصر فلهلم الثاني ، وكان أيضا من كبار النقاد خلال الحرب العالمية الأولى في المسائل السياسية والاقتصادية ، كذلك كان فيبر عضوا في اللجنة الشهيرة التي قدمت مذكرة ادانة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى » وهي المذكرة التي قدمت لمؤتمر فرساى • ولقد تميزت آراء فيبر السياسية بنزعة تحررية تعكس الجو السائد في حياته الأسرية • لكل هذه الأسباب يمكن القول أن حياة ماكس فيبر تنقسم قسمة متعادلة بين العلم والسياسة (٣) •

---

(١) Parsons, T. «Max Weber, the Sociologicat Analysis of Capitalism and Modern Institutions» In Barnes (ed.). *An Introduction to the History of Sociology, N.Y.* Harper, 1947 p. 287.

(٢) Weber, M. *the Protestantic Ethic and the Spirit of Capitalism,* (Parsons. trans) London, 1956, p. 17.

(٣) Arun Sahay, (ed.) *Max Weber and Modern Sociology;* London, Routledge and Kegan Paul, 1971, p. 2.

ويذهب أغلب علماء الاجتماع الى أنه يتعذر فهم علم الاجتماع عند ماكس فيبر بدون الاشارة الى المناخ الفكري ، وبخاصة المناخ الفلسفي والعلمي في ألمانيا حتى القرن العشرين ، ذلك أن تكوينه العقلي مرتبط في الواقع بالظروف العامة في عصره ، وبخاصة المواقف والحركات العقلية في ألمانيا . فلقد أقدم على دراسة القانون تحت تأثير المدرسة التاريخية التي كانت تحتل مكانة عالية في جامعات ألمانيا آنذاك . كما أنه وقف موقفا نقديا معارضا لاتجاه النزعة الصورية التي تبدو في الفلسفة الكانطية الجديدة في القانون ، تلك التي يمثلها ستاملر Stammler وقد جعلته هذه الأفكار يهتم بتاريخ النظم القانونية ، فضلا عن دراسة الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية المصاحبة لها ، ولعل دراسته المبكرة في هذا الميدان عن تدهور الامبراطورية الرومانية ، ودراسته عن التاريخ الاقتصادي للعالم القديم ، تؤكد اعتماد القانون على القاعدة الاقتصادية والتكنولوجية (١) .

ولم يكن الجو الفكري في ألمانيا في الوقت الذي عاش فيه فيبر مشجعاً على نمو علم اجتماع أكاديمي . فالتاريخ كان محكوماً الى حد بعيد بأفكار كل من هيجل Hegel ورانكه Ranke كما كانت المدرسة التاريخية لا تشجع صياغة نظرية منظمة (٢) . وشهدت ألمانيا في ذلك الوقت أيضا انتعاش الفلسفة الكانطية التي تؤكد وجود هوة لا يمكن عبورها بين عالم الظواهر المادية وعالم الروح، ذلك الذي يظهر أولا وقبل كل شيء في القيم ، أما فيما يتعلق بالعالم المحسوس ، فانه من

(1) Weber, *the Theory of Social and Economic Organisation* (Parsons. trans). N. Y. the Free Press, 1947, p. 15.

(2) Weber; *Essays In Sociology,* (Gerth & Mills, trans), (N. Y., Oxford University Press, p. 45.

المسلم به أن العلوم الطبيعية هي وحدها التي تستطيع أن تقوم بصياغة « قوانين الطبيعة » في قضايا تتعلق بالاطرادات المنتظمة ، بينما يستطيع العلم أن يكتسب معرفة تتعلق بحالات وعمليات العقل الانساني عن طريق فهم هذه الحالات داخليا • وهو لا يستطيع أن يدرك وجود « اطرادات » في عالم الروح ، ولذلك يجب أن يحصر نفسه في عملية الوصف الدقيق ، وتقويم الاحداث ونتائجها في مظاهرها الفريدة غير المتكررة • ويرى بارسونز Parsons أن ألمانيا في ذلك الوقت كانت معقل الفلسفة المثالية ، وما يرتبط بها من محاولة وضع تمييز منهجي محدد بين العلوم الطبيعية ، والعلوم التي تعالج الفعل الانساني Human Action [1] بحيث أصبح من المعتقد فيه أن هذه العلوم الأخيرة لا يمكن أن تسير على هدى العلوم الطبيعية ، حين كان الاعتقاد بأنه لا يوجد الا في العلوم الطبيعية الفئات النظرية التعميمية • أما الميدان الاجتماعي فهو ينظر اليه على أنه تاريخي أساسا ينهض البحث فيه على تتبع النتائج التكوينية للدوافع والتأثير الثقافي • وعند هذه النقطة يبدأ نقد فيبر للمدرسة التاريخية ، وتتمثل نظريته الأساسية في أنه عن طريق استخدام الفئات النظرية التعميمية ، الواضحة أو المستترة ، يصبح من الممكن منطقيا أن نبرهن على وجود العلاقات السببية • وتتطلب هذه النظرة صياغة جديدة للبناء المنطقي للعلوم الاجتماعية ، حيث أنه أصبح من الضروري أن ينصرف الاهتمام الى التساؤلات الخاصة بالنظرية التعميمية المنظمة ، وفي الاضطلاع بهذا البناء الجديد حاول فيبر Weber أن يقدم فكرته عن النموذج المثالي Ideal Type ونظريته في الفعل الانساني •

---

(1) Parsons, *op. cit.* p. 290

ولقد بذل فيبر جهدا ممتازا لكي يتغلب على التعارض القائم بين العلم الطبيعي ، والروحاني Spirtual ، وأن يقدم لنا نسقا سوسيولوجيا يحتفظ بأقيم العناصر المتضمنة في كل من الاتجاهين. ويتضح ذلك بخاصة في محاولته التوفيق بين الاتجاهات الكانطية المحدثة ، والمثالية المحدثة. ويمكن أن نتعرف على الفائدة التي جناها فيبر Weber ، حينما نقابل بين مفكرين أحدهما مثالي محدث وهو دلتاي Dilthey ، والآخر كانطي محدث وهو ريكرت Rikert .

يعترض دلتاي ، وهو المثالي المحدث ، على تطبيق مناهج العلوم الطبيعية على العلوم الثقافية ، ويحاول على هذا الأساس أن يضع حدا فاصلا بين العلوم الثقافية والعلوم الطبيعية وهو يرى أن الفكر الانساني يتخذ في كل من العلمين شكلا متميزا ومنهجا مختلفا . فالعلوم الطبيعية تعالج وقائع Facts ، بينما تعالج العلوم الثقافية المعاني meanings والفكر في العلوم الطبيعية يتخذ صورة التفسير Explanation ، بينما يتخذ في العلوم الثقافية صورة الفهم Understanding . أما التفسير فيقيم العلاقات السببية والقوانين ، ويقترب من موضوعه من الخارج ، على حين يحاول الفهم أن يربط المعنى بالمعنى ، ويدرك موضوعه مباشرة عن طريق الحدس ، ومنهج التفسير في العلوم الطبيعية هو منهج التجربة ، أما منهج الفهم في العلوم الثقافية فهو ذلك الذي يتكون من تفسير عن طريق « نماذج مثالية » أو أشكال وصور للمعاني .

أما ريكرت ، وهو الكانطي المحدث ، فهو يقف موقفا معارضا لتصورات دلتاي حين يضع تمييزاته بطريقة مختلفة تماما ، فالعلم بالنسبة له يهدف الى تفسير الظواهر ، ولا يهتم في هذا الصدد بما اذا كانت هذه الظواهر تتعلق بالفرد أم بالعالم الفيزيقي . فالظواهر هي الظواهر ،

والعلم هو العلم • ان الفارق الأساسي عند ريكرت يكون بين العلم والتاريخ • فالعلم هو تحليل الطبيعة في ضوء القوانين السببية ، والتاريخ هو تحليل الطبيعة كنمط للاحداث الفريدة • ولعل وجه الاختلاف الأساسي بين دلتاي كمفكر مثالي جديد ، وريكرت باعتباره كانطي محدث، يتمثل في وجهة نظر دلتاي في أن العلوم الثقافية والاجتماعية تعالج مضمونا متمايزا ، بمعنى أنها ما دامت تهتم بالمعاني ، فان هذه المعاني تختلف من فرد الى فرد ، ومن جماعة الى جماعة • وذلك في مقابل فكرة ريكرت في أن العلم يعالج ظواهر ليست متمايزة ، أي ظواهر متماثلة تخلو من المعنى • ويعتقد دلتاي أن العلوم الثقافية تعالج الروح الانسانية ، تلك التي تمر في عملية مستمرة من التغير والتطور • وعملية التغير والتطور هذه هي أهم خصائص مضمون العلوم الثقافية ، ولم ينظر اليها ريكرت على أنها خاصية للمضمون ، بل على أنها خاصية للمنهج ، والمثالي الجديد يهتم بالعالم كميدان للفعل ، أما الكانطي الجديد فهو يهتم بالعالم باعتباره موضوعا للمعرفة • ذلك أن الطبيعة ــ عند ريكرت ــ هي كل واحد ، قد تدرس اما عن طريق العلم واما عن طريق التاريخ ، والأمر بينهما مختلف تماما (١) •

أما موقف فيبر Weber فيتلخص في أنه حاول أن يتوسط آراء كل من ريكرت ودلتاي ، فهو يوافق دلتاي على أن المعاني والقيم هي موضوع علم الاجتماع ، وهو ينظر كما هو الأمر عند ريكرت ، الى العلم باعتباره علما ، سواء كان يعالج ظواهر عقلية ، أو اجتماعية ، أو فيزيقية • وهو على العكس من دلتاي لا يعتقد أن عزل المعاني المتضمنة في الاحداث الاجتماعية ، يضع علم الاجتماع في فئة مختلفة عن تلك العلوم

(1) Martindale, *op. cit.*, pp. 378 - 379

التي تحاول اقامة العلاقات والقوانين السببية • كما أنه لا يجعل من العلوم والتاريخ معسكرين منفصلين ــ على عكس ما يرى ريكرت ــ الا أنه يفضل أن يتقبل الفكرة التقليدية من أن علم الاجتماع هو نظام علمي يهتم بدراسة مادة مشتقة من التاريخ • وهو يعتقد أن الاستخدام الدقيق لطريقة التصنيف Typology سوف يساعد على النهوض بهذا العلم من الناحية المنهجية • وهكذا حاول فيبر أن يستفيد من الامكانيات التي تقدمها العلوم « الطبيعية » و « الروحانية » على حد سواء • ويتضح ذلك من أنه يرى أن أعلى مستويات الفهم التي تصل اليها الظواهر الاجتماعية هو الفهم الملائم سببيا Casually adequate والمناسب أيضا على مستوى المعنى (١) ، وهذا يعني أن فيبر يرى في علم الاجتماع دراسة تبحث عن الاسباب ، وفي نفس الوقت دراسة للمعاني ، ذلك أن الوقائع الاجتماعية تختلف عن وقائع العلوم الطبيعية من حيث القصد والمعنى المتضمن في الأولى ، والذي يرجع الى طبيعتها الانسانية • وهكذا تختلف العلوم الطبيعية عن العلوم الاجتماعية من حيث أن النشاط الانساني يتجه في الاولى الى الضبط Control ، ذلك أن من يستطيع معرفة اطراد الوقائع الطبيعية يمكنه أن يرتب قوى الطبيعة ، وعلى العكس من ذلك يتجه النشاط الانساني في الثانية الى التقويم Valuation اذ يعتبر مفهوم الثقافة ذاته مفهوم قيمي • فالواقع اذا كان يرتبط بالقيم ، يصبح واقعا ثقافيا ، أما صدق القيم فهي مسألة ايمان وليست مسألة « معرفة » وبذلك ستركز العلوم الاجتماعية على دراسة القيم ، ولكنها مع ذلك لن تحاول أن تقدم معايير ملزمة ، أو مثاليات،

---

(1) Timasheff, op cit.p. 196.

أو طرائق للسلوك والعمل : وتبعا لذلك يجب أن تتحرر هـذه العلـوم الاجتماعية من القيمة Value-Free •

وقد شكلت النظرية الماركسية جانبا من المناخ الفكري الذي عاشه ماكس فيبر ، وأهم ما لفت نظره هو ذلك الخطأ الذي وقع فيه ماركس ألا وهو تأكيده دور عامل واحد هو العامل الاقتصادي ، ومن ثم وقف فيبر موقفا معارضا مـن الماركسيـة ، حيـث هـي فـي نظـره « نظريـة متحيزة في اتجاهها نحو اعادة بناء العلاقات الاجتماعية والتاريخية علـى أساس اقتصادي فريد ، وأهم نقد يوجهه للماركسية يتمثل في فشلها في التميز بين ما هو اقتصادي وما هو «حتمي اقتصاديا»، وما هو « ملائم أو مناسب اقتصاديا » اذ طغت الحتمية الاقتصادية على كل تفكير كـارل ماركس (١) • ولقـد جعل مـاكس فيبر دراستـه عـن « الاخـلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية » بمثابة اختبار يدحض على أساسه نظرية ماركس من أن الاصلاح البروتستانتـي هـو نتيجة مصاحبة لنشـأة الرأسمالية • غير أن ذلك لا يجب أن يدفعنا الى حد القول بأن فيبر كان هو « العدو اللدود » لماركس على طول الخط ، وانما الأمر على العكس من ذلك تماما ، اذ من الممكن تصنيف أعمـال فيبر النظرية والمنهجيـة بوصفها تنتمي الى نفس التيار الفكري الذي عبرت عنـه الماركسية ، ويؤكـد زايتلن هـذه الحقيقة ، فهـو يقـرر أننـا لا يجب أن نقـرأ فيبر باعتبار أنه يرفض الاسس المنهجية التي وضعها ماركس، وانما فيبر قد استكمل هذه الأسس وطورها (٢)، وهكذا يمكن القول أن فيبر وماركس

(1) Gerth & Mills, *op. cit.*, p. 46.
(2) Zeitlin, *op. cit.*, p. 112.

قد تبنيا اتجاها تاريخيا ـ بنائيا ، وان كان كل منهما قد انطلق مـــن وجهة نظر مختلفة في تفسيره لنشأة النظام الرأسمالي (١) •

والواقع أن الانجاز الفكري الذي قدمه ماكس فيبر يتميز بالثـــراء والتنوع (٢) بحيث يصعب على الدارس أن يعرضه أو يتناوله مثلما هـــو الأمر بالنسبة لعلماء آخرين من أمثال دور كايم أو باريتو ، ومع ذلك فقد صنف ريمون آرون أعمال فيبر على النحو التالي :

---

(١) انظر دراسة بـالفة القيمة عـن ماركس وفيبر فـي : السيد الحسيني ، اتجاهات علم الاجتماع في فهم مشكلات الدول النامية ، فـي دراسات في التنمية الاجتماعية ، تأليف د. السيد الحسيني وزملاؤه ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، ١٩٧٤ ، ص ٤٣ وما بعدها .

(٢) نستطيع ان نعطي القارىء صورة لاعمال فيبر التي ترجمت الـى الانجليزية حسب ترتيب ظهورها في امريكا على النحو التالى :
General Economic History, (trans by Frank H. Knight) New York. Greendeng 1927, *The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism,* tr. by Talcott Parsons) New York. Scribnor's, 1930, 1958). From Max Weber Essays in Sociology, (Tr. and ed. by Hans Grerth and G. Wright Mills) New York. Oxford University Press, 1946) *Tho Theory of Social and Economic Organization,* (Tr. by M. Henderson & Parsons). N. Y., Oxford, 1947. *The Methodology of the Social Sciences,* (Tr. by Edward Shills & Henry Finch) Glencoe, 1949, *The Religion of China,* (Tr. by Hans Gerth) Wirtschaft & Gessellschaft Glencoe, 1957, *Ancient Judaism* (Tr. by Gerth & Don Martindale) Glencoe, 1957 *Max Weber on Law in Economy and Society,* (Tr. by Shills & Max Rheinstein) Cambridge; 1944. The City, (Tr. by Don Martindale and Grertrud Neuwirth) Glencoe, 1968, *The Religion of India,* (Tr. by Hans Gerth and Don Martindale Glencoe, 1958, the *Rational and Social Foundations of Music,* (Tr .by Don Martindale, Johannes Riede land Gertrud Neuwirth) Carbondale, 1958.

١ ــ دراسات في المناهج ، والنقد ، والفلسفة ــ وهي دراسات تتعلق أساسا بالعلوم الاجتماعية ، وبالتاريخ ، وعلم الاجتماع ، وهذه الدراسات تتميز بأنها دراسات تنتمي الى مجال نظرية المعرفة (الابستمولوجيا) ، أو أنها تسعى الى تطوير مدخل يفسر العلاقة بين العلم والفعل الانساني ، وقد ضمن هذه الدراسات مجموعة أبحاث له بعنوان : دراسة في نظرية العلم •

٢ ــ أعمال تاريخية أساسا وتشمل دراسة علاقات الانتاج في الزراعة في العالم القديم ، دراسة في التاريخ الاقتصادي العام (وتمثل هذه الدراسة مجموعة محاضرات قام فيبر بالقائها ونشرت بعد وفاته) ، دراسة متخصصة تتناول المشكلات الاقتصادية في ألمانيا أو أوروبا المعاصرة ، وبخاصة دراسته للموقف الاقتصادي في المقاطعات الشرقية بألمانيا ، والعلاقة بين الفلاح البولندي والطبقات الحاكمة الألمانية •

٣ ــ دراسات في علم الاجتماع الديني ، وتبدأ بدراسته عن العلاقة بين الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية • ثم قام فيبر بعد ذلك بدراسات مقارنة تناولت الأديان الكبرى والعلاقة المتبادلة بين الظروف الاجتماعية والاقتصادية من جهة ، والاتجاهات الدينية من جهة أخرى •

٤ ــ هناك بعد ذلك الدراسة الهامة التي قدمها فيبر بعنوان الاقتصاد والمجتمع Wrtschaft and Gesellschaft ، وقد نشر هذا العمل الضخم بعد وفاته (١) •

ومن العسير بالطبع أن نغطي كل هذه الأعمال في هذه المقدمة، ولهذا فسوف نكتفي في الصفحات القادمة بتناول الأفكار الرئيسية التي

---

(١) راجع : Aron, *op. cit.*, p. 185. See Alsa.
Aron, *German Sociology*, Tr. by Mary and Thomas Bottomore, Glencoe, the Free Press, 1957.

ارتكزت عليها أعماله المختلفة ودراساته المتخصصة ، ومن ثم تكون نقطة البدء هـي تحليل مفهوم العلم وتحديـد فيبر للمناهج الملائمـة للعلوم الاجتماعية . وسيحظى هذا الجانب بالذات باهتمام خاص ، نظرا لاعتقادنا بأن المنهج عند فيبر يشكل اسهاما عظيما مـن بين الاسهامات التي قدمها، ويمكن أن ينطوي على توجيه جديد للبحوث الاجتماعية فيه من الاصالة والجدة مالم يتحقق عند غيره من علماء الاجتماع ذوي النزعات المنهجية. ولم يضع فيبر مبادئه المنهجية وضعا تقليديا في صورة قواعد للبحث ، وانما صاغ هذه المبادىء من خلال فلسفة خاصة تسعى الى الربط بـين العلم والسياسة ، بين النموذج المثالي للعالم ، والنموذج المثالي لرجـل السياسية . أما بقية أجزاء هذا التقديم فسوف نكرسها لعرض موقفه من علم الاجتماع ودراسة الفعل الاجتماعي ، ثم دراساته المتخصصة فـي بعض الميادين التيسنختارها للعرض والتحليل لما لها من أهمية خاصة (١).

١ ــ العلم ومنهجه :

ما العلاقة بين العلم والسياسة؟ وهل يستطيع العالم أن يكون رجل سياسة ؟ لقد كانت هذه المسألة ذات أهمية خاصة عنـد ماكس فيبر اذ أنـه كان مولعا بالعمـل السياسي ، ولكنه كان يشارك في هذا العمل من موقع الاستاذ . لقد لخص فيبر موقفه من هذه المسألة في مقالين لـه

(١) سيجد القارىء ان بعض الميادين لم نعرض لها بالتفصيل ، وانما نوقشت في ثنايا البحث ، ونذكر بالذات موضوع البيروقراطية والسلطة، وذلك لاننا عرضنا بالتفصيل لهذا الموضوع في مؤلفين سابقين لنا همـا : علم الاجتماع السياسي ، وعلم اجتماع التنظيم ، ويمكن للقارىء أن يرجع اليهمـا .

هما : « السياسة كحرفة » و « العلم كحرفة » (١) • فالعالم يهدف الى صياغة قوانين تتعلق بالارتباطات السببية بين الوقائع ، أو أنه يسعى الى التوصل لتفسيرات شاملة وصادقة لما يدرسه من ظواهر ، وعلى هـذا النحو يصبح البحث العلمي ضربا من السلوك العقلي الذي يصبو نحـو تحقيق غايات محددة بوضوح ، وتتمثل هذه الغايات في اكتشاف الحقيقة المطلقة • وهنا يمكن القول ان غاية العلم قد تحددت على أساس حكـم قيمي، ذلك الحكم هو ما أطلقنا عليه مصطلح «الحقيقة المطلقة أو العامة»• وهكذا ، أصبح السلوك العلمي هو في جوهرة عبارة عن سلوك عقلي له علاقة بهدف معين من جهة ، وبقيمة من جهة أخرى • القيمة هي الحقيقة ، والعقلانية هي القواعد المنطقية للبحث التي لا بد من الاهتمام بهـا لكي نستطيع أن نثق في صحة النتائج • والواقع أن فيبر يدرك العلم بوصفه جانبا من العقلانية التـي أصبحت سمة مـن سمات المجتمعات الغربيـة الحديثة ، اذ أن العصر الحديث هو الذي يملك أدوات الفهـم العقلـي الشامل لكافة الظواهر وطريقة عملها ، على نحو لم يتحقق في أي مرحلة تاريخية سابقة • وعلى ذلـك ، فان فيبر يحدد خاصيتين للعلم همـا : (١) أن العلم لا يمكن أن يصل الى درجة الكمال ، (٢) أن العلم ينشـد الموضوعية ، ويسعى الى التحرر من أحكام القيمة • أما الخاصية الأولى

---

(١)راجع Weber, Politics as a Vocation and Science as a Vocation, in, Weber, *Essays in Sociology,* op. cit., Also see, Aron' *op. cit.,* pp. 189-192. Also, Bennion, *L. Max Webers Methodology,* 1934.

(١) يرى بعض الدارسين أن فكرة فيبر عن الفهم مستعارة من كارل ياسبـرز Karl Jaspers ، وبخاصة في الفترة التي كان فيها ياسبرز عالم نفس او بالاحرى متخصصا في الامراض النفسية (Aron, op cit., p. 197) • ويقول أرون لقد نشر ياسبرز في شبابه مقالا عن الامراض النفسية (ترجم الى الفرنسية بواسطة جان بول سارتر) وجوهر هذا المقال هو التفرقة بين التفسير والفهم • فالمحلل النفسي يفهم الحلم،

فتعني أن فيبر يعتقد باستمرار أن العلم في تطور بحسب طبيعته الخاصة، فهو لا يتعلق بالقضايا ذوات الغايات المطلقة ، وانما هـو يتحرك نحـو هدفه محاولا التجديد باستمرار في التساؤلات التـي يطرحها ، وفـي الأدوات والمناهج التي يستخدمها • وفيما يتعلق بالخاصية الثانية ، نلاحظ أن العلم يسعى باستمرار الى الالتزام بالموضوعية والى صياغة نسق مـن القضايا العامة الصادقة ، ولا شك أن ذلك ممكن حينما يستطيع العالم أن يتخلى عن أحكامه القيمية والجمالية وتفضيلاته السياسية ، ويعتقد فيبر أن كلا من العلوم الطبيعية والتاريخية الثقافية متساويان في ذلك ، لكن ذلك بالطبع لا يلغي الفروق بين هذه العلوم •

وهكذا ، ينتقل فيبر الى نقطة أخرى وهي تحديد طبيعة هذيـن النوعين من العلوم ، اذ يتصور العلوم الثقافية والتاريخية بوصفها ذات خصائص جد فريدة ، وربما ترجع اصالة هذه العلوم الى أنها تنشد الفهم وتسعى الى تحقيقه ، وأنها ذات طبيعة تاريخية ، ثم هي تعالج مسائـل ثقافية • أما مصطلح الفهم Verstehan (١) فان له معنى محدد عنـد فيبر سوف تتناوله فيما بعد بالتفصيل • ولكن يكفي عند هذه المرحلة أن نذكر أن فيبر يعتقد أن العلوم الطبيعية يمكنها أن تفهم الظواهر فقط من خلال القضايا الرياضية والقوانين التي تكتشفها عن الأحداث والوقائع

←

او العلاقة بين خبرات الطفولة المبكرة وظهور بعض الاضطرابات العصبية، ويعتقد ياسبرز انه على اول مستوى للشعور يمكن تطبيق نوع من الفهـم المباشر للمعاني ، بينما هناك حدود أمام هذا الفهم ، فمن اليسير أن نفهم الامراض العصبية ، وليس من المكن دائما فهم الامراض النفسية ومعنى ذلك كله ان السلوك يفهم داخل سياق معين ، ويعتقد آرون أن هذه التفرقة هي الاساس الذي استند عليه فيبر في فكرته عن السلوك الاجتماعي القابل للفهم نفس الطريقة التي يتبعها عالم النفس حين يفهم الحالة العقلية الكامنة خلف السلوك (Aron, Loc. cit.) .

الثابتة في الطبيعة • وبعبارة أخرى ، ان هذه العلوم عليها أن تصطنع التجربة في كل تفسير تصوغه لظواهرها لكي تحقق فعلا فهما لهذه الظواهر • على حين أن الفهم في المجال السلوكي مباشر وراجع الى الوعي الذي يتحقق عند الانسان والى خبرته بأقرانه في حياته اليومية • وتستطيع العلوم الخاصة بالواقع الانساني أن تصل الى فهم سريع للعلاقات المتبادلة بين الناس ، لكن ذلك لا يعني بالطبع أن الفهم المباشر للسلوك الانساني يلغي البحث في هذا السلوك أو أننا نستطيع أن نصل لأول وهلة الى معرفة كاملة للسلوك • ان الفهم عند فيبر يصل الى تفسيرات السلوك ، لكننا لا نتمكن من معرفة حقيقة هذه التفسيرات الا اذا توصلنا الى دليل أو برهان يكشف لنا عن أي هذه التفسيرات حقيقي وأيها زائف •

وقد ذكرنا أيضا أن هذه العلوم ذات طبيعة تاريخية ، وترتبط هذه الطبيعة ارتباطا وثيقا بفكرة الفهم ، ذلك أنه من خلال التاريخ نستطيع أن ندرك خصوصيات الأحداث ، وتفاصيلها الجزئية ، كما نتصور في الوقت ذاته اتصال هذه الأحداث ببعضها في سياق الزمن، مثل هذا الفهم التفصيلي لا يمكن أن يتحقق للعلوم الطبيعية • ومن الملاحظ أخيرا ، أن هذه العلوم الانسانية هي في جوهرها علوم ثقافية ، اذ هي تسعى الى فهم وتفسير منتجات الانسان خلال التاريخ ، وليست هذه المنتجات هي الفنون وحسب ، وانما تشمل أيضا القوانين ، والنظم ، والأنظمة السياسية والاقتصادية والعلم والموسيقى وهكذا، يرى فيبر أن العلوم الثقافية تبذل جهدا لتفسير القيم التي آمن بها الناس ، والأعمال التي أنتجتها البشرية• والسؤال الآن هو كيف يمكن أن توجد علوم موضوعية ـ متحررة من أحكام القيمة ـ تختص بدراسة القيم الإنسانية •• ذلك هو التساؤل

الرئيسي الذي وضع فيبر منهج علم الاجتماع ككل للاجابة عليه [1] .

ومن الجدير بالذكر أن القواعد المنهجية عند فيبر ليست مجموعة من أدوات البحث أو وسائل جمع البيانات وتحليلها ، وانما المنهج عنده قريب من فلسفة العلم اذ هو يعالج المشكلات الاساسية للمعرفة الانسانية، طبيعتها ، حدودها ، امكانياتها . ويقول ارن ساهاي Arun Sahay في مقال له عن « أهمية المناهج عند فيبر في التفسير السوسيولوجي » (١٩٧١) « ان المناهج التي قدمها فيبر كانت هي الوحيدة خلال تاريخ الفكر الاجتماعي التي قدمت حلا واضحا للمشكلات العملية — في مقابل المشكلات الميتافيزيقية والعاطفية — للتحليل السوسيولوجي » [1] ، ومن خلال مناهج العلوم الاجتماعية عند فيبر نستطيع أن نفهم تماما

(١) ان العلوم الثقافية — التاريخ وعلم الاجتماع — تهدف الى فهم السلوك البشري المتسع بالقيم ، والعلم كما نعلم هو نشاط عقلي يهدف الى صياغة أحكام واقعية ذات صدق عام . وهنا تبدو المشكلة وهي كيف يستطيع المرء صياغة أحكام واقعية صادقة حول مسائل مشبعة بالقيم ؟ ويمكن حل هذه المشكلة في التفرقة بين حكم القيمة Value-Judgement وبين مرجع القيمة Value-reference . فرجل السياسة أو المواطن على سبيل المثال يعتقد أن الحرية بمعنى أو آخر هي قيمة أساسية. اما القول بأن الحرية على وجه العموم أو حرية التعبير أو الفكر هي قيمة أساسية فهو حكم يعبر عن رأي شخصي ومن حق أي شخص آخر أن يقبل هذا القول أو يعتبر حرية التعبير ليست قيمة أساسية. أما مصطلح مرجع القيمة فهو يعنى ببساطة — فى المثال السابق — أن عالم الاجتماع السياسي سوف يعتبر حرية التعبير مسألة لم توافق عليها المعلومات التاريخية ، أو انها كانت محور مناقشة بين الاحزاب ، بل هو يستطيع أن يحدد الواقع السياسي لها ، هنا يهتم عالم الاجتماع بالحرية كقيمة اجتماعية ينظم على أساسها موضوع دراسته . وللقيم بالطبع اهمية خاصة في اختيار وتنظيم موضوعات البحوث الاجتماعية . ومن هذا تبدو أهمية ربط القيم بالمادة التاريخية والاجتماعية راجع :

Aron, op. cit., p. 194, Alane Dawe, the Relevance of Value, in Arun Sahay (ed.), op. cit., p. 28.

(٢) Aron Sahay, the Importance of Webers Methodology in Sociological Explanation, in Sahay, (ed.), op. cit., p. 67.

الكثير من النظريات والمبادىء التي صاغها رواد آخرون لعلم الاجتماع •

ولعل أول مقولات المنهج عند فيبر هي مقولة الفهم ، والفهم عند فيبر ليس مرادفا للحدس التعاطفي الغامض الذي تحدث عنه غيره من الفلاسفة ، ولكنه فهم فكري ، وتحليلي ، وتفسير تنبؤي للسلوك • واذا كان فيبر قد حاول أن يتغلب على التعارض بين العلوم الطبيعية والثقافية، وأن يتخذ موقفا وسطا بين آراء كل من ديلتاي وريكرت ، فماذا أراد لمصطلح الفهم ان يحققه من اهداف في هذا الصدد ؟ ان الفهم عند فيبر يحقق هدفين اثنين فهو ، من ناحية ، يمكننا من معرفة الأسباب والعوامل التي تؤدي الى حدوث الظواهر الاجتماعية ، وذلك من خلال صياغة فئات سوسيولوجية عامة ، وهو من ناحية أخرى ، يمكننا من ادراك المعاني الذاتية التي تنطوي عليها الأفعال الانسانية • وهكذا ، يتعين أن يكون الفهم — في رأي فيبر — فهما ملائما سببيا ، وملائما أيضا على مستوى المعنى [١] • ويتحقق النوع الأول من الفهم من خلال تفسير سلسلة من الأحداث في ضوء تعميمات تكشف امكانيات ظهور هذه الأحداث في مواقف متعددة • أما الفهم الملائم على مستوى المعنى فهو يستند الى الحقيقة التي مؤداها ، أن الكائنات الانسانية على وعي مباشر بأفعالها ، وأننا حينما ندرس العلاقات المتبادلة بين الناس نستطيع أن نذهب الى ما وراء العلاقات السببية والوظيفية ، اذ نستطيع فهم النوايا والمقاصد الذاتية للناس ، وطالما أن « الفعل Action » هو الاطار المرجعي التحليلي

---

(١) يقول جون ركس ان محاولة فيبر للربط بين مستويين للفهم هي في الواقع محاولة لعبور الفجوة بين الفهم والتفسيرات الاجتماعية والوضعية ، وقد عرضت هذه المحاولة أعمال فيبر لانتقادات عديدة . اذ انتقده الفلاسفة والمدرسة الفينومينولوجية في علم الاجتماع الحديث على أساس أنه لم يحاول أن يحدد بشكل علمي مفهوم المعنى ، كما انتقده الوضعيون باعتباره يستخدم تصورات ميتافيزيقية غير محققة . ولذلك

عند ماكس فيبر ، فان المعاني تصبح ذات قيمة خاصة ، ويبدو ذلك واضحا من مقارنة سريعة بين مفهوم الفعل ومفهوم السلوك Behavior ، فالأخير يشير الى التصرفات التي يلاحظها المرء مـن الخارج ، والتـي تختلف عن « الدافع » الكامن الذي لا نستطيع أن نلاحظه وانما نكتفي باستنتاجه من السلوك ، أما مصطلح الفعل فانه يتضمن كلا من الدافـع والسلوك الظاهر ، حينما يرتبطا معا في علاقة بين الوسائـل والغايات • ومن ثم يمكن القول ان أي سلوك يصبح عديم المعنى اذا ما جردناه عن الدافع الذي يحركه ، تماما مثلما نقول اننا لا ندرك الدافع الا من خلال السلوك الظاهر •

واذن ، فلكي نفهم الفعل الاجتماعي ، يرى فيبر أنه ينبغي أنـه نربط السلوك المباشر ، بالسلوك التاريخي ، مـن خلال اطـار تحليلي واحدا (١) • ولقد كان هذا الاطار مصدر خلط لدى كثير مـن علمـاء

يعتقد كثيرون اننا بحاجة الى نظام فلسفي يمكنه ان يفرق بيـن السلوك الذي تحكمه قواعد محددة وبين اشكال السلوك الاخرى ، وهذا بالطبـع يتطلب ادراكا لتعريف الفاعل للموقف الذي يعيشه . والواقع أن فيبـر قد أدخل نفسه في دائرة مغلقة . اذ كيف نستطيع أن نجعل التفسيرات ذوات المعنى عبارات احصائية احتمالية ؟ ولهذا اضطر كثيرون من تلاميذ فيبر بعد ذلك الى اختيار احد الاتجاهين اما الاهتمام بالمعنى أو السـ نحو صياغة عبارات احصائية تؤكد الناحية العلمية الوضعية . ولا شك أن فيبر نفسه لم يكن يقصد ان يحدث هذا الاختيار ، وانما كل ما يريده هـو ان يحتفظ لعلم الاجتماع بطابقه المميز والا يقبله في الوقت ذاته عن دائرة العلوم الوضعية . راجع :

Rex, Typology and Objectivity; A Comment on Webers Four Sociological Methods, in Sahay, *op. cit.*, pp. 23. 24.

(١) انظر دراسة هامة : Robert Noore, History, economics : and religion. A Review of the Max Weber Thesis, Thesis in Sahay *op. cit.*, pp. 82. 96. =

الاجتماع ، وبخاصة الذين تصوروا أن السلوك المباشر ، هــو سلوك حالي ، مصدره سيكولوجي ومستقل تماما عن السلوك التاريخي • بذلك ينفصل علم النفس عن التاريخ تماما • والاكثر من ذلك أن هؤلاء العلماء قد قدموا ثلاثة تعريفات لعلم الاجتماع • النوع الأول من هذه التعريفات صاغه أولئك الذين اعتبروا التاريخ لا يزيد عن مجرد سلسلة من التواريخ والاسماء ، فبينما كان علم النفس عندهم هــو المصدر النهائي للتحليــل السوسيولوجي ، يصبح علــم الاجتماع حدسيــا وهادفا الــى الفهــم التعاطفي لسلوك الناس ودوافعهم ، التي تتمثل في صورة أنماط عامة ــ ومثالية للفعل • والنوع الثاني من التعريفات هو ذلك الذي يتصور علــم الاجتماع على شاكلة التاريخ ، ولكنه يستند أساسا الى قاعدة المقارنة • وهناك ثالثا وأخيرا تلك التعريفات التي ترفض تبعية علم الاجتماع لكل من التاريخ وعلم النفس ، وتعتبر السلوك الاجتماعي يمثل واقعة ، قائمة بذاتها ، يتعين أن نتركها تتحدث عن نفسها ثم نعالج النظرية ، والتحليل ، والموضوعية ، والقيم كعناصر مقننة يمكن اخضاعها للقياس الدقيق ، واذا كانت هذه التعريفات تركز جميعا على الاطار التحليلي أي العلاقة المنطقية بين النظرية ، والموضوعية ، والقيم ، والوصف ، والتفسير ، فان فيبــر يركز أيضا على هذه العلاقة ذاتها ، ولكنه يجعل نقطة البدء عنده هــي عملية التفسير مؤكدا باستمرار أننا لا نلاحظ السلوك ونصنفــه لمجــرد

قدم مور عرضا في هــذا المقال للاهتمامات التاريخية عنــد ماكس فيبر مستعينا بكتابات المؤرخين أنفسهم ، ولقد تبدى البحث التاريخي واضحا في أعمال ماكس فيبر عن الدين والاقتصاد ، اذ يقول فيشكوف Fischoff « ان الاعمال التاريخية عند فيبر تهدف أساسا الــى فهم الثقافة الغربية المعاصرة ، وبخاصة الرأسمالية المعاصرة » انظر :

E. Fischoff, the Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism, the History of a Controversy» in. 8. No. Eisenstadt, *the Protestant Ethic adn Modernization,* Basic Books, 1968. p. 71.

القيام بهذه العمليات الأولية ، وانما كل دراسة للسلوك يتعين أن تكون دائما في ضوء الدافع السيكولوجي أو الاجتماعي لهذا السلوك ، والا أصبحت دراسة خالية من المعنى •

هكذا تتضح لنا أهمية « المعنى » عند دراسة الفعل الاجتماعي ، وربما كان ذلك هو سبب تأكيد ماكس فيبر لفكرة الفهم الذاتي Subjective Understanding فالسلوك الخالي من المعنى الذاتي يظل دائما على هامش الدراسة السوسيولوجية ، اذ أن الفهم منهج للتفسير ، وهو بهذه المثابة مدخل فريد للعلوم الثقافية لأنه يتعلق بالانسان أكثر من أي شيء آخر ، فالانسان هو القادر على فهم مقاصده الخاصة بواسطة الاستبطان ، وهو كذلك الذي يستطيع أن يفسر دوافع الآخرين من خلال معرفة مقاصدهم [1] •

وهناك طريقتان يتحقق بهما الفهم : الطريقة الأولى هي الطريقة العقلية ، وفيها تتتبع سلسلة من الأفعال بهدف معرفة القصد الذاتي منها• والطريقة الأخرى هي الطريقة الوجدانية ، ونسير فيها مع تيار العاطفة خطوة خطوة ، لكي نصل في النهاية أيضا الى تفسير لما يقصد اليه الفاعل • على أن كلا الطريقين يحقق لنا فهما على مستوى المعنى • ففي الطريقة الأولى نعتمد على الملاحظة المباشرة للمعنى الذاتي المتضمن في فعل معين ، كأن ندرك مثلا ما يعنيه شخص معين حينما يردد القضية الرياضية (٢ × ٢ = ٤) ، كما أننا نفهم أيضا ثورة غضب حينما تتجلى في تعبيرات الوجه لدى شخص معين • لكن الفهم قد يكون من النوع

---

(١) راجع في ذلك: Alpert, H. «Robert Macivar's Contributions of: Sociological Theory» in Berger & Page (eds.), *Freedom and Control in Modern Society*, N.Y. 1954, p. 290. Also see, Weber, Essays in Sociology, p. 52.

التفسيري، حينما ينفذ الى الدافع ــ كما ذكرنا ــ وهنا نستطيع أن ندرك ماذا يدفع شخصا بالــذات الى اتيــان سلوك بعينه (١) • ويضرب فيبر العديد من الأسئلة على استخدام هذه الطرق في الفهم ، فهــو يقول : « اننا نفهم فعلا معينا مثل قطع الأخشاب » أو تصويب السلاح نحــو هدف ما ، على أساس من الملاحظة المباشرة والدافع معا ، اذا عرفنا أن القائم بقطع الأخشاب انما يقوم بهذا العمل بقصد الحصول على الأجر • أو لاستخدام الاخشاب في مصلحة خاصة ، أو انه يقوم بهــذا العمــل لمجرد تمضية الوقت ، وقتل الملل• كما أننا نفهم أيضا ، الدافع الذي يحرك شخصا يصوب سلاحه نحو هدف معين ، اذا عرفنا أنه يشترك في الحرب ضد العدو ، أو انه يفعل ذلك بقصد الانتقام من شخص ما » (٢) •

ويختلف ادراكنا للمعاني باختلاف أنماط الفعل الاجتماعي ، ففي حالة الفعل غير العقلي irrational أي الــذي تحكمه العاطفة نستطيع أن ندرك المعنى من خلال المشاركة الوجدانية ، وقد يلجأ المرء في هذه الحالة الى الخيال ليتصور نفسه في موضع الفاعل ، « فليس من الضروري أن يصبح المرء قيصرا ، لكي يفهم سلوك القيصر » (٣) • ونحن نبلغ أعلى درجات الفهم العقلي للمعاني حينما نكون بصدد القضايا المنطقية والرياضية ، لأنها قضايا واضحة بذاتها، ويقترب من ذلك المستوى فهمنــا للفعل الهادف عقليــا Rationally Purposive ، لكننا يجب أن نضع في اعتبارنا أن هناك أنماطا من السلوك ذات المعنى قد تبدو في كثير من الأحيان كما لو أنها خالية من المعنى (٤) ، ويتضح ذلك بصفة

---

(1) Bogardns, E. *The Development of Social Thought,* (N.Y. David Mckay, inc. 1964) p. 749.

(2) Max Weber; *Theory of Social and Economic Organization,* p. 102.

(٣) Ibid., p. 90

(٤) Martindale, *op. cit.,* p. 385.

خاصة في حالة السلوك التقليدي ، ذلك أن التعود على هـذا السلوك يفقده معناه . أضف الى ذلك كله أن هناك خبرات شخصية جدا يتعذر تفسير معانيها ، من ذلك مثلا خبرة أشخاص معينين بالسحر [1] .

غير أن تحليل فيبر للفهم على النحو السابق يثير مسألة العلاقة بين علم الاجتماع وعلم النفس بشكل واضح ، اذ قد يتصور البعض أن فيبر على هذا النحو قد طمس الخط الفاصل بين العلمين ، وقـد جعل علم الاجتماع بالتالي تابعا لعلم النفس . الواقع أن فيبر لا ينكر الدور الذي يلعبه علم النفس في التفسير السوسيولوجي ، لكن ذلك لا يعني أنـه

---

(١) كتب تيودور ابل Abel مقالا يحلل فيه عملية الفهم في اطار علم نفس أكثر موضوعية ، فذهب الى أن الفهم هو فـي الواقع تفسير داخلي لعوامل التي نلاحظها ، باعتبار أن أحد هذه العوامل هو المثيـر والآخر هو الاستجابة ، وهذا بدوره يمكننا من تحقيق تكامل أفضل بـين طرق دراسة الحالات الفردية وبين القضايا التي تكشف عن انتظام احصائي، ويضرب مثالا على ذلك بقوله : « ان البحث الاحصائي قد أسفر عن ربط بين معدل الانتاج السنوي للمحاصيل وبين معدل الزواج » واذا كنا نسـ بأن تكاليف رفع معدل الانتاج تقلل من دخل الفلاح ، وأن ثمة التزامـات جديدة مرتبطة بالاقدام على الزواج ، فاننا يمكن أن نفسر الواقعة الاولى داخليا بأنها تشير الى شعور بالقلق ، وأن نفسر الواقعة الثانية بأنها تعـ خوفا من الالتزامات الجديدة ، كما نستطيع أن نطبق في الوقت ذاته قاعدة عامة للسلوك مؤداها ، أن الافراد الذين يشعرون بالقلق يتخوفون مـن الاقدام على أفعال جديدة ، وبتطبيق هذه القاعدة على مـا نلاحظه مـن انخفاض في معدل الزواج المصاحب لنقص المحصول نقول اننا نفهم الارتباط بين الواقعتين »

See, Abel, «the Operation Called Verstehen» J. A. S., November 1948, p. 221 ff.

ولا شك أن فيبر حينما طور تصوره عن الفهم كانت في ذهنه حالات أبسط من هذه الحالة . ولكن الاجراء سوف يظل كما هو سواء كانت هذه الحالات بسيطة أم معقدة ، اذ أننا يجب أن نتخيل الدافع وراء كل فعـل صادر عن فرد أو جماعة . وهذا هو ما عبر عنه ما كيفر ؟ بمصطلح اعادة البنـاء التخيلـي Imaginative Reconstruction (أنظر : Macivar, *Social Cansation*, Boston, 1942, p. 258.

يوافق على تبعية علم الاجتماع لعلم النفس • اذ أن فيبر يعتقد أن تلك الانماط المركبة للعلاقات الجماعية انما تتخذ لها تشكيلا بنائيا خاصا ، بحيث يتعذر علينا فهم خصائصها بتحليل العناصر المتضمنة فيها • وانما التحليل لا بدأن يكون على المستوى الجماعي أيضا ، وهو نوع من التحليل ضروري في الواقع لفهم العناصر المكونة لهذه المركبات • والأمر كذلك بالنسبة للمجتمع وجماعاته وطبقاته ، وأعضائه • وقد كتب فيبر عن ذلك بوضوح حين قال « ان الاجراء الاساسي لا يتمثل في البدء بتحليل الخصائص النفسية ، ثم الصعود بعد ذلك لتلحيل النظم الاجتماعية، ولكن على العكس تماما ، فان الاستبصار بالظروف النفسية والنتائج المصاحبة للنظم يفترض بداءة معرفة محددة بهذه الأخيرة ، وبالتحليل العلمي لبنائها » [١] • ويؤكد فيبر أهمية علم النفس الاجتماعي حيث يقول « في الحالات الملموسة ، يمكن أن يسهم التحليل السيكولوجي اسهاما عظيم القيمة في تعميق معرفتنا بالشروط التاريخية الثقافية، وبالاهمية الثقافية للنظم • فمن خلال البحث النفسي الاجتماعي، مع معرفة النظم المختلفة كل على حدة كنقطة بدء ، سوف تتمكن من زيادة فهمنا بالنظم بطريقة نفسية ، لكننا مع ذلك ، لا نستنبط هذه النظم من القوانين السيكولوجية أو أن نفسرها بواسطة ظواهر نفسية أولية » [٢] •

هكذا ، نخلص من تحليل مقولة الفهم عند فيبر الى أنه يستبعد تماما امكانية استخلاص القوانين السوسيولوجية من المبادىء النفسة ، فهو يؤكد أن الخطأ يكمن في تصورنا للظواهر على أنها اما أن تكون نفسية أو فيزيقية، على حين أن هناك عالما آخر هو عالم المعاني أو الأفكار، ولا يجب أن نبحث فقط عن المعاني الفردية ، وانما يتعين أن نعرف المعنى

---

(1) Weber, *the Methodology of the Social Sciences*, p. 88.

(٢) Ibid, pp. 88—9.

الشائع avarage الذي يعزى الى مجموعة من الأفراد • على أن علم الاجتماع يجب أن يربط بين المعاني والأسباب باستمرار ، ذلك أن الاكتفاء بمعرفة الأسباب فقط سوف ينتهي بنا الى صياغة احتمالات احصائية غير مفهومة • فلا مانع اذن من أن ينهض منهج علم الاجتماع على ركزتين هما : البحث السببي ، والبحث عن المعاني • وهذه ضرورة تمليها طبيعة الظواهر الانسانية التي تدرسها ، فالسلوك الانساني توجهه المعاني ، وهذه الأخيرة تعتبر سببا رئيسيا من أسباب هذا السلوك • وهنا بالذات يتمثل الفارق واضحا بين العلوم الاجتماعية والثقافية وبين العلوم الطبيعية •

والواقع أن اهتمام فيبر بالمعاني ، واتباعه لطريقة الفهم الذاتي في الدراسة السوسيولوجية ، ثم تأكيده ضرورة الوصول الى تفسيرات سببية ، قد أدى به كل ذلك الى صياغة مقولة منهجية هامة هي النموذج المثالي Ideal Type [1] • ولقد كتب فيبر في هذا الصدد يقول : « ان نموذج العلوم الاجتماعية الذي نهتم به هو العلم الامبيريقي بالظواهر الملموسة • وهدفنا هو فهم الخصائص الفريدة للواقع الذي نتحرك فيه • اننا نرغب أن نفهم العلاقات بين الأحداث الفردية ومغزاها الثقافي في صورها المعاصرة من جهة ، وأسباب وجودها تاريخيا من جهة أخرى » [2] • وهكذا ، تصبح مهمة عالم الاجتماع هي صياغة منهج يستطيع به أن يتوصل الى فهم سببي دقيق للواقع الاجتماعي ، والأشكال الاجتماعية ــ التاريخية التي تشكل جوهر المعرفة ، ويتمثل هذا المنهج في تشييد النماذج المثالية •

(1) Sahay, op. cit., p. 72.

(2) Sahay, op. cit. p. 70.

ولقد استعان فيبر بخصائص مفهوم الفهم الذاتي التي طورها كل من ريكرت وديلتاي بوضوح خلال تحليلاتهما الفلسفية المختلفة لصياغة النموذج المثالي . وتنقسم هذه الخصائص الى مجموعتين المجموعة الأولى تشمل الصور الفردية Individualising والمجموعة الثانية تتعلق بالصور التعميمية Ganeralizing . وتتضمن المجموعة الأولى خاصيتين هما : (١) أن يكون النموذج المثالي قادرا على ايضاح خصائص فعل أو حادثة معينة . (ب) أن يكون النموذج المثالي في المستوى الذي يمكنه من تصوير الأفكار المتضمنة في الفعل تصويرا واضحا ومنسقا . أما المجموعة الثانية فتنطوي على خاصيتين هما (١) النموذج المثالي هو الذي ينظم الوقائع ويربط بينها على نحو يسمح باستخلاص العلاقات السببية بينها (ب) النموذج المثالي يحدد المفاهيم الأساسية الخاصة بالصفات العامة للفعل الاجتماعي في صورته الخالصة. على هذا النحو حدد ماكس فيبر النموذج المثالي على اعتبار أنه « وصف متسق منطقيا ، من وجهة نظر محددة ، قادر على توضيح العلاقة بين الوسائل والغايات بالنسبة للافعال ، والأحداث ، وعملية تفسير الأفكار ، بحيث يمكن الباحث من ترجمة الأفكار الجزئية المتناثرة والتفسيرات والارتباطات الى مصطلحات علمية مفهومة »[1] .

ولقد كانت النماذج المثالية عند فيبر بمثابة التعبير الواقعي لمبدأ العقلانية في علم الاجتماع ، والذي يعد الاسهام الرئيسي الأصيل لفيبر في التحليل العلمي . فمحتوى النموذج نسبي دائما ، ومهمة التحليل السوسيولوجي أن يكشف عن أي العناصر النموذجية الموضوعية صادق تماما ، بحيث يمكن استخلاص السبب الحقيقي للأحداث أو الأفعال .

(1) Sahay, op. cit., p. 12.

ومن ناحية أخرى ، نلاحظ أن النموذج لا يتضمن عناصر مجردة فحسب، ولكنه يحدد النمط المعياري ، وفي ذلك يقول فيبر : « ان بناء نمط عقلي خالص للفعل ... يخدم عالم الاجتماع كنموذج ، ... بحيث أن المقارنة على أساسه تجعلنا نفهم الطرق التي يتأثر من خلالها الفعل الواقعي بعوامل غير عقلية من كل الأنواع . ويجب أن نأخذ في الاعتبار الانحراف عـن خط السلوك الذي يمكن توقعه بناء على الافتراض القائل بـأن الفعل عقلي خالص » [1] .

وثمة فقرة هامة وردت في مقال فيبر عـن الموضوعية فـي العلوم الاجتماعية يشرح فيها طبيعة النموذج المثالي اذ كتب يقول : « ان هذا النمط التصوري يربط بين مجموعة علاقات وأحداث الحياة التاريخيـة داخل نسق معقد يتسم بالاتساق الداخلي . ومن الناحية المادية ، يشبه هذا المفهوم اليوتوبيا utopia التي تصل اليها عن طريق تحليـل تجريدي لبعض العناصر الواقعية . أما علاقة هذا المحتوى بالبيانـات الامبيريقية فتتمثل فقط في أن العلاقات التي يشير اليها النمط مـن خلال مفاهيمه المجردة انما هي مستمدة من الواقع ، وان كانت لا تتحقق بصورة واقعية ، ونستطيع أن نجعل الملامـح الخاصة بهـذه العلاقات واضحة [2] ومفهومة عمليا بالرجوع الى النموذج المثالي . ولا يمكـن الاستغناء عن هذا الاجراء سواء في أغراض العرض أو التفسير . ويفيد مفهوم النموذج المثالي في تطوير مهارات البحث، وهو ليس فرضا، ولكنه يساعد في تنيمة الفروض وصياغتها ، كما أنه لا يصف الواقع ، وانمـا يهدف الى تقديم وسائل واضحة للتعبير عن هذا الوصف ... ويتكـون

(1) Weber, Methodology, p. 15

(2) «Objectivity in Social Science and Social Policy» in Weber, The Methodology, op. cit., pp. 49—112.

النموذج المثالي من خلال تجريد وجهة نظر أو أكثر، والتأليف بين مجموعة كبيرة متنوعة من الظواهر الفردية الملموسة، ثم ترتيبها وفقا لوجهات النظر هذه داخل بناء منطقي تحليلي • وهذا البناء العقلي لا يتحقق في الواقع امبيريقيا بصورته الخالصة ، انه يوتوبيا كما ذكرت • ويواجه البحث التاريخي مهمة تحديد مدى اقتراب الواقع من النموذج المثالي أو ابتعاده عنه في كل حالة فردية • مثال ذلك الى أي مدى يمكن تصنيف البناء الاقتصادي لمدينة معينة على أساس النموذج المثالي لاقتصاد المدينة • وحينما تطبق هذه النماذج بعناية لتصبح مفاهيم بالغة القيمة في البحث والدراسة » (1) •

لا شك أن الفقرة السابقة تتضمن كافة العناصر التي يتألف منها النموذج المثالي عمليا ، ويمكن تحديد هذه العناصر على النحو التالي :

١ ــ النموذج المثالي هو بناء فرضي لمجموعة من العلاقات الاجتماعية (نسق الفعل الاجتماعي ، والتشكيل الاجتماعي) بحيث يمكن بواسطته تفسير هذه العلاقات سببيا وفهمها •

٢ ــ ليس النموذج وصفا لتلك العوامل أو القوانين التي نعتقد أنها توجد بشكل « متوسط » ، على الرغم من أن هذه العوامل أو القوانين يمكن التوصل اليها بالاستعانة بالنموذج •

٣ ــ لا يقصد بالمثالية هنا أي مضمون أخلاقي يتعلق بالخير أو الحق •

٤ ــ ان النموذج عقلي ومثالي بمعنى أنه أداة تصورية ومنطقية يمكن الاستعانة بها في دراسة حالات واقعية تقارن بالخصائص التي يتضمنها النموذج ، ومن خلال هذه المقارنة تتحدد آفاق جديدة للبحث•

---

(1) Weber, Methodology, p. 90.

٥ ـ لا يقدم النموذج وصفا شامـلا للظواهر الواقعية ، ولكـن النموذج يؤكد وجهة نظر معينة بالذات ، ومن ثم يمكن صياغة عدد كبير من النماذج المثالية التي يختص كل منها بناحية معينة من نواحي الحياة الاجتماعيـة •

٦ ـ النموذج المثالي انتقائي لأنه يتكون من مفردات فرضية يحددها الباحث بنفسه لكي تكون أساسا تنهض عليه عملية المقارنة ، هذا فضلا عن أن النماذج المثالية تقدم صورة نموذجية للواقع ومن هنا كانت تحتل مكانة استراتيجية في البحث الواقعي والتفسير ، لأنها توضح في ضوء المعرفة العلمية التي يتحصل عليها الباحث في وقت اجراء دراسته • وفي ضوء المواقف الامبيريقية التي يحاول أن يفهمها • ويفتقد النموذج المثالي أهميته أو فائدته حينما يستطيع الباحث أن يحقق هذا الفهم ، وتصبـح أهميته قاصرة فقط على كونه دليلا يمكن أن يسترشد به باحث آخر في بنائه لنموذج مثالي على شاكلته [١] •

٧ ـ النموذج المثالي الذي يطالب به فيبر يتسم بأنه عام ومجرد في الوقت ذاته • وليس معنى ذلك أن الباحث يقوم ببنائه في ضوء قدرته على التخيل فحسب ، ذلك أن فيبر لا يطالب بابتداع نموذج نظري أو مثالي مطلق ، وانما كل ما هنالك هو أن النموذج لا يصف فعلا معينـا بالذات ، وانما يصف أسلوبا نموذجيا معياريا للفعل يفترض أهدافا معينة وطرائق للاتجاه المعياري ، ومعنى ذلك كله أنه يمثل بناءا عاما تصنف على أساسه الحالات الواقعية ، وهذه الحالات تصف مـا يطلـق عليه فيبـر « أسلوب الفعل الممكن موضوعيا » [٢] •

---

(1) Weber, Methodology, p. 94.

(2) Weber, Methodology p. 43.

هذا ، وقد استعان فيبر بالنماذج المثالية في دراساته المتخصصة ، ونستطيع أن نحدد ثلاثة مجالات بـرز فيها استخدام النماذج المثالية ، وهذه المجالات هي :

(أ) النماذج المثالية التي تختص بمسائل تاريخية مثل الرأسمالية أو المدينة الاوروبية الغربية. وهذان المثالان يعبران عن نوع معين من النماذج المثالية هو ذلك الذي يختص ببناء صيغة مفهومة لواقـع تاريخي يتسم بالشمـول والخصوصية في الوقت ذاته . أما الشمول فيتضح مـن أن مصطلح الرأسمالية يمثل نظاما اقتصاديا عاما ، وتبدو الخصوصية أيضا في أن الرأسمالية كما حددها فيبر انما تتحقق في المجتمعات الغربية الحديثة . وسوف تظل النماذج المثالية ذوات الطبيعة التاريخية بناءات جزئية فقط طالما أن عالم الاجتماع يختار مجموعة سمات من العملية التاريخية الكلية لكي يصوغ وحدة مفهومة ، بالطبع لا تستوعب الواقع فـي شموله . أما النوع الثاني هو النماذج المثالية التي تتعلـق بعناصر مجـردة مـن الواقع التاريخي ، وهي عناصر تتحقق في عدد كبير من الحالات . وحينما تصاغ هذه العناصر المجردة في بناء نموذجي فهي تمكننا من فهم العمليات التاريخية الكلية . والفارق جوهري بين هذه النماذج وبين النماذج التي تنتمي الى النوع الأول ، فعلى حين أن الأخيرة تختص بنظم عامة ولكنها قاصرة على مجتمعات بعينها أو حقبـات تاريخية مخصوصـة ، فـان نماذج هذه الفئة الثانية تختار نظاما أو جانبا من نظام سياسي أو اقتصادي، يمكن أن نعثر على أمثلة له في كافة عصور التاريـخ ، وبيـن مختلف أنواع المجتمعات الانسانية، واذا كنا قد ضربنا مثالا للنوع الاول بالرأسمالية الغربية ، فاننا نضرب مثالا للنوع الثاني بظواهـر مثل البيروقراطيـة ، والإقطاعية ونماذج السلطة : العقلية ، والتقليدية ، والكاريزمية .

(ب) النماذج المثالية التي تستهدف اعادة البناء العقلي لنوع معين من السلوك ويضرب فيبر مثالا على هذا النوع بكافة قضايا النظرية الاقتصادية التي تعالج السلوك بوصفه سلوكا منطقيا يهدف الى غايات محددة ، وربما كان التساؤل الذي يتعين وضعه عند هذه النقطة هو كيف كان فيبر يقوم ببناء تلك النماذج المثالية التي تختلف باختلاف المضمون الذي تعالجه ؟ ان الاجراء الذي يتبعه فيبر يتلخص بداءة في الكشف عن القيمة الكامنة ، الفعل ومع ذلك بيان أهمية الفعل أو معناها الذي سيتضح للتحليل وهذه الأهمية اما أن تكون شخصية ، أو سيكولوجية ، أو اجتماعية ، أو تاريخية • ولسوف يتضح ذلك من خلال تفسيير الفعل الاجتماعي • وجدير بالذكر أن علم الاجتماع لا يحلل فعلا ملموسا بالذات، وانما يهتم علم الاجتماع بتفسير مجرى الفعل ـ وهذه النقطة بالذات هي التي جعلت فيبر قريب الشبه في تصوره من باريتو من جهة ، ومختلفا عن السلوكية المعاصرة من جهة أخرى • وطالما أن التفسيرات هي المادة الخام لعلم الاجتماع ، فان ذلك من شأنه أن يجعل المسائل المتعلقة بالقيمة ، والمعنى ، والفهم واضحة كل الوضوح • كما أن ذلك يكشف أيضا عن نوع من التكامل بين مصادر المعرفة الاجتماعية المختلفة التي تمثل أسس التحليل السوسيولوجي وهي : التاريخ ، والبحث الاجتماعي (السوسيوجرافيا) والأنثروبولوجيا الاجتماعية ، اذ سوف تجتمع هذه المصادر في اطار علم الاجتماع [1] •

والخطوة الثانية في التحليل السوسيولوجي عند فيبر هي تحديد معيار المقارنة في النموذج المثالي ، وعلى ضوء هذا المعيار تقارن بين التفسيرات المختلفة بحيث نتمكن من تحديد ارتباط السبب بالوقائع سواء كان هذا الارتباط داخليا أم خارجيا •

---

(1) Sahay, *op. cit.*, p. 73.

والمرحلة الثالثة هي التعميم من هذه الارتباطات السببية بين الظواهر • وعلى أساس ذلك نصل الى الخطوة الأخيرة ألا وهي التجريد الذي يمكننا من التنبؤ بالتغير الاجتماعي • ولهذه النقطة أهميتها لأن علم الاجتماع عند فيبر يتعين أن يوظف لفهم عمليات التغير الاجتماعي، فالتعريفات ، والمفاهيم ، والمقولات ، والتصنيفات كلها أدوات تستخدم لتحقيق هذا الفهم •

هكذا ، أوضح لنا فيبر في دراساته أن النماذج المثالية هي وسائل نستطيع من خلالها أن نفهم العالم الواقعي المحيط بنا ، والذي حظي باهتمام فيبر الأكبر ، بل ان النماذج تستمد أهميتها من هذه الوظيفة ، اذ لا ضرورة لها اذا كان العالم يعرض نفسه أمامنا بطريقة تمكننا من الوصول الى التعميمات بسهولة • والواقع أن الفائدة الأساسية للنموذج المثالي انما تتمثل في كونه أداة لتحليل الأحداث التاريخية الملموسة أو المواقف الواقعية ، كما أنه بما يتضمنه من مفاهيم محددة يمثل أداة تحليلية تخدمنا في السيطرة الفكرية على البيانات الواقعية • في ضوء ذلك أكد فيبر أن صياغة هذه النماذج المثالية ليست في حد ذاتها هدف العلم الاجتماعي • ولكن هذه النماذج تمثل وسائل أو أدوات لتحليل المشكلات التاريخية ، أضف الى ذلك أن هذه الأدوات ليست مطلقة • وانما هي متغيرة بتغير المشكلات التي تدرسها ، وبتنوع القيم والمصالح والاهتمامات العلمية للباحث [1] •

---

(١) عقد الكسندر فون شلتنج A. V. Schelting مقارنة بين الاسهام المنهجي لماكس فيبر واسهام كارل مانهايم الذي تمثل أساسا في صياغته لعلم اجتماع المعرفة وتطوير الاهتمامات الذاتية والفلسفية في علم الاجتماع ، اذ قدم مانهايم في رسالته للدكتوراه عام ١٩٢٢ بعنوان « التحليل البنائي لنظرية المعرفة The Structural Analysis Epistemology » ــ قدم تصوره عن التقنيين Systematization

وثمة ملاحظتان منهجيتان يتعين الاشارة اليهما بعد العرض السابق لمنهج العلوم الاجتماعية عند فيبر : الملاحظة الأولى أن طريقة فيبر في البحث قد أسفرت عن تطور ما يسمى « بالتجربة التخيلية Imaginative Experiment » ولقد كان لهذا المصطلح دوره بعد ذلك في النظرية الاجتماعية المعاصرة ، وبخاصة بعد أن استخدم رايت ميلزمفهوم « الخيال السوسيولوجي Sociological Imaginatim » كأداة رئيسية في البحث [١] • والملاحظة الثانية أن فيبر قد دعم المنهج المقارن على نحو

←

ويقوم هذا التصور على وصف لعملية الاستدلال ، لكن مانهايم ذهب بعد ذلك الى القول بأن كل مفهوم أو تصور هو حلقة وصل في سلسلة لا متناهية من الافكار ، يضاف الى ذلك أن هناك مجالات مستقلة ثلاث للحقيقة هي : الانطولوجية ، والسيكولوجية ، والمنطقية . ولكن طالما ان هناك العديد من النظريات التي يقبلها الناس ، فانها جميعا تعتبر صحيحة اذ أن معيار الحكم على المعرفة هو الموقف القيمي للفرد بالنظر الى الزمان والمكان ، وهكذا أصبح علم اجتماع المعرفة عنده هو تحقيق لتلك الافكار الميتافيزيقية والمعرفة مضافا اليها عنصر انساني هام يتمثل في أن الانتلجنتسيا Intelligntsia هم دعاة المعرفة العقلية . وتتلخص اسهامات مانهايم لعلم الاجتماع الحديث في النقاط التالية (أ) العبارات المسبقة هي صحيحة طالما أن أشخاصا معينين قد وضعوها حول مسائل محددة ، و (ب) كافة المعطيات الاجتماعية هي أجزاء من البناء النظري ، و (ج) عالم الاجتماع لا يستطيع أن يتحرر من بحثه ، و (د) ومع ذلك كله يلتزم مانهايم كما ــ يزعم ــ بالموضوعية ، وان لم يفلح في تحقيقها ، و (هـ) علينا كعلماء اجتماع أن نتدخل من أجل اعادة تنظيم المجتمع بشكل عقلي ، لان العقلانية معيار هام للسلوك . ويخلص شلتنج من تحليلاته الى الالتقاء الواضح بين مانهايم وفيبر ، بل الاكثر من ذلك انه يعتبر مانهايم هو بحق أهم من أسهم في تطوير علم الاجتماع الحديث منطلقا من صياغات فيبر . راجع :

Sahay, op. cit., pp. 76 — 78. Also see, Mannheim, *Essays On Sociology and Social Psychology, London,* 1958; *Man and Society in an Age of Reconstruction,* Routledge, London, 1940.

(١) الاشارة هنا بالطبع الى التطورات المنهجية التي ظهرت كنتيجة

→

يختلف عن الصورة القديمة لهذا المنهج حين كانت المقارنة عامة فضفاضة لا تحفل كثيرا بتحديد وحدة المقارنة •

أما فيما يتعلق بالملاحظة الأولى فان فيبر بالفعل كان يدعو الى اصطناع تجربة تخيلية، لكن الذي ينبغي أن نوضحه هنا أن الخيال ليس مرادفا للتأمل المطلق المتحرر تماما من كل القيود الواقعية ، وليس ضربا من الميتافيزيقيا ، وانما الخيال عنده مهمة عقلية تستهدف الفهم ، وادراك المعاني الذاتية التي تنطوي عليها الأفعال الاجتماعية • وبناء النموذج المثالي ، ما هو في الحقيقة الا نوع من التجربة العقلية أو التخيلية ، لكنها تجربة تستند الى استقراء الأحداث التاريخية والمقارنة بينها ، غايتها في النهاية مساعدة الباحث في استخلاص الارتباطات السببية بين

→

للنماذج المثالية التي طالب فيبر بضرورة تشييدها ، وسوف نشير هنا بايجاز الى أهم هذه التطورات • ولقد كان ماكيفر من أهم من استعانوا بما يسمى بالتجربة التخيلية وهو نوع من التصور يقوم على أساس تحديد الموقف الذي تحدث فيه الظاهرة في مقابل الموقف الذي يمكن الا تحدث فيه وسوف يشكل ذلك نوعا من الضبط الذي يفيد الدراسة الموضوعية (See, Mac Ivar. Social Causation 259) ، أما ميلز فقد طور مفهوم الخيال السوسيولوجي كتصور شامل بنائي وتاريخي وسيكولوجي يفيد الباحث في تدعيم بصيرته بالاحداث والظواهر الاجتماعية (راجع Mills Sociological Imagination Magination) ، واستعان بارسونز بمفهوم متغيرات النمط كبدائل للسلوك وتوقعات الادوار (Parrona, Social System) ، أما هوارد بيكر فقد أجرى بعض التعديلات على النموذج المثالي انتهت به الى ما أسماه بالنماذج الفرضية التي اعتبرها متحررة من سلبيات كلمة المثالي (Becker, Through Values to Social Interpretation N. Y. 1930, p. 90). واخيرا نجد روبرت ميرتون الذي كان ابرز من استخدم فكرة النموذج المثالي عند فيبر وان أطلق عليه كلمة Paradigm واستعان به ميرتون في دراسات متعددة Sec, Merton, Social Theory and Social Structure, p. 16. راجع تفاصيل هذه الاستخدامات في : السيد الحسيني ومحمد علي محمد ، ماكس فيبر ، المجلة الاجتماعية القومية .

الظواهر • والجدير بالذكر أن فيبر كان يؤكـد مسألة التجريب ، اذ لا تستقيم النماذج المثالية الا اذا استخدمت في دراسة وتفسير الوقائع ، ولا يمكن بناؤها في الأصل اعتمادا على الخيال وحده • ومعنى ذلك كله أن التجربة التخيلية عند فيبر لا تسبح في فراغ ، ولكنها تعبر عن الفهم الصحيح للعلاقات السببية بين الظواهر [1] •

ويقصد بالملاحظة الثانية أن فيبر طالب بتبني علم اجتماع مقـارن يستخدم في التحقق من صحة النموذج الذي صاغه ، والتوصل الـى صياغة تفسير سببي ملموس لأشكال محددة مـن الفعل الاجتماعـي • والمقارنة على هذا النحو بالطبع مختلفة عن المقارنات العامة التي استخدمت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لتصنيف المجتمعات وأ الثقافـات أساسا ، ثم أن المنهج المقارن عند فيبر وان كان يقترب من طريقة المقارنة التي طالب بها دور كايم كبديل للمنهج التجريبي ، الا أن ثمة فارقا بين تصور كل منهما أيضا ، فعلى حين أن دوركايم أراد من منهجه أن يوصلـه الى اكتشاف القوانين السببية العامة لظواهر اجتماعية محددة ، كان فيبر يجعل من المنهج المقارن أسلوبا للتحقق من صحة ما تتضمنه نماذجه المثالية، فهي اذن مقارنة محددة بحدود ما ينطوي عليـه النموذج المثالي مـن خصائص لظواهر يعتقد الباحث أن لها أهمية خاصة في الحياة الاجتماعية أكثر من غيرها •

٢ ــ علم الاجتماع ودراسة الفعل الاجتماعي :

اهتم فيبر شأنه شأن غيره من علماء الاجتماع ــ وعلـى الأخص دوركايم ــ بتحديد الخصائص المميزة لهذا العلم ، الذي يقع ضمن مـا أطلق عليه « العلوم الثقافية » ، واعتقد أن الوقوف على هذه الخصائص

---

(1) Weber, *Theory of Social and Economic Organization* p. 79.

بوضوح وتميز هو بمثابة حجر الأساس في وضع قواعد منهجية ملائمة للدراسه الاجتماعية • والخاصية المميزة لعلم الاجتماع هي أنه يدرس الفعل الاجتماعي بهدف فهمه وتفسيره ، ولا تتعلق الدراسة في علم الاجتماع بالمظاهر الحسية الخارجية للسلوك فحسب ، والا أصبحت دراسة قاصرة كل القصور ، وانما يتعين على علم الاجتماع لكي يكون جديرا بهذا الاسم أن يدرك المعاني التي تنطوي عليها الأفعال والصلات المتبادلة بين الناس ، وهكذا حدد فيبر بؤرة الدراسة السوسيولوجية في طائفة من الظواهر وأنماط السلوك والعلاقات الاجتماعية التي يمكن أن تفهم فهما ذاتيا •

في ضوء ذلك عرّف فيبر علم الاجتماع في الصفحة الأولى من مؤلفه ، الاقتصاد والمجتمع بقوله : « علم الاجتماع هو العلم الذي يسعى الى فهم الفعل الاجتماعي وتفسيره لكي يصل الى تفسير سببي لمساره ونتائجه » [1] • ويتضمن هذا التعريف بالطبع عددا من النقاط الرئيسية ، كما يستند الى افتراضات ضمنية ، ومن ثم يصبح لزاما علينا قبل أن ننتقل الى معالجة تصور فيبر للفعل الاجتماعي أن نلقي على النقاط والافتراضات من الضوء ما يجعلها واضحة كنقطة انطلاق للتحليلات المقبلة جميعا •

(أ) الفهم الذاتي كتفسير سببي :

عرضنا فيما سبق لمقولة الفهم كأداة منهجية رئيسية ، وغاية يصبو اليها عالم الاجتماع في الوقت ذاته • والذي نود أن نوضحه في هذا الصدد هو أن فيبر لا يؤكد أهمية الفهم الذاتي لمعاني السلوك الانساني كشيء مختلف عن المعالجة السببية لهذا السلوك أو مكمل لها ، وانما يؤكد فيبر ضرورة هذا الفهم بوصفه تفسيرا سببيا للفعل الاجتماعي

(1) Weber, *Theory of Social and Economic Organization* p. 88.

أيضا ، والغايات التي يلتزم بها الناس ، والمطامح التـي يتعلقون بهـا ، والأساليب التي يجتهدون في تحديدها وصولا لتلك الغايات والمطامح ، ثم الدوافع التي تحرك أفعالهم في المواقف المختلفة هي جميعا أسبـاب فعلية لمسار الفعل ومجراه . ولا شك أن أي معالجة للفعل الاجتماعـي تستهدف تفسيرا سببيا ، وتظل محصورة داخل الاطار التصوري للعلوم الطبيعية في بحثها عن الأسباب ، دون أن تفلح فـي استيعاب العناصر السابقة للسلوك ، لن تكون دراسة صحيحة ، بل وستنتهي الى نتائـج زائفة مضللة . ان تأكيد فيبر لهذه الناحية يعد بالطبع اسهاما نسجلـه له ، اذ لم يخاطر فيبر لفهم الانسان مـن أجل التشبه بطرائق العلـوم الطبيعية ، وانما جعل من هـذا الفهم بعدا رئيسيا لبناء نظرية تتناسب وطبيعة الموضوع الذي تعالجه .

(ب) الانسان في المجتمع : موضوع كيفي متميز للدراسة :

الانسان ككل بفكره ، وشعوره ، وارادته ، وسلوكه ، واستجابته هو موضوع الدراسة في علم الاجتماع عند فيبر . وفي هذا الموضوع حاول فيبر أن يصوغ العلم وفقا لمبادىء تجعله ملائما وصالحا لدراسته، سوزاء تعلقت الدراسةبوصفالطبيعة المميزة للانسان أو بتفسير سلوكه. هناك اذن احساس عميق بالمسؤولية الانسانية عند فيبر . ولكن ذلك لا يعني أن فيبر ينكر المعرفة الظواهرية Phenomenal بالانسان في المواقف الاجتماعية المختلفة . وانما باستطاعتنا أن نلاحظ العلاقـة بين الظواهر الاجتماعية عند تحليل الجماعاتالانسانية في مواقف متباينة، ولكننا حينما نبدأ الحديث عن الانسان وتصرفاته ، واتجاهاته ، وقيمه ، ومشاعره ، ومسؤولياته عند هذه النقطة نكون قد انتقلنا الى تفسير ما لاحظناه من ظواهر في ضوء الفهم الذاتي للافعال كما تحدث في المواقف الاجتماعية . ولا شك أن استيعابا لابعاد الموقف سوف يكون ضروريا

في الوصول الى تفسير سببي لتلك الظواهر ٠

وطريقة دراسة هذه الموضوع ولا شك سوف تختلف عن الطرق المألوفة في العلوم الطبيعية ٠ وأهم دواعي هذا الاختلاف أن الباحث في العلوم الثقافية (ومن بينها علم الاجتماع) مستغرق تماما في الموضوع الذي درسه ٠ فهو لا يكتفي بمجرد الملاحظة الخارجية للظواهر كما يفعل المتخصص في العلوم الطبيعية ، وانما يتعين لكي يفهم الأفعال الاجتماعية أن يكون على وعي بالابعاد الداخلية لهذه الأفعال، ولهذا يجد ضرورة للتفرقة بين نوعين من الفهم الذاتي في ضوء الحالة الوجدانية ، والفهم الذاتي على أساس المعاني العقلية ٠ ويؤكد فيبر أن النوع الأول من الفهم التعاطفي ضروري ومفيد في تفسير سلوك الافراد والجماعات خاصة حينما يضع الباحث نفسه في موضع المبحوث ويتمثل ظروفه ويعايش موقفه فذلك كله من شأنه أن يمكننا من فهم وتفسير مسار الفعل الاجتماعي ٠

على أننا بعد أن أوضحنا الاتجاه المميز لعلم الاجتماع كعلم ثقافي ، يتعين أن تتجه نحو مناقشة الاطار المرجعي الذي استعان به في فيبر في في دراسته ، والذي عرف بعد ذلك في التراث النظري لعلم الاجتماع المعاصر » بالفعل كاطار مرجعي Action Form of Re ference .

ولعل أهم ما يميز الفعل الاجتماعي هو أنه نوع معين من السلوك الانساني هو السلوك القابل للفهم في ضوء ما يتضمنه من معاني ذاتية ٠ ولقد أبرز بارسونز هذه الخاصية في دراسته عن بناء الفعل الاجتماعي اذ كتب يقول : « أهم ما يميز اطار الفعل هو استخدامه للفئات أو المقولات الذاتية » (١) ٠ ولقد بذل فيبر جهدا ممتازا لتحديد ما يدخل ضمن

---

(١) انظر Parsons, T. *The Structure of Social Action* Parperck edition, Vol. I. يعتبر بارسونز من اكثر من طوروا نظرية الفعل الاجتماعي عند فيبر ، وقد حاول بارسونز أن يوضح ما يقصده فيبر من المفاهيم

مقولة الفعل الاجتماعي ، فهو يعتقد أنه ليس من الضروري أن يكون كل سلوك له الطابع الاجتماعي ، فهناك أنماط من السلوك ليست اجتماعية ، وهي تلك التي تتجه نحو أشياء فاقدة الحياة . أما ما يجعل الفعل اجتماعيا فهو كونه متجها نحو « الآخرين » يحسب حسابا لسلوكهم ، ويقدر تماما أهدافهم وقيمهم و « الآخرون » يمكن أن « يكونوا أشخاصا معينين يعرفهم الفاعل ، أو أفرادا غير معروفين بالنسبة له ، فنحن على سبيل المثال في عملية التبادل النقدي نقبل النقود كوسيلة للتبادل أو نقبلها كأجر مقابل لما قمنا به من أعمال ، باعتبار أننا نتوقع أن عددا كبيرا من الأفراد الذين لا نعرفهم سوف يقبلون النقود في عملية التبادل » [1] .

المختلفة التي استخدمها في تحديد الفعل الاجتماعي ، فمصطلح الفهم عند فيبر يشير الى نوع من الملاحظة والتفسير النظري للحالات الذاتية للعقل عند الفاعلين ، كما انها تعني أيضا ادراك المعاني المختلفة والقيم والرموز والمعاني بالطبع مقصودة من قبل الفاعل ذاته . والسلوك عند فيبر ضيق النطاق ، لانه يعني ذلك النوع من السلوك الانساني القابل للفهم الذاتي (انظر المعاني المختلفة لهذا المصطلح عند بارك Park ، وديوي Dewey وجورج ميد Mead في : E. Ross. *Theory and Method in the Social Science*, p. 16 ومما يؤكد القيمة النظرية لاعمال فيبر انه طالب ان يسعى علم الاجتماع الى فهم تفسيري للفعل الاجتماعي ، ولا شك ان ذلك يتطلب نوعا من المعرفة السيكولوجية ، بالاضافة الى التوجيه Orientation الذي يتحقق عند الفاعل نحو الموقف ، ويشكل التوجيه السياق العام الذي يحدث الفعل بداخله ، ويشمل هذا السياق الخبرة الاجتماعية الانسانية بأكملها ، واعتقد فيبر أن هناك اتساقا تاما بين هذا الاطار وبين ما يمكن أن تسفر عنه البحوث الواقعية التي تسير على هديه .

(١) حينما كان فيبر بصدد توضيح المفاهيم الرئيسية لعلم الاجتماع ، ذهب الى ان هناك انتظامات يتعين الاهتمام بها ، ومن بين هذه الانتظامات التساند البنائي الوظيفي بين الظواهر ، وقد كتب عنه فيبر يقول : « انه المنهج الذي تستعين به المدرسة العضوية لعلم الاجتماع في محاولتها فهم

ويكاد يقتصر الفعل الاجتماعي على تلك الأنماط السلوكية التي تصدر من الأفراد تجاه بعضهم البعض آخذة في اعتبارها المعاني التي تكمن خلفها ، ويقول فيبر « ان مجرد صدام دراجتين قد يعتبر حدثا طبيعيا، ولكن المحاولات التي تبذل للحيلولة دون وقوع الصدام، أو حتى المناقشات التي تدور بعد ذلك ... وما يقع من أحداث كالتشاجر أو الصداقة قد تشكل أفعالا اجتماعية » . ويهتم فيبر في هذا الصدد بالتفرقة بين الفعل الاجتماعي وبين أنماط أخرى من السلوك مثل سلوك الجمهرة والمحاكاة أو التقليد . ويضرب مثالا لتوضيح هذه الفروق فيقول : « اذا تساقطت الأمطار وهم بعض الأفراد في الطريق برفع مظلاتهم في وقت واحد ، فان ذلك لا يمثل فعلا اجتماعيا متبادلا ومتجها نحو بعضهم البعض ، ولكن الفعل يصبح اجتماعيا في مثل هذا الظرف حينما يستجيبون بطريقة جمعية « للحاجة المشتركة الى الحماية من المطر » ومعنى ذلك أن استجابة شخص معين لتأثير جمع أو حشد من الناس عليه لا يعد فعلا اجتماعيا ، ولعل ذلك هو ما يدعونا الى اعتبار دراسات

→ التفاعل الاجتماعي منطلقة من الكل whole الذي يسلك الفرد بداخله. وتفسر هذه النظرية السلوك مثلما يفعل الفسيولوجى حين يفسر دور العضو في بناء الكائن الحى ، أي من حيث اسهامه فى بقاء الاخير .. ويعتقد فيبر اولا ان هذا الاطار الوظيفي ملائم فقط لاغراض عملية مؤقتة، فهو اطار توضيحي اساسا ، وهذا هو ما يفسر أهميته القصوى ، مع التسلبم بخطورة المفاهيم البيولوجية التى يتضمنها . وثانيا يفيد هذا الاطار في ظروف معينة في معرفة عمليات الفعل الاجتماعى الضرورية لتفسير ظاهرة معينة ، لكن ذلك بالطبع لا يشكل سوى بداية التحليل السوسيولوجي. فنحن فى حالة التجمعات نحتاج الى أكثر من اثبات العلاقة الوظيفية ، اذ بوسعنا أن نحقق شيئا تعجز عنه العلوم الطبيعية ، ذلك هو الفهم الذاتى لسلوك الافراد الذين يؤلفون هذه التجمعات » انظر : Weber *The Theory of Social and Economic Organization*, pp. 102-103.

جو ستاف لوبون G. Lebon خارجة عن نطاق الفعل الاجتماعي، ولكنها تتركز حول دراسة الفعل المشروط بالحشد وكذلك الأمر فيما يتعلق بأعمال جبرييل تارد ، فالمحاكاة لا تنطوي على فهم للمعاني بقدر ما تعبر عن ملاحظة عابرة لمظاهر سطحية من السلوك خالية من المعنى تماما (١) .

وينتقل فيبر بعد ذلك الى تصنيف أنماط الفعل الاجتماعي التي يمكن الاستعانة بها في بناء النماذج المثالية للسلوك . فيحدد أربعة أنماط للفعل وفقا لمساره واتجاهه على النحو التالي :

١ ــ الفعل العقلي الذي توجهه غايات محددة ووسائل واضحة (Zweckrational) ، اذ أن الفاعل يضع في اعتباره الغاية والوسيلة ثم يقوم بتقويمهما تقويما عقليا ، ويرى آرون Aron ان هذا النمط من الفعل الاجتماعي يشبه ما أطلق عليه باريتو مصطلح السلوك المنطقي ، فالمهندس الذي يصمم مشروعا معماريا ، والمضارب الذي يحسب ما سيعود عليه من كسب في مضارباته ، والقائد الذي يختار أفضل الخطط التي تحقق له النصر ، كلها أمثلة للفعل العقلي (٢) .

---

(١) Weber, op. cit., p. 115

(٢) وجدير بالذكر أن فيبر قد أكد اهمية السلوك الهادف عقليا ، الامر الذي دفعه الى بناء نموذج مثالي قائم على هذا السلوك ، وربما يعكس ذلك الثنائية التي تميز تفكيره بين ما هو عقلي وغير عقلي . وثمة تساؤل يبرز فى هذا الصدد وهو ما هى المعايير التى يمكن على أساسها التمييز بين الفعل العقلي وغير العقلى ؟ يذهب بارسونز Parsons الى أنه على الرغم من أن فيبر لم يذكر في كتاباته صراحة تحديدا واضحا لهذه المعايير ، الا اننا يمكن أن نستنتجها من كتاباته ، حيث يعتبر الفعل عقلانيا الى المدى الذي يكون فيه : (أ) موجها نحو هدف محدد وغاية واضحة ، ومجموعة من القيم التي تكون ملائمة منطقيا . (ب) لا بد أن تكون الوسائل المختارة مستندة على معرفة صحيحة تناسب تحقيق الهدف . وهكذا يكون السلوك ←

٢ ـ الفعل العقلي الذي توجهه قيمة مطلقة((Wertational)) :
وفي هذا النموذج يكون الفرد واعيا بالقيم المطلقة التي تحكم الفعل ، وهي قيم يمكن أن تكون أخلاقية، أو جمالية ، أو دينية ، ويوصف الفعل بأنه يوجه نحو قيمة مطلقة في الحالات التي يكون فيها مدفوعا لتحقيق مطالب غير مشروطة، ومعنى ذلك أن الاعتقاد في القيمة المطلقة يكون واعيا ومتجها نحوها من أجل ذاتها ، خاليا من أية مطامح خاصة ، ولهذا فهو يختار الوسائل التي تدعم ايمانه بالقيمة •

٣ ـ الفعل العاطفي Affective Action : هو سلوك صادر عن حالات شعورية خاصة يعيشها الفاعل ، والأمثلة على هذا النمط من السلوك عديدة ، حين يختار المرء الوسائل لا على أساس صلتها بالغايات أو القيم وانما باعتبارها تنبع عن تيار العاطفة •

٤ ـ الفعل التقليدي Traditional Action : هـو سلوك تمليه العادات والتقاليد والمعتقدات السائدة ، ومن ثم يعبر عن استجابات آلية اعتاد عليها الفاعل • ولا شك أن ضربا من السلوك هذا شأنه سوف يظل دائما على هامش الفعل الذي توجهه المعاني •

هادف عقليا حينما يتركز كلية على وسيلة ينظر اليها الشخص الفاعل ذاتيا باعتبارها مناسبة للوصول الى غاية تعتبر من الوجهة الذاتية أيضا على درجة عالية من الوضوح والتحديد . (أنظر :
Weder, Introduction by Parsons, *theory of social and Economic oryahisiutio*, p. 16
ولتوضيح وجهة النظر الذاتية للسلوك الهادف عقليا يقول : ان الادراك الموضوعي للوسيلة قد يكون غير موفق ، كما قد تكون الغاية أيضا موضوعيا متناقضة ، ولكن الذي يعنينا في هذا الصدد هو أن الشخص يعتقد أن الوسيلة كافية وملائمة ، وأن الغاية محددة ، وحينما يتوافر هذا الاعتقاد يطلق على السلوك أنه هادف عقليا : (راجع :
Barnes & Becker, *Social Thought From Lore to Science* p. 895.

وتحتل أنماط الفعل الاجتماعي هذه أهمية خاصة في النسق السوسيولوجي الذي صاغه ماكس فيبر ، ويرجع ذلك الى عدة عوامل ، فمن الملاحظ أولاً أن فيبر تصور علم الاجتماع باعتباره دراسة شاملة للفعل الاجتماعي ، ومن ثم أصبح تصنيف أنماط الفعل يمثل أعلى مستويات التصور التي تستخدم في دراسة المجال الاجتماعي . والمثال على ذلك أن تصنيفه لنماذج السلطة مشتق مباشرة من تحديده لأنماط للفعل الاجتماعي ، ومن ثم أصبح تصنيف أنماط الفعل يمثل أعلى فهم معاني السلوك البشري . ومن هنا تبدو أهمية هذا التصنيف كمدخل ضروري لتحليل بناء السلوك ، ومن الملاحظ ثالثا وأخيرا أن تصنيفه لنماذج الفعل هذه يعد الى حد ما أساس تفسيره للحقبة التاريخية المعاصرة . اذ اعتقد فيبر أن الخاصية المميزة للعالم الذي نعيش فيه هي العقلانية . وتتحقق العقلانية من خلال توسيع نطاق السلوك المحدد وفقا لغايات واضحة ووسائل محددة لتحقيق هذه الغايات يدركها الفاعل تماما . فالمشروع الاقتصادي عقلاني ، وسيطرة البيروقراطية على الدولة الحديثة رشيدة . بل ان المجتمع ككل يتجه بقوة نحو التنظيم العقلي لكافة أوجه النشاط فيه [1] .

والخطوة النظرية الثانية ذات الأهمية عند فيبر هي ادخاله لمفهوم « العلاقة الاجتماعية » ، اذ ساعده هذا المفهوم على التحول من دراسة

---

(1) راجع حول الاتجاه العقلاني واثره في تطور التنظيمات الحديثة والنمو التنظيمي للمجتمع دراسة : دكتور محمد علي محمد ، علم اجتماع التنظيم ، الفصلين الاول والثاني . وجدير بالذكر هنا أن الفلسفة العامة التي تبطن أعمال فيبر وتوجهها هي دراسة التحولات التي تطرأ على العالم المعاصر والتي تتمثل في التغير من مجتمع وحضارة تقليدية الى حضارة تنظيمية بيروقراطية تحكمها القواعد والمعايير القانونية الشرعية (انظر : Weber, Social and Economic Organization, pp. 339 - 40.

الأفعال الفردية الى أنماط السلوك [1] . ويقول جون ركس J. Rex في مقالة عن « التصنيف والموضوعية : تعليق على المناهج الأربعة عند فيبر » ١٩٧١ : « ان مناقشة فيبر للعلاقات الاجتماعية تمثل المضمون الحقيقي لأعمال فيبر ، وبتركيزة على البناء ، أصبحت دراسته تختلف عن أصحاب الاتجاه الفينومينولوجي (الظاهراتي) الذين حصروا اهتمامهم فقط بالمعاني الذاتية التي يتضمنها تحديد الفاعل للموقف » [2] والعلاقة الاجتماعية عند فيبر تعني تبادل الأفعال بين الأفراد على أساس فهم كل منهم للمعاني التي يضفيها كل فرد على سلوكه ، اذ أن هناك مجرى للفعل . لكن ذلك لا يعني بالطبع أن يكون المعنى الذاتي هو نفسه بالنسبة لكل الجماعات التي تتجه اتجاها متبادلا في علاقة اجتماعية معينة، فالصداقة ، والحب ، والولاء ، والوظيفة ، قد تقابل باتجاه مختلف تماما من جانب آخر ، كما أن المعنى الذاتي لعلاقة اجتماعية قد يتغير بدوره . فالعلاقات السياسية ــ مثلا ــ اذا كانت قائمة على التضامن ، قد تتحول الى صراع في المصالح ، ومن ثم يمكن القول أن هناك علاقة اجتماعية جديدة قد ظهرت الى الوجود ، أو أن العلاقة القديمة ما تزال مستمرة ولكنها اكتسبت معنى جديدا . ومرد ذلك كله أن العلاقة الاجتماعية قد تكون ذات طبيعة مؤقتة ، أو على درجات متباينة من الدوام والاستمرار [3] والواقع أن ادراك فيبر لهذه الطبيعة المتباينة التي تميز العلاقات الاجتماعية ، ومن ثم التفسير المختلف الذي تطلبه ، كان ذلك يمثل فارقا أساسيا بينه وبين المدرسة الصورية كما تمثلها

---

(١) Rex. op. cit, p. 17

(٢) Martindale, op. cit, p 398

(٣) دكتور مصطفى الخشاب ، علم الاجتماع ومدارسه ، الكتاب الثالث ، المدارس الاجتماعية المعاصرة ، ١٩٦٥ . ص‌ص ٧٥ ــ ٧٦ .

أعمال جورج زيمل G. Simmel فالسلطة في الأسرة ليست هي السلطة في المدرسة ، أو الكنيسة ، أو الدولة [٢] . والمنافسة في الاقتصاد تختلف في مضمونها عن المنافسة في ميدان العلم أو السياسة ؛ يضاف الى ذلك أن اهتمام فيبر بالفهم على مستوى المعنى يحتاج الى فحص دائم لا لصور العلاقات الاجتماعية فحسب ، بل للمحتوى الذي يميز هذه العلاقات [١] .

ويتناول فيبر بعد ذلك تصنيف الفعل الاجتماعي في ضوء التنظيمات التي نلاحظها في الواقع . « اذ من اليسير أن نلحظ نماذج معينة للفعل مرتبطة بمعنى ذاتي مناسب ، بحيث نجدها تتميز بالتكرار والانتشار ، سواء من جانب شخص واحد ، أو عدد معين من الأفراد في آن واحد » . وهذه الحالات يهتم بها البحث السوسيولوجي باعتبار أنه يهتم بالتفسير السببي للاحداث الفردية ذوات التأثير على الحياة الانسانية ، وتتلخص فئات العلاقات الاجتماعية التي يمكن ملاحظتها واقعيا في خمس فئات هي :

(أ) العرف أو الاصطلاح أي التماثل الفعلي للعلاقات الاجتماعية .

(ب) العادة وهي العرف الذي يستمد وجوده من الألفة والتعود .

(ح) الأسلوب أو العرف الذي يتسم بالتجديد والحداثة .

(د) العادة التقليدية هي العرف الذي ينبثق عن الرغبة في الهيبة الاجتماعية ، أو العرف الذي يتحدد على أساس انماط معيارية .

(ه) القانون وهو مجموعة القواعد التي تنطوي على الزام أو عقاب

---

١) انظر مناقشة للصلة بين افكار فيبر والمدرسة الصورية عند جون ركس (المقال السابق الاشارة اليه) وراجع كذلك :
K.H. Wolff, (ed.) *George Simmel* 1858-1918, Ohio State University, 61—99.

لمن يخرج عليها ، ومع أن القانون يستند الى العـادة والعرف ، لكـن الفارق بينه وبينهما هو عنصر الالزام المتضمن في القاعدة القانونية •

والواقع أن فيبر قد ذهب الى أبعـد من ذلك حين استخدم مفهومه عن العلاقة الاجتماعية ، وصورها الواقعية فـي تعريف النظام الشرعـي Legitimate Order وذلك حين يشير الى أن المعنى الذاتي لعلاقـة اجتماعية ما يسمى « نظاما » اذا كان السلوك متجها على أساس قواعد أو مبادىء معينة ومحددة • فالموظف ــ مثلا ــ الـذي يتعين عليـه أن يتواجد في عمله يوميا في موعد محدد ، انما ينطوي سلوكه هذا فضلا عن عنصر العادة والمصلحة الذاتية ، عنصرا ثالثا هو الالتزام بالخضوع للنظام المفروض عليه •

على أن دراسات فيبر لا تقتصر فقط على تحليل الفعل الاجتماعـي والعلاقـات الاجتماعية ، وانما تمتـد أيضا لتشمل الفعـل الاقتصادي Economic Action ، ولا يقصد فيبر من ذلك بالطبع تقديم نظرية اقتصادية ، بقدر ما يسعى الى تناول بعض المفاهيم التي ذاع انتشارها ، وتحليل أبسط العلاقات السوسيولوجية في المجال الاقتصادي • والفعل ــ عند فيبر ــ يكتسب اتجاها اقتصاديـا حينما يتعلق باشباع رغبـة الحصول على منفعة ومحاولة للفاعل السيطرة على الموارد الاقتصادية • والفعل الاقتصادي العقلي هو الذي يرتكز على تخطيط محكم للغايـات الاقتصادية • ويحاول ماكس فيبر أن يميز بين الفعل الاقتصادي وبين ما أطلق عليه فرانز أو بنهيمر F. Oppenhaimer الوسائل السياسية، ويستند تمييزه علـى أسـاس استبعاد عنصر القوة مـن مفهوم الفعـل الاقتصادي، ذلك لان استخدام القوة ، أو الامتلاك المباشر للسلع بالالزام أمر مخالف لروح الكسب الاقتصادي وعلى الرغم من أن فيبر لم يحـدد لنا صراحة المعايير التي تميز الفعل الاجتماعي العقلي ، الا أننا نجده يقدم

انا بصدد الفعل الاقتصادي مجموعة من المعايير أو المحكات التي تميز الفعل الاقتصادي العقلي ، وتتلخص هذه المعايير في : التوزيع المنظم للمنافع بين الحاضر والمستقبل ، والتوزيع المنظم للمنافع المتاحة حسب استخدامها مع مراعاة مبدأ أولوية الاحتياج ، والانتاج المنظم للمنافع بواسطة الصناعة والنقل ، أي حينما يستطيع الفاعل أن يوفر لنفسه معظم وسائل الانتاج الاساسية ، وأخيرا لا بد أن يقوم الفعل الاقتصادي العقلي على أساس الربح المنظم [١] •

هكذا يوضح لنا العرض السابق كيف يتصدر مفهوم الفعل الاجتماعي التحليلات السوسيولوجية التي يقدمها فيبر ، بل وتطبيق هذه التحليلات على التنظيمات والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية، ومعنى ذلك أن فيبر لا يجعل الفعل معتمدا فقط على العلاقة بين الوسائل والغايات ، وانما يربطه باستمرار بنسق اجتماعي معين، وبالظروف التي يتم في ضوئها تحقيق الغايات ومن ثم يذكرنا فيبر باستمرار ان كل المفاهيم التي يقدمها لا تكفي في ذاتها ، وانما لا بد أن يستخدمها علماء الاجتماع في تشييد النماذج المثالية لتفسير مشكلات ملموسة ، بل والأكثر من ذلك أن هذه النماذج بدورها ليست غاية مطلقة ، ولكنها وسيلة التفسير والتعليل الصحيح ، وهنا تتجلى مهارة عالم الاجتماع في الصياغة ، والتحليل ، والمقارنة لكي يحقق ما يصبو اليه علم الاجتماع من أهداف كبرى •

٣ ـ علم الاجتماع ودراسة القيم :

يحتاج مفهوم القيم Values عند ماكس فيبر لمعالجة خاصة ، اذ على الرغم من كثرة ما كتب عن القيم عند فيبر على نحو « لم يعد من

(1) Weber, Op. Cit. p. 158.

المسكن معه اضافة شيء جديد عن نظرية القيم عنده » (١) كما ذهب الى ذلك ريمون آرون . فان الملاحظ على الكتابات السوسيولوجية المعاصرة أنها أخذت تجدد مرة أخرى الحوار مع تصورات فيبر عن دور القيم في البحث والتحليل السوسيولوجي • ونقطة البدء عند ماكس فيبر هي مناقشة العلاقة بين العلم والقيم ، اذ يقول فيبر في مؤلفه عن مناهج العلوم الاجتماعية : « ليس من مهمة العلم الامبيريقي (٢) أن يقدم معايير ومثاليات نستمد منها توجيها للانشطة العملية المباشرة » • لكن هذه القضية بالطبع لا تكشف سوى عن جانب واحد من العلاقة بين العلم والقيم ، اذ يمضي فيبر في تحليله لهذه العلاقة فيقول : « حينما نشرع في التفرقة بين « أحكام القيمة » و « المعرفة الامبيريقية » ، فاننا نفترض بداءة وجود بناء صحيح في العلوم الاجتماعية ، نقصد به تنظيم تحليلي واضح للواقع ، ولا شك أن هذا الافتراض المبدئي قد أصبح هو مشكلتنا بمعنى أننا يجب أن نناقش مفهوم معنى الحقيقة الصادقة موضوعيا في العلوم الاجتماعية » (٣) • وحينما نشرع في مثل هذه المناقشة سوف نواجه حتما بالحقيقة التالية وهي أن هناك طائفة من العلوم يتعين أن نطلق عليها مصطلح العلوم الثقافية ، وهي علوم تتخصص في دراسة « كائنات ثقافية » مزودة بالمقدرة والارادة ولها اتجاهاتها الخاصة نحو العالم المحيط بنا ، كما أن هذه الكائنات لا تستطيع أن تحل نفسها من تقديم ما يجري حولها من ظواهر ووقائع ، ومن ثم يصبح مفهوم الثقافة ذاته مفهوما قيميا ، ويصبح الواقع الموضوعي بالنسبة لنا ثقافة لأننا نربطه دائما بمثاليات قيمية • ومثل هذا الجانب القيمي من الواقع الذي نعيشه هو وحده الذي ينطوي على أهمية ودلالة بالنسبة لنا ، وذلك راجع بالطبع

---

(1) Aron. op. cit., p. 7.

(2) Weber, Methodology. p. 143

(3) Ibid p. 241

الى أنه يكشف لنا عن علاقات ذات معنى لأنها وثيقة الصلة بما نقبله من القيم • يضاف الى أن كل معرفة تتوصل اليها عن الواقع الثقافي تعبر عن وجهة نظر معينة بالذات ، اذ بدون الأفكار القيمية عند الباحث يتعذر عليه أن ينتقي من الواقع ما يصلح موضوعا لبحثه ، بل لا يستطيع أن ينظم معلوماته وفقا لمبدأ محدد • ولا شك أن تبني وجهة نظر معينة عند دراسة أو بحث أي ظاهرة يعد خطوة رئيسية ، ومطلبا حيويا لصياغة الاطار التصوري الذي سوف يوجه البحث بأكمله • وكل ذلك سوف يجعلنا نخلص في النهاية الى نتيجة محددة وهي « أنه لا يوجد تحليل علمي مطلق للثقافة ••• أو للظواهر الاجتماعية مستقل تماما عن وجهات نظر خاصة يتبناها الباحث ـ بطريقة واعية أو غير واعية واضحة أو مضمرة ـ ويستعين بها في أغراض الاختيار ، والتحليل ، والتنظيم والعرض » [1] •

هكذا ، يكشف لنا النص السابق عن الأهمية التي تحتلها القيم في العلوم الثقافية ، ويصبح من الضروري اذن أن نلقي الضوء على طبيعة الفلسفة التي تبناها فيبر عن القيم ، وهي فلسفة تستمد جذورها من الفلسفة الكانطية • ان القيم لا تنشأ في الأصل نتيجة لادارة بشرية تختلف تماما في نوعها عن الأساليب التي يلجأ اليها العقل حينما يسعى الى فهم الواقع وادراك الحقيقة ، فالحقيقة ذاتها هي قيمة ، بل أنها تمثل عند فيبر القيمة الكبرى • ومع ذلك يظل هناك فارق بين العلم والقيم • فالعلم يستند الى الموضوعية والبرهان والمنطق ، على حين أن القيم مصدرها الاختيار الحر ، والاعتقاد في صدقها • ومع أن القيم عند فيبر شأنها شأن دوركايم ذات منبع اجتماعي ، الا أنها تاريخية أيضا بحيث

(١) راجع Alan Dawe, The Relevance of Value, in Sahay, op. cit. pp. 37—63.

نستطيع أن نفسر في ضوئها الصراعات التي تنشأ بين مختلف الجماعات ، والأحزاب . والأفراد في كافة المجتمعات • كذلك يلاحظ على فيبر أنه لم يجعل من المجتمع قوة عليا يصدر عنها كل شيء مستقلا عن الوجـود الفردي كما فعل دوركايم ، ولكنه أضاف الى المجتمع أيضا ارادة الأفراد ورغباتهم ، واختياراتهم وتفضيلاتهم الخاصة ، فالقيم ـ مثلا ـ ترجع الى استجابة وعي الأفراد للوسط الاجتماعي أو الموقف الذي يعيشونه والحق أن فيبر كان يتبنى اتجاهين رئيسين نحو مسألة القيم ، فهو كرجل سياسة أراد أن يكشف عن التناقضات التي تنطوي عليها أنماط السلوك المختلفة، وهو كعالم اجتماع يريد أن يتعرف على تأثير مختلف الاتجاهات الدينية والثقافية على سلوك الأفراد ، وبخاصة في المجال الاقتصادي [١] • ولهذا فان فيبر يستند الى رؤية أخلاقية واضحة للعالم المحيط بنا ، وجوهر هذه الرؤية أن هناك أفراد يمارسون عملية اختيار القيم ، ويسعون من أجل فرض المعاني الخاصة عندهم على ظواهر العالم الخارجي • ومهمة عالم الاجتماع تتلخص في محاولته فهم هذه المعاني التي يسقطها الأفراد على الظواهر والعلاقات الاجتماعية المختلفة ، لكن عالم الاجتماع هو جـزء من هذا العالم ، وخاضع لقوانينه ، ومن ثم فهو يفهم ويفسر الظواهر مـن وجهة نظره الخاصة ، وهنا بالذات تبدو أهمية القيم كشرط أولى لكافـة ضروب المعرفة الاجتماعية الواقعية بالعالم •

وقد يبدو غريبا أن يؤكد فيبر أهمية القيم على هذا النحو ، ثـم يطالب بضرورة تبني ما يسمى بالحياد الأخلاقي أو تحرير العلم مـن الأحكام القيمية ، لكن فيبر يبرر موقفه هذا بأنه لا يريد فقط أن يحافظ على وحدة العلم ، ولكنه يحافظ في الوقت ذاته على وحدة الاخلاقيات ، لما لها من أهمية خاصة ، نظرا لأن المعرفة وحدها لا يمكن أن تصل بنـا الى ادراك المعاني الحقيقية للظواهر • فالعلم يطرح تساؤلاته بطريقـة

موضوعية فيها قدر كبير من الحياد الاخلاقي ، ولكن القيم والاخلاقيات تستطيع أن تجعل الاجابة على هذه التساؤلات واضحة كل الوضوح ، حين تبين لنا ما يكمن خلفها من معاني •

٤ ـ علم الاجتماع الديني :

يعتقد كثير من علماء الاجتماع أن الاسهام الذي قدمه فيبر في مقالاته التي جمعت منذ عام ١٩٠٤ حتى لحظة وفاته تحت عنوان : علم الاجتماع الديني تمثل أهم اسهاماته في علم الاجتماع • بل يذهب تاوني Tawney الى حد القول : « بأن أعمال فيبر وبخاصة دراسته عن الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية قد أثارت اهتمام الباحثين في ميادين الاقتصاد ، والتاريخ ، والاجتماع جميعا ، ذلك لأن التساؤلات التي طرحها تشكل اهتماما عاما للباحثين في هذه الميادين ، الى جانب ما يشله المنهج الذي استخدمه في الدراسة من أهمية تعادل أهمية النتائج التي توصل اليها » مما جعل دراسته محورا لاهتمام كل من يتصدى لدراسة المجتمع الحديث » (١) •

ويقول ريمون آرون « ان نقطة الانطلاق في دراسات فيبر عن علم الاجتماع الديني هي اعتقاده بأن فهم أي اتجاه يحتاج من الباحث ادراك تصور الفاعل للوجود بأكمله ، اذ في ضوء هذا الاعتقاد حدد فيبر التساؤل التالي لكي تجيب عليه دراساته : الى أي مدى تؤثر التصورات الدينية عن العالم والوجود في السلوك الاقتصادي لكافة المجتمعات ؟ » (١) •

---

(1) Tawney, *Forward to the Protestant Ethic and the spirit of Capitalism,* p. 8.

(1) Aron *op. cit.* pp. 217—236.

هناك بالطبع زعم مألوف يذهب الى أن فيبر قد حاول رفض آراء ماركس لكي يفسر السلوك الاقتصادي تفسيرا دينيا ، لكن هذا الزعم غير صحيح ، اذ يعتقد آرون أن فيبر كان يريد أن يؤكد قضيتين هما :
(أ) أن سلوك الأفراد في مختلف المجتمعات يفهم في سياق تصورهم العام للوجود . وتعتبر المعتقدات الدينية وتفسيرها احدى هذه التصورات للعالم التي تظهر في سلوك الأفراد والجماعات بما في ذلك السلوك الاقتصادي .

(ب) ان التصورات الدينية هي بالفعل احدى محددات السلوك الاقتصادي ومن ثم فهي تعد من بين أسباب تغير هذا السلوك [٢] . ويذهب زايتلن مذهبا مقاربا الى ذلك لحد كبير فهو يقول : اذا نظرنا الى دراسات فيبر عن الأخلاق البروتستانتية من خلال السياق العام لمؤلفه علم الاجتماع الديني لأصبح من الواضح لنا تماما ، أنه بينما يحاول فيبر أن يعقد حوارا مع ماركس وتقديم تعديلات لمنهج ماركس ، فانه لم يكن يسعى قط الى رفض أفكار ماركس ... فلقد كان في كل دراساته ـ المبكرة والأخيرة عن الديانات الصينية والهندية واليهودية ـ يدرك تماما أهمية ما أطلق عليه العوامل الاقتصادية » [١] .

ولننتقل الآن لتلك الدراسة الهامة التي مر عليها أكثر من نصف قرن من الزمان ولا تزال شهرتها واسعة حتى الآن ، والتي كرس فيها فيبر جهده لفحص العلاقة بين روح الرأسمالية والأخلاقيات البروتستانتية ، اذ اعتقد فيبر أن العلاقة بين الظروف الاقتصادية والأخلاقيات النابعة عن الدين لم تحظ بالاهتمام الذي تستحقه . ومما هو جدير بالذكر أن فيبر لم يكن يهتم فقط باثبات العلاقة بين الدين والاقتصاد ، بل كان يهدف

---

(1) Aron, Ibid., p. 218.
(2) Zietlin, op. cit., p. 122.

الى التعريف على التأثير المتبادل بين الظاهرتين داخل اطار تاريخي يسلم بتفاعل عدد كبير من الظروف والعوامل .

على أن فيبر لم يعالج الجوانب المختلفة للدين بوصفه ظاهرة اجتماعية بل اكتفى بدراسة الاخلاقيات الاقتصادية للدين Wirtschaftsethik . وهو لا يقصد بالاخلاقيات الاقتصادية للدين، تلك المبادىء الغائية التي يتضمنها ، والتي تتطلبها « الصور العملية للسلوك » ، بل يقصد « ما يؤكد علية الدين من قيم اقتصادية » باعتبارها نتاجا دينيا . ولكي يحدد فيبر نطاق دراسته تناول الاخلاقيات الاقتصادية لستة ديانات عالمية هي : الكونفوشية ، والهندوكية ، والبوذية ، والمسيحية ، والاسلام ، ثم درس طبيعة الاخلاقيات الاقتصادية في كل منها ، وآثارها على التنظيم الاقتصادي والحياة الاجتماعية للشعوب التي تنتمي الى هذه الديانات . ولقد حاول في ثنايا دراساته هذه أن يربط الدين بالاقتصاد . ولن نستطيع بطبيعة الحال أن نتتبع تحليل فيبر المستفيض للآثار المترتبة على كل من هذه الديانات ، ولذلك فسوف نكتفي بتقديم مثالا واحدا لكي نوضح من خلاله المنهج الذي اتبعه فيبر، والنتائج التي خلص اليها . وهذا المثال هو العلاقة بين الرأسمالية الحديثة والعقيدة البروتستانتية (١) .

ونقطة البدء في هذه الدراسة هي بالطبع تحديد ماذا يقصد بالرأسمالية ، وسيتضح لنا في هذه الحالة أنه ليس ثمة رأسمالية واحدة، وانما هناك نظم رأسمالية عديدة تختلف باختلاف المجتمعات ، ولذا يتعين أن نحدد الخصائص المميزة للرأسمالية التي ندرسها ، ونستطيع في هذه الحالة أن نستخدم طريقة النموذج المثالي لتحديد خصائص النظام

(1) Fischof F., The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism, op. cit., p. 72.

الاقتصادي الذي ندرسه • وسنجد أن الرأسمالية الغربية الحديثة تمثل في حقيقة الأمر ظاهرة فريدة تنحصر خصائصها الأساسية فيما يلـــي : المشروع الاقتصادي القائم على التنظيم العقلي ، والذي تتم ادارته وفقا للمبادىء العلمية، والثروات الخاصة، والانتاج من أجل السوق ، والانتاج للجماهير وعن طريقهم ، والانتاج من أجل المال ، والحماس المتزايـد ، والروح المعنوية العالية ، والكفاءة في العمل ، تلك التي تتطلب تفرغـا كاملا لفرد يزاول مهنته أو عمله ، وهذا التفريغ يجعل من العمل المهني هدفا ومطلبا رئيسيا في حياة الفرد ، ذلك أن الفرد يهتم بالعمل المهنـي كغاية في ذاته ، ولا ينظر للعمل في المجتمع الرأسمالي الحديث على أنـه شيء عرضي ، ولكنه هدف يعيش الانسان من أجله ، وهو الذي يفرض أغلب الالتزامات الهامة• وهذه الأخلاقيات المهنية vocational ethics تعتبر أحد السمات الواضحة لروح الرأسمالية الحديثة ، ونتيجة لذلـك يقدر المجتمع الرأسمالي الفرد باعتباره عاملا في المحل الأول ، فترتفـع أجور أولئك الذين يمتازون أو يتفوقون في أعمالهم ، بينما تنخفض أجور غير المتفوقين • وبالاضافة الى ذلك ، فان الرأسمالية تتضمن ــ من ناحية ــ نزعة عقلية ونفعية في الوقت نفسه ، كما أنها تثير المبادرة والقـدرة على الاختراع بكل الوسائل الممكنة ، ومن ناحية أخرى ترفض رفضا تاما النزعة التقليدية والخيالية أو اللاعقلية • وهكذا تكون الرأسمالية الناضجة نشاطا عقليا ، يؤكد النظام ، والترتيب ، والتدرج في التنظيم •

تلك هي الخصائص النموذجية مثاليا للرأسمالية الحديثة • ولذلك فهي تختلف في سماتها عن الرأسمالية القديمة ، أو رأسماليـة العصور الوسطى اختلافا أساسيا ، ومن ثم فهي تمثل ظاهرة نوعية حديثة للمجتمع الغربي •

بيد أن الرأسمالية تتطلب كذلك وجود أفراد يتميزون بسيكولوجية

معينة ، وسلوك خاص وظروف اجتماعية بالذات • فالتنظيم الرأسمالي لا يتحقق في مجتمع يتسم أفراده بالكسل ويتمسكون بمعتقدات خرافية، ويتميزون بعدم الكفاءة وهكذا لا بد أن تتوافر مجموعة الظروف الآتية، الى جانب تلك السمات السيكولوجية المشار اليها ، وهذه الظروف هي : رأس مال عقلي وادارة العمل ، وامتلاك كل وسائل الانتاج ، وتوفر وسيلة قليلة للانتاج ، وشيوع قانون عقلي ، وازدياد العمل الحر ، وتسويق لمنتجات العمل •

ويذهب فيبر الى أن بنيامين فرانكلين B. Franklin قد عبر أصدق تعبير عن السمات السيكولوجية اللازمة لوجود النظام الرأسمالي ، ويكشف عن ذلك تعاليمه المختلفة مثل « الامتياز هو المال » و «الأمانة هي أفضل سياسة» ، و «الحساب الدقيق ضروري لأية عمل»، وكذلك السلوك المنظم ، والمثابرة ، والكفاية ، والصدق ، والاخلاص هي كلها سمات ضرورية للنجاح في أي ميدان ، وبالذات في العمل » •

ولكن ما هي القوى التي أدت الى مثل هذا التحول الذي حدث للمجتمعات وبخاصة ذلك الذي طرأ علىسلوك أفرادها وسيكولوجياتهم، أو بعبارة أخرى كيف انبثق هذا النموذج الاقتصادي ؟

وقد أجاب فيبر على ذلك بأن الرأسمالية الحديثة نشأت من خلال العقيدة البروتستانتية وأخلاقياتها الاقتصادية ، فروح الرأسمالية هي نفسها روح العقيدة البروتستانتية بما تتضمنه من سلوكوأخلاقيات عملية، ولقد وجدت « الأخلاقيات الاقتصادية » في نطاق الديانة البروتستانتية، فروح الرأسمالية ظهرت قبل أن تظهر الرأسمالية ذاتها •

ولقد توصل فيبر الى هذه النتيجة من خلال تحليل دقيق لتعاليم لوثر Luther وكالفن Calvin • فروح البروتستانتية كما

تبدو في أخلاقياتها العملية في الحياة اليومية ، تطابق في الواقع روح الرأسمالية الحديثة . ذلك أن العقيدة البروتستانتية تهتم اهتماما بالغا بتنشئة الفرد تنشئة عقلية ، وهي تمنح المهنة قيمة أخلاقية كبيرة ، كما أنها تقدس العمل، بل وتعتبر أن تأدية العمل بأمانةوحماس واجب مقدس، والعقيدة البروتستانتية فوق كل ذلك تعتبر جمع المال بطريقة شريفة نشاطا ذكيا .

كذلك سعى فيبر الى تأييد استنتاجه من خلال تحليل تاريخ بعض الدول البروتستانتية فمنذ عصر الاصلاح كانت الدول الرائدة اقتصاديا ، هي تلك التي تسودها العقيدة البروتستانتية مثل هولندا ، وانجلترا . وأمريكا ، بينما ظلت الدول الكاثوليكية أو غير البروتستانتية متخلفة نسبيا . ولقد فسر ذلك بأن روح العقيدة البروتستانتية في تلك الدول، كانت تدعيما وتثبيتا لأشكال النشاط التي تعتبر ضرورية لاقامة وادارة المشروعات الرأسمالية الحديثة [١] .

وفضلا عن ذلك نجد تدعيما لآراء ماكس فيبر وافتراضاته فيما يتعلق بهذا الميدان ، ما أظهرته البيانات الاحصائية من أن السكان البروتستانت في ألمانيا تتميز حالتهم الاقتصادية بأنها أفضل عنها بين غير البروتستانت ، كما أن أبناءهم يتلقون تعليمهم في المدارس العملية والادارية أكثر من أبناء غير البروتستانت . وعلى الرغم من ذلك فقد أدرك ماكس فيبر امكانية تفسير عكسي لهذه الوقائع . ومؤدى هذا التفسير العكسي : أن هولندا وانجلترا وغيرهما من البلاد التي تتميز بارتفاع المستوى الاقتصادي ليس مرد ذلك أنهم أخذوا بالعقيدة البروتستانتية ، ولكنهم قبلوا هذه العقيدة ، وذلك نتيجة لأنهم في حالة

---

(1) Sorokin, op. cit., pp. 475—480

اقتصادية عالية . فلقد قبلت الأسر الغنية العقيدة البروتستاتنية لأن هذه الأسر كانت في حالة اقتصادية عالية . ويرى فيبر Weber أن هذا الافتراض العكسي خاطىء من أساسه . ذلك لأن هناك عددا من الفقراء الذين قبلوا البروتستاتية في روما وفي فرنسا وفي انجلترا ، وذاعت الآن شهرتهم نظرا لارتفاع حالتهم الاقتصادية ، وما قدموه من نشاط صناعي ملحوظ ، ودورهم القيادي في مجال الأنشطة الاقتصادية . وهكذا استطاع فيبر أن يكشف عن هذا الافتراض العكسي ، وأن يدعم صدق نظريته . واستطاع أن يتتبع المذاهب الفرعية في العقيدة البروتستاتنية خطوة خطوة ، وذلك لكي يبين أن دراسته وارتباطاتها ، تدعمها دراسة كل الشعوب البروتستاتنية في ألمانيا ، وهولندا ، وانجلترا، وأمريكا .

تلك هي أساسيات نظرية ماكس فيبر عن أصل الرأسمالية الحديثة وكيفية صدورها عن العقيدة البروتستاتنية .

وهكذا يتضح كيف تتعارض نظرية فيبر عن أصول الرأسمالية الحديثة تعارضا واضحا مع التفسير المادي للتاريخ ، ذلك لأن البحث في ايجاد حل لمشكلة نشأة الرأسمالية ينبغي « ألا ينصرف الى دراسة نمو المتناقضات بين تطور قوى الانتاج وعلاقات الانتاج ــ كما ذهب ماركس ــ وانما يجب البحث عنه في تغيير الاتجاهات السيكولوجية التي تكونت سنها عقلية النظام الاقطاعي الاقتصادي » .

وهكذا يؤكد فيبر بقوة أن تغييرا في العقلية قد سبق ظهور الأسلوب الرأسمالي في الانتاج . وهو تغيير ينحصر في احلال السعي الحر من أجل الربح النقدي المشروع والتوفير والعمل الشاق المنظم محل القيم الاقطاعية التقليدية للحياة في الريف ، والتنظيم المعتاد القائم على وجود

طوائف تضم أصحاب الحرف في المدن ، وهكذا تكون الرأسمالية قد ظهرت في ظل « علم أخلاق اقتصادي » جديد سيطر على الناس وغير طريقتهم في الحياة • ويرجع ذلك لأن لكل عصر تاريخي « روحه » الخاصة به التي تنحصر في مجموعة الاتجاهات السيكولوجية البشرية التي تضفي على كل عصر طابعة الخاص • ومن هنا « فمفتاح فهم التطور الاقتصادي ليس أسلوب الانتاج ، أي ليس القوى الانتاجية وعلاقات الانتاج ، ولكنه الاتجاهات السيكولوجية التي تشكل « روح » عصر تاريخي » •

٥ ــ علم الاجتماع الصناعي :

اشتهر فيبر في ميدان الاجتماع الصناعي بدراساته الهامة عن البيروقراطية والسلطة ، وكانت مؤلفات الاجتماع الصناعي الحديثة تعتبر أن هذا هو الاسهام الوحيد الذي قدمه فيبر في الميدان• لكن هناك مجموعة دراسات تناولت جوانب أخرى أسهم بها فيبر في ميدان الاجتماع الصناعي ، ومن أهم هذه الدراسات دواسة الدردج J. E. T. Eldridg بعنوان : منهج فيبر في الدراسة السوسيولوجية للعمال الصناعيين [1] ، وتمثل هذه الدراسة قراءة جديدة لفكر ماكس فيبر ، لذلك سوف نقتصر هنا على تحليل أهم ما تضمنته هذه الدراسة • كان الدردج فريدمان قد أشار في مؤلفه المجتمع الصناعي الى مقال فيبر، بعنوان: سيكوفيزيقية العمل الصناعي ، كذلك أشار الى مقال آخر هو مقدمة منهجية كتبها فيبر للمسح الذي أجرته منظمة السياسة الاجتماعية عن اختيار وتوافق العمال في المصانع الكبرى • ولقد تناول « اوبرشال Oberschall تحليل أعمال فيبر هذه في بحث له بعنوان : البحث الامبيريقي في ألمانيا (١٨٤٨

(1) Eldridge, Weber's approach to the Sociological Study of Industrial Workers, in Sahay *op. cit.*, pp. 97—110.

ــ ١٩١٤) (١)• واهتم أوبرشال بابراز الحقيقة التي مؤداها ، ان فيبـر كان مهتما بمحاولة فهم المشكلات الاجتماعيـة المعـاصرة فـي ألمانيـا قدر اهتمامه بالدراسات التاريخية المقارنة ويبدو ذلك واضحا من عضويته في منظمة السياسة الاجتماعية ، وهي منظمة ضمت جماعة من اساتـذة الجامعات ورجال الاعمال وموظفي الخدمة المدنية الذين اهتموا بمعرفـة المشكلات المصاحبة للعمل الصناعي واقتراح السياسات التي تحقق مزيدا من الاستقرار في العمل• وقد تأسست هذه المنظمة عام ١٨٧٢ وأسهم في تأسيسها الاقتصادي الاجتماعي جوستاف شمولر G. Schmoller وادولف فاجنر A. Wagner ، والتحق بهـا فيبر عام ١٨٩٠ وكـان خلال هذه الفترة مهتما بدراسة التغيرات التي طرأت على علاقات العمل في المناطق الريفية بألمانيا • ثم اتجه اهتمام المنظمة بعد ذلك الى العمـل الصناعي ، وكان ألفرد فيبر قد اقترح اجراء مسح للعمـال الصناعيين ، وتولى ماكس فيبر تنظيم هذا المسح وتوجيه جهود الباحثين الاجتماعيين في الدراسة الميدانية • ويقول أوبرشال ان هذا المسح يمثل أهم الأعمال الميدانية التي أجريت في فترة ما قبل الحرب بألمانيـا ، اذ أمضى فيبـر فترة امتدت صيف عام كامل في ملاحظة ظروف العمل باحدى مصانـع النسيج • وكان يهدف في هذه الملاحظات الى استكشاف مدى ملاءمـة أدوات البحث السيكولوجي لدراسة العمل الصناعي على نطاق واسع • كما اهتم بربط المعلومات التي توصل اليها عن طريق استبيان صمم لهذا الغرض بالمعلومات التي تنطوي عليها سجلات المصنع ، واستخدامها في تحليل ما يتوصل اليه عن طريق الملاحظة المباشرة للعمال في المصنع •

ولقد أوضح ماكس فيبر أهداف البحث ومنهجه واجراءاته في مقاله

(1) A. Oberschall, *Empirical Social Research Germany* 1948 — 1914 Mouton — Paris, 195, Ch. 6, Max Weber and the Problem of Industrial Work».

السابق الاشارة اليه حيث قسمهذا المقال الى ثلاثة أقسام هي : (أ) الطبيعة العامة للمسح ، و (ب) المشكلات العلمية للمسح ، و (حـ) منهج المسح . وكشف في القسم الأول عن مشكلتين هامتين ، فهو يقرر أن المسح الحالي يسعى الى بيان أثر الصناعة الكبرى على الشخصية الفردية ، والمستقبل المهني ، فأسلوب حياة العمال في مجتمعاتهم المحلية من جهة ، فضلا عن توضيح مدى تأثر الصناعة ذاتها في اتجاهات نموها وتطورها بالخلفية العنصرية والثقافية والاجتماعية للعمال الصناعيين . ومعنى ذلك أن فيبر قد اهتم بما يهتم به رجال الاجتماع الصناعي في وقتنا الحاضر وهو ما يسمى بالتحليل التنظيمي الداخلي والتحليل التنظيمي الخارجي . أما الأول فيركز على البناء الداخلي للتنظيمات الصناعية ، والثاني يبحث أثر الصناعة في المجتمع ، وكلا النوعين من التحليل التنظيمي يتبنى منظورا شاملا يمكنه من ادراك المشكلات التنظيمية والمجتمعية الأساسية (١) .

ثم نجد فيبر بعد ذلك يناقش الفروق بين المسوح ذوات الاهتمام السياسي الاجتماعي في مقابل المسوح السوسيولوجية البحتة ، مسترشدا في ذلك بالطبع بنظريته عن الحياد الاخلاقي التي ضمنها مقاله بعنوان : معنى الحياد الأخلاقي في علم الاجتماع والاقتصاد ، يقول فيبر في هذا الصدد : « ان المسألة ليست هي كيفية تقدير الظروف الاجتماعية للصناعة بصفة خاصة ، أي بحث مدى ملاءمة ظروف العمل بالمصانع الكبرى بالنسبة لرضاء العمال ، وكيفية تحسين هذه الظروف ، ان البحث يتجه وجهة غير متحيزة ، فيهدف الى التعرف الموضوعي على الحقائق

---

(١) أنظر دراسة تطبيقية استخدمت هذا التصور في بحث التنظيم الاجتماعي للصناعة في مصر : محمد علي محمد ، مجتمع المصنع : دراسة في علم اجتماع التنظيم ، الطبعة الثانية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ .

واستكشاف أسبابها داخل العمل الصناعي ومن خلال دراسة شخصية العمال ••• ان مشكلة البحث هـي مشكلة محايـدة تماما بطبيعتها • والباحث وان كان يأخذ في اعتباره شكاوى العمال الخاصة لكنه لا يهمه أن يصدر حكما عليها ، بقدر ما يهتم بتفسير الظواهر الفنية الاقتصادية أو السيكولوجية في ذاتها • كمـا يهتم أيضا بالحالة النفسية للعمـال وأسلوب تفكيرهم • وفي كل ذلك ينظر اليهم الباحث لا علـى أساس « تبريراتهم » وانما في ضوء حالاتهم »[1] •

ويؤكد فيبر فـي مقدمته المنهجيـة ضرورة فهم الظروف الفنيـة والتنظيمية والاقتصادية العامة كمطلب أولي للدراسة السوسيولوجيـة الجادة ، مثال ذلك أن نظام توزيع السلع يؤثر على طريقة الانتاج ممـا ينعكس بدوره على الخصائص التي يتعين أن تتوافر في قوة العمل • كما أن على الباحث أن يأخذ في اعتباره النتائج المترتبة على التغيرات التكنولوجية في الصناعة بالنسبة لحجم قوة العمل ونوعيتها ودرجة مهارتها • اذ لا يجب أن نفترض أشياء دون الرجوع الى السياق العام المحيط بهـا ، أو أن نجمع احصاءات دون معرفة ما تنطوي عليه من دلالات • وهو يقرر في هذا الصدد في مؤلفه : نظرية التنظيم الاجتماعي والاقتصادي أن «هناك الكثير من احصاءات الظواهر الاجتماعية الخالية من المعنى مثل معدلات الوفيات ، وظواهر التعب الصناعي ، ومعدلات الانتاج ••• ويرجع ذلك الى عدم الاهتمام « بفهم » هـذه الاحصاءات علـى أساس أهميتهـا الطبيعية • وعلم الاجتماع عليه أن يدرك المعاني الذاتية لهذه الظواهـر وأن يحصر نفسه في نطاقها ••• فهي تمثل في الحقيقة مثيرات وظروف تؤثر في السلوك » •

(1) Eldridge, op. cit., p. 99.

ويحدد فيبر استراتيجية المسح تحديدا واضحا ، فيطالب بالاهتمام بالمصانع التي تتحقق فيها الظروف التالية : (أ) حينما تمثل تكاليف الأجور معدلا عاليا من اجمالي التكاليف و (ب) حينما يعتمد الانتاج كما ونوعا على كفاءة العمال ، و (حـ) تقنين الانتاج الذي يعتبر فرصة هائلة لقياس انتاجية العمال . ولقد دفع ذلك فيبر الى تأكيد أهمية تحليل طابع قوة العمل وسوق العمل على أساس العرض والطلب ، وأسلوب التعيين في الشركات الصناعية ، والانماط المختلفة للمستقبل المهني Career Pattérns . ومعنى ذلك أن دراسة قوة العمل لا تحتاج فقط الى معرفة بالاحصاءات الاقتصادية وانما هناك ضرورة الى التعرف على العوامل الاجتماعية والنفسية التي تؤثر في اختيار الناس لأعمالهم ، وعموما ، فان التساؤلات التي سوف يهتم بها عالم الاجتماع عند اجراء هذه الدراسات تتلخص فيما يلي :

(أ) الى أي مدى يتجه تطور الطبقة العاملة اتجاها نوعيا ، متأثرا بالفروق الاجتماعية والاقتصادية بين مختلف الطبقات ؟

(ب) هل يزداد الاعتماد على العامل الصناعي المتخصص في عمله ، أم لا يزال التخصص في العمل الصناعي مطلبا عاما ؟

(حـ) هل كل تقنين للانتاج يحتاج أيضا الى تقنين العمال ، والى أي مدى تتوسع الشركات الصناعية في ذلك ؟ وهل تقدم على وضع البرامج التدريبية اللازمة لهذا الغرض ؟

(ى) ما هي فرص الترقي أمام العمال اقتصاديا وتنظيميا وسيكولوجيا؟

(هـ) كيف تؤثر نتائج هذه الظروف جميعا على الطابع النفسي لعمال الصناعة وأسلوبهم في الحياة ؟

لا شك أن هذه التساؤلات التي وضعها فيبر آخذا في اعتباره عددا

من المتغيرات الاقتصادية الأخرى مثل تكوين رأس المال ، وسوق العمل، سوف تكون الاجابة عليها من خلال البحث العلمي عبارة عن مسح شامل لخصائص الطبقة العاملة في الصناعة واتجاهات نموها في المستقبل ، وهو بحث لا تزال دراسات الاجتماع الصناعي وسوسيولوجية العمل بحاجة ماسة اليه حتى وقتنا الحاضر •

ويعالج فيبر في القسمين الأخيرين من المقال مسألتين هامتين فهـو يؤكد أولا أن العوامل الفيزيولوجية لا يمكن وحدها أن تقدم تفسيـرا صحيحا لسلوك العمال «فالدافعية تعد عاملا هاما، اذ كيف نفسر سلوك العمال الذين يفضلون البقاء في أعمالهم بدلا من تغييرها بأعمال أخـرى ذوات أجور أعلى من أعمالهم الحالية، ولا شك أن الدافعية بهذا المعنى ظاهرة اجتماعية مركبة لا يمكن ارجاعها لعوامل فيزيولوجية • ثم يحلل فيبر بعد ذلك أهمية العوامل الاجتماعية في تفسير سلوك العمال وبخاصة حينما كان بصدد مناقشة للعلاقة بين الاجور والانتاجيـة ويمكـن أن نلخص التساؤلات التي يتعين الاجابة عليها في هذا الصدد فيما يلي :

(أ) الى أي مدى تستطيع سياسة الأجور أن تحقق ما نصبوا اليه من نتائج في ضوء طبيعة العمل كما ونوعـا ؟ ويمكن في هـذا المجـال المقارنة بين سياسات الأجور في الصناعة الألمانية خلال سنوات عديـدة لمعرفة الفروق بين النظم التقليدية والنظم الرشيدة •

(ب) الى أي مدى تستطيع سياسات الأجور الرشيدة أن تحقـق أهدافها ؟ ويتعين هنا الاهتمام بالنتائج غير المتوقعة التي قد تتبدى فـي ظواهر مثل تقييد الانتاج Restviction of Output والتنظيمات غير الرسمية للعمال •

(ج) ما هو تأثير تقييد نظم المكافئات على مستوى الانتاجية ؟ •
(د) اذا احتفظنا بنظام المكافآت ثابتا فما هو الشكل المتوقع لمنحنى الاجر بالنسبة لكل عامل خلال فترة من الزمن ؟ وذلك بالطبع سوف يضع لنا أساسا للمقارنة بين المهن •

ويمضي فيبر في تحليله ليؤكد أن الاحصاءات وحدها ليست كافية، وانما لا بد من الحصول على معلومات شخصية من العمال تفيد في فهم هذه الاحصاءات • وتتفق وجهة النظر هذه مع الدراسات الحديثة للاجور ، اذ يذهب ديريك روبنسون Derek Robinson الى أن دراسات الأجور أحوج ما تكون الى تبني منهج دراسة الحالة الذي يمكننا من معرفة الظروف الشخصية المؤثرة على انتاجية كل عامل ويعطينا صورة واقعية لمنحنى الانتاج والأجر بدلا من التعامل مع متوسطات احصائية صماء لا تكشف لنا عن الديناميات الداخلية المؤثرة في العمل والانتاج [١] •

والواقع أننا نستطيع أن نقول بالفعل مع الدردج « ان عام ١٩٠٨ كان عاما هاما بالنسبة لبحوث الاجتماع الصناعي » ، فلقد وضع فيبر العديد من التساؤلات التي يمكن أن توجه مسار البحوث في هذا الميدان ، وهنا تبدو فائدة القراءة الجديدة لأعمال رواد علم الاجتماع ، فلقد ظل تراث علم الاجتماع الصناعي خاليا من اشارة الى هذه الجوانب الهامة من أعمال فيبر واقتصر على عرض نظريته في البيروقراطية ، ونقد هذه النظرية على أساس أنها خلت من اشارة الى التنظيم الاجتماعي غير الرسمي واكتفت بوضع الخصائص المثالية للبيروقراطية ، وهي خصائص عقلية تماما لا تتحقق في الواقع • ولقد اتضح لنا الآن ان هذا الانتقاد الشائع بحاجة ماسة الى اعادة النظر فيه، في ضوء اهتمامات فيبر بالعوامل الاجتماعية والنفسية المؤثرة في سلوك العمال وانتاجياتهم ورفضه

---

(1) Eldridge, *op. cit.*, p. 109.

للتفسيرات الفسيولوجية للسلوك ، وهو اتجاه قريب الشبه بحركة العلاقات الانسانية في الادارة •

٦ ــ مناقشة وتعليق :

لن أهتم كثيرا في هذا الصدد بعرض الانتقادات التقليدية التي وجهت الى أعمال ماكس فيبر ، فلقد وردت هذه الانتقادات في العديد من المؤلفات والمقالات وأصبحت مألوفة للجميع[١] ، وانما سأنتهز الفرصة لعقد مقارنة سريعة بين آراء كل من فيبر ودوركايم وباريتو باعتبارهم ينتمون الى جيل واحد تقريبا ، كما اجتهد كل منهم في تقديم اسهام فريد للنظرية السوسيولوجية • ومن خلال هذه المقارنة المنهجية سوف تتضح النقاط التي تحتاج الى مناقشة وتعليق عند ماكس فيبر •

ان فيبر ودوركايم وباريتو ينتمون الى جيل واحد تقريبا عاش ظروفا تاريخية متشابهة هي ظروف نمو الحضارة الغربية وما صاحب هذا النمو من مشكلات انعكست آثارها واضحة على نظم المجتمع ومكونات بنائه • ورغم الاختلافات الفكرية التي توجد بين كل منهم ، فانهم جميعا كانوا يهدفون الى تطوير علم الاجتماع بوصفه الأداة الرئيسية لتشخيص مشكلات هذه الحقبة التاريخية ، وايجاد الحلول لها • وهم كما أوضحنا يشتركون جميعا في أن النسق الفكري الذي طرحه علم الاجتماع عندهم كان بمثابة رد محافظ على التيار الذي تزعمته الماركسية لتثوير مفاهيم علم الاجتماع من أجل تغيير المجتمع وتحديد مسيرته في اتجاه معين بالذات [٢] • وربما كان ماكس فيبر على وجه

---

(١) راجع هذه الانتقادات في : السيد الحسيني ومحمد علي محمد ، ماكس فيبر ، المجلة الاجتماعية القومية ، ١٩٦٧ •

(٢) انظر دراسة هامة للدكتور محمود عودة ، علم الاجتماع بين الراديكالية والرومانسية ، القاهرة ، ١٩٧٥ •

الخصوص اكثرهم قدرة على الافادة من هذا التيار رغم أنه كرس بحوثه في الاقتصاد والدين للتحقق من افتراضات الماركسية ، لكنه قدم لنا علم اجتماع قريب في منهجه من الماركسية من حيث الاهتمام ببناء المجتمع ككل ، واجراء المقارنات الحضارية الواسعة النطاق ، واعتبار التاريخ والبصيرة التاريخية مطلبا أساسيا لدراسة الظواهر الاجتماعية ، بل ان فيبر كان يهدف في الحقيقة الى التعرف على معنى الوجود بأكمله ، ولم يفرق في هذا الصدد بين الفرد والجماعة ، وانما الفرد هو عضو في بناء الجماعة لا يمكن تجاهل وجوده ، ومن ثم يتعين دراسة سلوكه وأفعاله مثلما نهتم تماما بتحليل الجماعة . ولهذا يمكن القول بأن فيبر كانت له فلسفته الخاصة عن الكون المحيط بنا ، وأن هذه الفلسفة جزء متمم لعلم الاجتماع عنده ، بل انه يتعذر فهم مضمون هذا العلم دون البدء بهذه الفلسفة وهذا هو ما يؤكده جوليان فروند J. Freund. في مؤلفه بعنوان : علم الاجتماع عند ماكس فيبر Sociologie de Max Weber

حيث كتب يقول : « ما من أحد يستطيع أن ينكر أن عرض فيبر ونظريته في علم الاجتماع يحتاج بداءة الى تحليل تصوراته الفلسفية العامة ، اذ بفضل هذا الأسلوب فقط نستطيع أن نعطي أعماله مظهرا متكاملا وأن نخوض بيسر في أفكاره المتعددة » [1] . وينبغي أن نضيف حقيقة أخرى الى ذلك وهي أن فيبر كان مفكرا متعدد الجوانب، ويرجع ذلك بالطبع الى المناخ الفكري الذي نشأ فيه كرجل قانون ، واقتصاد ، وسياسة ، لكن هذه الجوانب المتعددة لفكره يربطها نسيج واحد ، وفي ذلك يقول فروند أن ما يميز فكر فيبر هو الانتشار المنهجي العلمي والفلسفي ... ولكنه انتشار بعيد كلية عن التفكك والاضطراب، فليس هناك من كان أكثر منه تشددا في سعيه الشغوف لتعريف الأفكار

(1) Freund J. *Sociologie de Max Weber*, Paris, 1970. Ch. 1

التي يتناولها تعريفا دقيقا ، وتمييز الأوضاع المختلفة للمشكلات التي يدرسها ، وادراك المستويات المتعددة للقضية التي يناقشها يكفينا أن نطلع على دراسته المنهجيه لنرى تشدده في تعقب المتناقضات المنطقية والعموض ، وعدم الدقة في الاستدلال والبرهان » [1] .

ولعل المقارنة بين تفسير فيبر ودوركايم وباريتو للمجتمع الذي عاشه كل منهم يلقى مزيدا من الضوء على تصوراتهم العامة والفروق بينها . اذ يعتقد دوركايم أن المشكلة الاجتماعية هي في جوهرها مشكلة أخلاقية ، وأن الأزمات التي يعاني منها المجتمع المعاصر هي أساسا أزمات أخلاقية كامنة في بناء المجتمع ذاته . ومثل هده الطريقة تكشف عن فكرة رئيسية ميزت أعمال دوركايم عن كل من باريتو وفيبر هي عدم الاهتمام تماما بالصراع . ولا شك أنه من الممكن تصنيف معظم علماء الاجتماع في ضوء الاتجاه الذي تبناه كل منهم نحو الصراع ، أو على الاقل على أساس المعنى الذي يحدده كل منهم لهذا المصطلح . ينظر دوركايم للمجتمع ــ مثلما فعل كونت ــ بوصفه وحدة طبيعية تقوم على الاتفاق العام او الاجماع Consensus ، لا محل اذن للصراع من أية زاوية ، فلا يمكن أن يكون دافعا للحركة التاريخية ، ولا تعبيرا عن الطبيعة البشرية ، انه فقط عرض من اعراض الازمات المعاصرة. والمجتمع الحديث في رأي دوركايم يتميز بدرجة عالية من التباين الوظيفي للاشخاص ، ومن ثم فهو مهدد باختلال توازنه ، وانهيار الاجماع دون أن يوجد نظام اجتماعي عام يحافظ على وحدة المجتمع ، ذلك هو الانومي anomie الذي يشكل محور المشكلات متى يعاني منها مجتمع ما، ومع ذلك، فلقد كان دور كايم يؤمن بأن الشخصية الانسانية، والحكم النقدي هي قيم مقدسة في عصرنا الحالي . من ذلك يتضح لنا

(1) Freund, qo cit

أن ثمة ثنائية تميز تفكير دوركايم ، فهو من جهة يتصور المجتمع باعتباره يشكل بداية الالتزام الاخلاقي والديني ونهايته ، ومعنى ذلك أن المجتمع هو القيمة العليا ، واذا أخذنا فكرة دور كايم الثانية من جهة أخرى من أن عصرنا الحالي ينظر الى الفردية والعقلانية بوصفها قيما أساسية ، فان دوركايم هنا ينتمي الى مفكري التنوير ، اذ هو يسعى الى البحث عن الأسس الاجتماعية العقلانية والفردية ، ولعل هذا هو نفس موقف أوجيست كونت الذي عبر أيضا عن استجابة محافظة لفلسفة التنوير ، وللثورة على وجه الخصوص ، ومن المعروف أن هذا التيار قد انتشر بين المفكرين الفرنسيين أكثر من غيرهم •

أما اذا انتقلنا بعد ذلك الى فيبر وباريتو فمن اليسير أن ندرك أفكارهما من خلال السياق الاجتماعي والسياسي الذي أحاط بهما من جهة ، واهتمامها بنقد وتحليل آراء ماركس من جهة أخرى •

فلقد كان باريتو يهدف من كتاباته الى نقد الماركسية وتفنيد قضاياها ، فهو كرجل اقتصاد ينتمي الى مدرسة لوزان Lausanne ويتبنى آراء ولراس ويسعى الى صياغة نظرية للتوازن الاقتصادي على أساس الاختيار الفردي ، ويعتبر التحليلات الماركسية عن العمل وفائض القيمة والاستغلال خالية من الأساس العلمي • كما طور باريتو أيضا نظرية عن توزيع الدخل يبرهن فيها على أن توزيع الدخل في كافة المجتمعات انما يفسر على أساس قانون رياضي معين• ومن ثم، أصبحت فرص تغيير هذا التوزيع عن طريق الثورة على النظام محدودة تماما ، بل هو يذهب الى أبعد من ذلك حينما يقرر أن العقلانية الاقتصادية ضرورية ولهذا السبب فان خصائص الاقتصاد الرأسمالي سوف تظل باقية حتى مع احتمال حدوث ثورة اشتراكية • وهكذا ، يسعى باريتو الى صياغة

مبررات الملكية الخاصة والمنافسة وهما في نظره أهم مقومات التقدم الاقتصادي •

ويتفق فيبر بالطبع مع باريتو في نقده للماركسية ، ولكنه يؤكد أهمية التنظيم الرشيد والبيروقراطية ، فعلى حين يرى باريتو أن المنافسة والملكية الخاصة هما أساس الثروة والرفاهية الاقتصادية، وبفضلهما تنمو البيروقراطية ، نجد أن فيبر انطلق أساسا من تحليل المناخ الثقافي والاطار القانوني والاداري الذي بفضله سوف تنمو الرأسمالية وتزدهر، فأكد أهمية التنظيم الرشيد والبيروقراطية في المجتمع الحديث ، ذاهبا الى أن البيروقراطية سوف تزداد تدعيما حتى في حالة التحول نحو الاشتراكية • لكن الذي يجب أن ننتبه اليه هو أنه بينما صاغ باريتو علم الاجتماع خاليا من أي اهتمام بالبعد التاريخي ، نجد أن فيبر قد منح التاريخ أهمية خاصة ، بل يمكن القول أن الدراسات المقارنة التي أجراها فيبر للحضارات العالمية تؤكد الارتباط الوثيق بين التاريخ والاقتصاد وعلم الاجتماع ، ذلك أن الوقائع الاجتماعية تكشفت عن نفسها بوضوح في السياق التاريخي •

والواقع أن الاسهام الذي قدمه فيبر ودوركايم وباريتو لتطوير علم الاجتماع يتمثل في تصورهم لهذا العلم بوصفه يتخصص في دراسة الفعل الاجتماعي • بدا ذلك بوضوح في أعمال فيبر وباريتو ، وبشكل ضمني في كتابات دوركايم • ويقوم هذا التصور على اعتقاد مؤداه أن الانسان ككائن اجتماعي وديني هو مصدر القيم والانساق الاجتماعية ، وعلم الاجتماع يهدف الى فهم بناء هذه القيم والانساق ، اي بناء الفعل الاجتماعي • ولقد كان فيبر هو أول من وضع تعريفا لعلم الاجتماع بأعتباره الدراسة الشاملة للفعل الأنساني، ومعنى ذلك ان الأنسان يتصرف في ضوء ما يختاره من أهداف ، وما يستعين به من وسائل لتحقيق هذه

الأهداف، ثم هو يكيف نفسه مع الظروف المحيطة به على النحو الذي يراه ملائما، كما أنه مزود بطائفة من القيم والرموز التي تحدد اختياراته وتحكم استجاباته ، ولقد كرس بارسونز Parsons ، مؤلفا هاما له هو بناء الفعل الاجتماعي The Structure of Social Action لتحليل أعمال باريتو ودوركايم وفيبر ، باعتبار أن كتاباتهم قد أسهمت في تطوير نظرية الفعل الاجتماعي ، ويعتقد بارسونز أن هذه النظرية أكثر نظريات علم الاجتماع شمولا وقدرة على التفسير ، فهي شاملة لأنها تكشف عن المنطق الكامن خلف سلوك الفرد والجماعة ، فلا تكتفي بظاهر السلوك، وانما تنشد دائما معرفة المعاني والاسباب المتعددة لمختلف أنماط السلوك الانساني ، وهي قادرة على التفسير لأنها تضع كل سلوك في السياق العام الذي يكشف عما ينطوي عليه هذا السلوك من دلالات ،

ولا شك أن فيبر بالذات هو الذي وضع أساس هذه النظرية حين قدم تصنيفه لنماذج الفعل الاجتماعي ، فمهد بذلك لمدرسة بارسونز ، بل حدد معالم علم الاجتماع الامريكي بصفة عامة ، لكن الشيء الذي يجب أن نوضحه أن فيبر ليس هو المسؤول عن ذلك التيار الامبيريقي الحديث في علم الاجتماع الامريكي الذي لم يعد يهتم كثيرا بالأبعاد النظرية البنائية والتاريخية ، ان فيبر قدم لنا علم اجتماع قادر على تطوير الاهتمام بالبحوث الامبيريقية وفي الوقت ذاته أكد في كتاباته وأعماله المختلفة أن البحث بدون رؤية تاريخية مقارنة وصياغة نظرية محكمة يصبح عديم القيمة ،

(٢)

الفهم وحقول المعنى

شهد القرن التاسع عشر جدلا وحوارا لا يزال له صداه حتى وقتنا هذا؛ حول المنهج الملائم للعلوم الاجتماعية ، هل تتبع هذه العلوم نفس المنهج المستخدم في العلوم الطبيعية ؟ أم ينبغي لهـا أن تختط لنفسهـا منهجا آخر يناسب موضوعها الـذي يختلف اختلافا تاما عـن موضوع العلوم الطبيعية ؟ ومثل الفريق الاول الوضعيون الـذين يرون أننـا لا نستطيع أن نفرق بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية ، فالعلم هـو العلم ، ووحدة المنهج العلمي يجب أن نحافظ عليها مهما كانت ظـروف البحث والدراسة ، ويترتب على ذلك ان غاية العلم واحدة وهي التفسير واكتشاف القضايا العامة التي تحدد اسباب وقوع الظواهر وارتباطاتها . أما الفريق االآخر فهو يقف موقف المعارضة الشديدة بين دعوى الوضعية زاعما ان العلوم الاجتماعية مختلفة موضوعا عن العلوم الطبيعية ، ولهـا بالتالي ان تطور طريقة خاصة بها للبحث في هذا الموضوع المركب اشـد التركيب ، وأفضل طريقة في هذا الصدد هـي تلـك التي انحدرت الينا عـن تراث المدرسة الالمانيـة وهـي مـا يعـرف اصطلاحـا بالفهـم Verstehen كمقابل للمعرفة Wissen في العلوم الطبيعية . ويختلف

الفهم اختلافا تاما عن مناهج العلوم الطبيعية ، ذلك اننا مهما أدخلنا من تعديلات على مناهج هذه الاخيرة فستظل غير ملائمة لدراسة الانسان والمجتمع ؟ اذ ان المعرفة في العلوم الطبيعية معرفة خارجية تجريبية كمية، على حين أن الفهم في العلوم الانسانية داخلي يتجه نحو الخبرة البشرية ويفحص محتواها . ويترتب على ذلك ان الخبرة مرتبطة مباشرة بالحدس والتعاطف ، أما الظواهر الطبيعية فهي مدركة بالحواس ، ومن ثم كان الاستبطان الذاتي والفهم ملائما للاولى ، أما التجربة والتجريب فهي الطريقة المناسبة للعلوم التي تعالج الطائفة الاخرى من الظواهر .

واذا اعتبرنا التعميم غاية في العلوم الطبيعية ، فان الطريق الموصل اليه في هذه العلوم يستند أساسا على توافر مادة قابلة للقياس ، ومن ثم اقامة الارتباطات الاحصائية ، واستخدام الصيغ الرياضية في التعبير عن هذه الارتباطات وتحديد مدى دلالتها . أما في العلوم الاجتماعية فان الباحث الاجتماعي لا يجب أن يلتزم كلية بهذه الاجراءات الصارمة وانما عليه أن يطور فكرته عن الموضوع أو الظاهرة من خلال تصور ذاته داخلا في الموضوع أو جزءا منه ، ويجعل من التفسير أو التأويل التعاطفي قنطرة تصل بينه وبين الآخرين فينفذ الى المعنى من خلال نوع من الخبرة الحدسية (Intuitive Experience) ، وهكذا تكون غايته كيفية لا كمية بأي حال من الاحوال .

والواقع أن هذا الحوار الشديد اللهجة بين الوضعيين ، وأصحاب الاتجاه الذاتي — ان صح هذا التعبير له اصوله وجذوره العميقة في تاريخ الفكر الفلسفي والاجتماعي . اذ يستمد هذا الحوار اصوله من تلك التفرقة العنيفة بين العقل والمادة والتي ترجع الى أكثر من ألفي عام مضت . ومع أن فلاسفة أيونيا الاوائل (المدرسة الطبيعية) لم يكن

لديهم اهتمام واضح بالتفرقة بين العالم العقلي والعالم الطبيعي ، الا أن هذه التفرقة اخذت تحتل مكانها بالتدريج كمشكلة محورية في الفكر الفلسفي اليوناني القديم وبخاصة عند سقراط وافلاطون ، اذ طرحت على بساط البحث قضايا المعرفة العامة في ضوء تلك التفرقة ، واعتبر افلاطون معرفة الكليات والمثاليات ارقى بكثير من معرفة ظواهر الطبيعة (عالم الأشباح » • واتخذت هذه التفرقة صورا مختلفة بعد ذلك في تاريخ الفكر الانساني • ففي الفلسفة المسيحية التي سادت اوروبا خلال العصور الوسطى اتخذت التفرقة بين العقل والمادة صورة لاهوتية جديدة هي التفرقة بين الروح والجسد ، وبين المقدس والمدنس • كما أن مشكلة الكليات اعيدت مناقشتها من جديد على نحو شجع على ظهور الحوار بين الواقعيين والاسميين عند الدومينيكان والفرنسيسكان •

أما الفلسفة الحديثة التي تبدأ ديكارت فلم تستبعد هي الاخرى بأي حال من الاحوال مسألة العقل والمادة • اذ طالب ديكارت بتبني منهج جديد لتأسيس وحدة الفكر الانساني في مختلف المجالات الامبيريقية ، واللاهوتية ، والأخلاقية • وكانت نقطة بدايته هي مفهوم الذات المفكرة (أنا أفكر اذن أنا موجود Cogito Ergo Sum) باعتبارها المقدمة الرئيسية الأولى • وحاول ديكارت مستخدما مجموعة من الاستدلالات المنطقية أن يثبت كافة الافكار الأخرى ، بما في ذلك فكرة الله ، معتمدا على يقين البرهان الرياضي •

وحتى في أعمال ديكارت واجهت محاولته من اجل التوصل الى بناء رشيد للفكر صعوبات تتعلق بفكرة العقل والمادة باعتبارهما جوهرين متميزين • فالعقل والمادة كلاهما يلتقي في الانسان ، حيث يؤثر كل منهما في الآخر ، ولكن اين يظهر هذا التفاعل ؟ وكيف يؤثر العقل في

الجسم دون ان ينطبع بطابع المادة؟ يرجع ديكارت هذا التفاعل الى الغدة الصنوبرية . والتي وصفها علماء الفسيولوجيا في عصره ولكنهم عجزوا عن تفسير وظائفها ، كما افترض ديكارت أيضا وجود ارواح حيوانية وتقوم باحداث تفاعل متبادل بين العقل والجسم . ولقد كانت الوظائف التي حددها ديكارت للغدة الصنوبرية وللارواح الحيوانية وظائف وهمية فشلت في اقناع اي من مفكري عصره . على ان مدرسة فلسفية اخرى يطلق عليها اسم مدرسة المناسبات حاولت ايجاد مخرج لما وقع فيه ديكارت عن طريق الزعم بأن التفاعل بين العقل والمادة منعدم تماما ، ولكن ثمة توافق مسبق بينهما كما لو كان هناك تفاعل بينهما . اما سبب هذا التوافق المسبق فهو الله ، والمثال الذي يقربنا من هذه الفكرة هو مثال ساعتين سبق ضبطهما ، فا ن الساعة الاولى تتوافق وتتزامن مع الساعة الثانية ، كما لو ان هناك تفاعلا بينهما . ومع ان هذه النظرية هي الاخرى لم تكن مقنعة كذلك ، الا انها افلحت في اكتشاف وظيفة لله في عالم يتجه بقوة نحو الآلية .

ولقد حاولت الفلسفة الحديثة من ديكارت الى كانط ان تطور نسقا عقليا موحدا للفكر الانساني محتفظة في الوقت ذاته بمفهومي العقل والمادة باعتبارهما جوهرين كليين متميزين . ولقد شكلت فلسفة هيوم Hume الشكية حجر عثرة في سبيل قيام هذا النسق حينما رفض هيوم فكرة الجوهر، اذ حينئذ لم يبق امامنا سوى محاولة كانط التأليفية، حيث عدّد كانط ثلاثة مجالات يمكن فيها اصدار الاحكام العامة هي : عالم العلم (أي دراسة الاحداث الامبريقية) والأخلاق وعالم الذات ، ثم عالم الدين . وجوهر العقلانية عنده هي القدرة على اصدار احكام عامة، ويحدث التناقض حين نصدر الاحكام في مجال غير مجالها . ويذهب كانط الي ان عالم الظواهر الامبيريقية ينظمه مبدأ العلية الآلية ، أما عالم

الاخلاق فينظمه مبدأ الحرية ٠ واذا ما تساءلنا عن كيفية حدوث التفاعل والتأليف بين هذه المجالات ، سندرك على الفور في التحليل النهائي انها لا تتفاعل ، وأن الكانطية قد اضحت هي الأخرى ضربا من نظرية المناسبات ٠ ومع ذلك فلقد صاغ كانط فلسفته صياغة محكمة بحيث اصبحت هي البداية الطبيعية لكافة تطورات الفلسفة الغربية منذ زمانه ٠

وبينما انشغل الفلاسفة بمشكلة العقل والجسم ، نجد ان معظم الباحثين والعلماء قد حددوا مجالات معينة تحديدا مطلقا باعتبارها تنتمي اساسا الى نطاق العقل ، ومجالات اخرى بوصفها ترتبط بالمادة٠ فدراسة مختلف مقولات الثقافة (كالادب والفن والموسيقى) تنتمي الى العقل ، اما دراسة الخصائص الطبيعية والكيميائية للاشياء او دراسة سطح الارض فهي تنتمي الى عالم المادة ٠ ودراسة التاريخ الانساني تتعلق بخبرة الانسان وتنتمي الى العقل ، بينما تنتمي دراسة الفسيولوجيا الى المادة ٠ واحيانا ما تختلط هذه المجالات ببعضها ، ومن ثم يسعى العلم الى تخطي الفجوة بينهما ، لكن عادة ما ينتمي كل مجال الى فرع محدد للعلم اما طبيعي واما انساني ٠ وكل مجال عليه ان يبحث المناهج الملائمة لدراساته دون ان يلتفت غالبا الى المناهج والاجراءات التي تستخدم في مجال آخر ٠ وهكذا انصرف المتخصصون تخصصا ضيقا الى تطوير مناهجهم ودراساتهم الخاصة متجاهلين تلك الثنائية الشهيرة بين العقل والمادة ، ولكن حينما ننتقل الى مستوى التنظير وصياغة الاطر التفسيرية العامة التي ترتبط التخصصات بعضها ببعض وفقها فاننا نواجه بتلك الثنائية بالضرورة ٠

على ان التغيرات التي شهدها القرن التاسع عشر وعلى الاخص تلك التي طرأت على الموقف الفكري السائد ادت الى انتقال مشكلات

العقل والمادة خارج نطاق الفلسفة ، فلقد ظهرت الانظمة القومية الحديثة وتحددت معالم الاتجاهات نحو الديمقراطية والاشتراكيـة ، واخـذت الجامعات تعيد صياغة برامجها وفقا للمتطلبات القومية ، واصبح الوضع مهيئا لكي تغزو مناهج واجراءات العلم الطبيعي ميدان الانسانيات ، بعد ان اكتسبت العلوم هيبة عالية في ذلك الوقت واسهمـت فـي تأسيس الاقتصاد الرأسمالي الحديث •

ومن اهم النتائج الثقافية للتغير الفكري فـي القـرن التاسع عشر ظهور العلوم الاجتماعية في العالم الغربي ، تلـك التي ظهـرت ظهـورا متتابعا سريعا من اهمها الانتروبولوجيا والاقتصاد والجغرافيا وفلسفـة القانون والعلوم السياسية وعلم النفس وعلم الاجتماع • ولقـد نشأت هذه العلوم اساسا في إطار الانسانيات ، وكانت المناهج التـي اعتمدت عليها خلال مرحلة النشأة الاولى هي مناهج لغوية وتاريخية استبطانية في الغالب الاعم • ثم ما لبثت هذه العلوم ان تأثرت بالتقوم الهائل للعلـوم الطبيعية نتيجة لتبني الاتجاه الوضعي والاعتماد على التجربة والتجريب• وهكذا طالب اوجيست كونت في اطار علم الاجتماع بضرورة استخدام مناهج تلك العلوم في دراسة الظواهر الاجتماعية (اي في عالم العقل)، ولقد رفضت الوضعية كما صاغها كونـت فـي فرنسا وهربرت سبنسر وجون ستورات مل في انجلترا وهي التي كانت تقوم بتحليـل الاحداث الانسانية تحليلا تجريبيا خالصا، ومن ثم هجرت تماما كافة المفاهيم الدالة على افكار داخلية ، او ماهيات ، او مبادىء ترانسنتدالية تجاوز الواقع وتتسامى عليه ، مدعية ان المناهج الملائمة لدراسة الظواهر الاجتماعيـة هي تلك التي تتبناها العلوم الطبيعية والتي ترتكز علـى مفاهيم مثـل التتابع والتساوق والسبب والنتيجة ، ومثل هذه المفاهيم هي التيتساعد

العلماء في اقامة قوانين التطور الاجتماعي والتنظيم الاجتماعي. وهكذا، طالب جون استيوارت مل (١٨٣٤) بتأسيس علم الاجتماع على علم نفس علمي مشتق من الفسيولوجيا ومدعم باجراءات العلوم الطبيعية. وترجع اصول الاتجاه الوضعي الى اعمال فرنسيس بيكون Bccon وأصحاب المذهب التجريبي في انجلترا وبخاصة ديفيد هيوم واصحاب الاتجاه النفعي .

لكن الوضعية في العلوم الاجتماعية خضعت لانتقادات عديدة، اهمها تلك التي اثارها المثاليون المحدثون والكانطيون المحدثون، وارتكز نقدهما على الحقيقة التي مؤداها ان الوضعية قد ردت العقل الى المادة. وحاول الاتجاهان الجديدان ان يحتفظا للعقل بمكانه كموضوع لعلوم الخبرة ، لكن المثالية المحدثة حاولت تحقيق ذلك من خلال التفرقة بين موضوعين للدراسة ، اما الكانطية المحدثة فقد وضعت بعض التمييزات المنهجية . وهكذا اصبحت طريقة الفهم تشير الى مضمونين مختلفين عند كل منهما، فعند المثاليين المحدثين يصبح الفهم فعلا عقليا ينتقل من الادراك المباشر للمعاني الكامنة في خبرة شخص ما خلال الفهم التعاطفي للاخرين وباستخدام مفاهيم نموذجية الى فهم عام للخبرة الانسانية برمتها . أما الكانطيون المحدثون فهم يحددن الفهم في العلوم الاجتماعية بوصفه يتألف من عزل المقولات الصورية للقيمة عزلا يمكننا من القول بجدوى آحاد الناس في تحريك التاريخ، والقول كذلك بالتغير الحاسم الذي تخضع له هذه المقولات في اطار مركبات تطورية معقدة غير متجانسة .

وعموما ، فاننا خلال تاريخ علم الاجتماع نستطيع ان نفرق بين الوضعيين وبين الذين رفضوا الوضعية من خلال معرفة مدى قبولهم او رفضهم للفهم كمنهج للدراسة . فمؤسس علم الاجتماع كونت، وجون

استيوارت مل وسبنسر ولستر وارد كانوا وضعيين الى درجة تقل او تكبر أما التيار المضاد للوضعية والذي تبنى طريقة الفهم فقد ظهر في اعمال جورج زيمل والفرد فيركاندت • وتابع دوركايم التقليد الوضعي، على حين تأثر ماكس فيبر تأثرا هائلا بسنهج الفهم عند دلتاي وبطريقة التحقق الواقعي من المغزى التاريخي عند ريكرت ، وتجلت هذه الثنائية بوضوح في اعماله المنهجية ودراساته التحليلية •

وظهرت قضية الفهم في علم الاجتماع الامريكي بصفة خاصة — وعلى سبيل المثال لا الحصر — في اعمال تشارلز كولي Cooley (١٨٩٤ — ١٩٢٩) وفلوريان زنانيكي Znaniecki (١٩٣٤) ، وروبرت ماكيفر Maciver (١٩٤٢) ، وبيتريم سوروكين Sorokin • ولقد كان مؤلف بارسونز Parsons الاساس الاول : بناء الفعل الاجتماعي (١٩٣٧) يعبر عن اتجاه مضاد للوضعية حيث تأثر تأثرا شديدا بقضية الفهم • وخلال هذه الفترة ذاتها ظهرت اعمال جورج لندبرج Lundberg التي عبرت عن نزعة وضعية جديدة • وطور تيودور آبل Abel (١٩٤٨) وضعية راقية غير تقليدية حين تعرض لنقد عملية الفهم مطالبا باكسابها مزيدا من الدقة المنهجية •

وخلال الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية طالب رايت ميلز C. Wright Mills بهجر دعاوى العلوم الطبيعية من اجل صياغة مفهوم للعلوم الاجتماعية يشبه الى حد كبير مفهوم الكانطيين المحدثين• وقام فيرند ستارك W. Stark (١٩٥٨) بمحاولة لتبني مدخل الفهم واحياء الكانطية المحدثة في دراسته لعالم الاجتماع المعرفي • ولقد ادى ذلك كله الى ظهور طائفة من شباب العلماء الاجتماعيين الذين اعتبروا

انفسهم دعاة علم اجتماع جديد على نموذج علم الاجتماع الذي صاغه رايت ميلز ، والقضية التي يثيرها هذا العلم الجديد في رأيهم تتمثل في ان مشكلة العقل والمادة لا تزال مشكلة حاسمة في علم الاجتماع خلال منتصف القرن الحالي ، وان طريقة الفهم طريقة ستظل ملائمة تماما لعلم الاجتماع .

● ● ● ●

وبايجاز ، فان قضية الفهم والمعنى والمشكلات المتصلة بها سوف تظل قائمة ما دامت مشكلة ثنائية العقل والمادة تشغل حيزا من التفكير الغربي، وحتى اذا ظهرت تيارات جديدة متعارضة مع هذه الفكرة، فانها لن تزول ، ولكنها تختفي فحسب الى حين ثم تعاود الظهور مرة اخرى. والكتاب الذي يسعدنا ان نقدمه للقارىء العربي بعد ان قمنا بترجمته عن الاصل الانجليزي يختص بمعالجة هذه القضية . فالعنوان الاصلي للكتاب هو : الفهم والدراسات الانسانية ، ويسعى مؤلفه الاستاذ ريكمان الى عرض وجهة نظر فلسفية تعد بمثابة منهج ملائم للدراسات الانسانية . والكتاب رغم صغر حجمه الا انه يفيد القارىء العام والمتخصص في انه يجعله على ألفة بالفلسفة حين تسهم اسهاما اصيلا في تدعيم مفاهيم الدراسات الانسانية ومناهجها . كما انه يجيء في وقت ملائم تماما انتشرت فيه نزعة تدعو الى التخصص المحدود في مجال العلوم الاجتماعية من جهة ، والى المطالبة بضرورة تبني مناهج العلوم الطبيعية من جهة اخرى ، ومع ان التخصص أمر ضروري في أي فرع من فروع المعرفة ، كما ان الدقة والإحكام مطلبان ضروريان لسلامة المنهج ، الا ان خطورة هذه النزعة تتجلى عند التطرف فيها ، فيكون التخصص على حساب التكامل الموضوعي ، وتكون الدقة مجرد مظهر خادع لا يجعلنا ننفذ الى لب الظاهرة الانسانية ومغزاها .

والمؤلف الاستاذ ريكمان H . P . Rickman بجامعة لندن وكليــــة اكسفورد الجديدة قام بتدريس الفلسفة وعلم النفس بجامعتي هل Hull وسيتــي City ، وقد تخصص في دراسة فلسفة فلهلم دلتاي ، والف فيها كتابا بعنوان : المعنى فــي التاريــخ Meaning in History وعدد من المقالات الاخرى • والقضية الرئيسية التي يهتم بها الاستـاذ ريكمان في مؤلفاته هي دور الفلسفة فــي توضيــح اسس الــدراسات الاجتماعية •

وانا نأمل ان يسد هذا الكتاب ثغرة فــي الدراسات الانسانيــة بعامة ، وان يكون عونا للدارس في علم الاجتماع على فهــم قضايـــا المنهج والنظرية فهما يمكنه من دراسة الواقع الاجتماعي وتحليل ظواهره تحليلا متعمقا •

تصدير

بقلم

دونالد ماكرى

يعثر النشاط الفكري ، في اي لحظة من لحظات الزمان ، على تيارات ومصالح وعادات فكرية وبحثية هي بمثابة رواسب عن الماضي تعيش جنبا الى جنب مع يوجد من نظريات معاصرة بما لها من قوة وقبول. وباستطاعة البحث ان يكشف دائما عن عناصر ومداخل جديدة دون شك، بعضها يبقى ويزدهر ، وبعضها يندثر بسرعة فائقة . ومن المؤكد ان الاتجاه الذي يطلق عليه الدكتور ريكمان مصطلح الدراسات الانسانية ــ والذي يضم التاريخ، وعلم الاجتماع، والانثروبولوجيا وعلم النفس ــ هو احد الاتجاهات التي تسعى الى صياغة تفسير انساني ذاتي ، فلسفي ، تأملي، كيفي ، ومن ثم فهو يقف مواجها لتلك التفسيرات السلوكية والكمية والوضعية . وهو يتناول كل ما تعلق بالانشطة الرمزية ، وكل ما ينطوي على دلالة في خبرتنا الشخصية والاجتماعية والتاريخية . ولنا ان نتوقع الا يقف طالب الدراسات الانسانية عند هذا الحد ، بل سيجد نفسه امام اسلوب مثمر للتجديد، وطريقة ناجحة في البحث، ومنهجية بالغة الاحكام

ــ حتى وان بدت غير محسوسة ــ الا انهـا تعبر عـن مدخل من بيـن مداخل اخرى عديدة ، ولن تبهره ايضا اضواء العلم حيـن تتجلى فـي تطبيق مناهج العلوم الطبيعية على دراسة الانسان والمجتمع • انه سيجد العديد من المؤلفين ممن حققوا هيبة عالية يدعمون عنده ذلك الانطباع، وهم بالطبع مؤلفون انطلقوا بميتافيزيقاهم بعيدا عن الآفاق المحـدودة للإتجاه المسيطر •

هنا استطيع ان اجد تبريرا قويا لمقال الدكتور ريكمان ، فالاتجـاه العلمي في علوم الانسان ــ واقصد بالنزعة العلمية في هذا الصدد محاولة احتذاء نموذج العلوم الطبيعية ، كما يتبدى ذلك في الاتجـاه الآلـي الكلاسيكي الذي اعتبر نفسه انموذجا لما ينبغي ان تكون عليه العلوم ــ هو في الحقيقة مطاب فلسفي • اما ما يهتم به الدكتور ريكمان فهو يمثل مسألة فلسفية بالغة الاهمية • وانني اعتقد ان عرضه لهذه المسألة جـاء عرضا استثنائيا في وضوحه ، وعمقه ، واكتماله • لقد حاول ان يبين ان معرفة الدراسات الانسانية هي في جوهرها مختلفة عن معرفـة العلـوم الطبيعية نظرا لطبيعتنا البشرية الخالصة • وهكذا ، فإنه يتعين ان تختلف تلك الدراسات هي الاخرى عن العلوم الطبيعية في جوانب عدة اهمهـا المفاهيم والافتراضات ، وهو لا يلجأ الى استبعاد طرق البحث الاجتماعي الدقيقة الاخرى، بل انه يعتقد ان الدراسة الكمية للسلوك سوف تستعيد قيمتها حينما تتبنى وجهة نظره • على ان هذه البحوث لن تستأثر بالميدان برمته ، فتمثل وحدها كل ما هو ممكن ، ونافع ودقيق في علم الاجتماع والموضوعات المتصلة به •

اما اهمية تلك الفكرة فتعود الى اسباب كثيرة ، فالمسائل الفلسفية المتعلقة بالابستمولوجيا ومنطق العلوم الاجتماعية ومكانة التقويم فـي

هذه العلوم ؛ تطرح على بساط البحث من جديد باهتمام بالغ . ويستطيع الدارس او القارىء ان يعدد الاعمال الهامة في هذا الميدان ، نذكر منها اعمال الاستاذ برنشتاين Bernstein في علم الاجتماع اللغوي ، والاستاذ جوفمان Goffman في دراسة محتوى الادوار والعلاقات حين يركز عليها في ذاتها (او كما يقال غالبا الفينومينولوجيا) . والدكتور مارتن Martin عن الدين والموسيقى ، والاستاذ آنبرت Anbert عن الكليات الانسانية كالحب والنوم .. الخ ، او قد يقرأ مولف سارتر Sartre نقد العقل الجدلي ويدهش عن كونه يعد علم اجتماع . وربما يطرح نفس التساؤل بصدد اعمال فرافز فانون Franz Fanon في مجال السياسة وعلم النفس الاجتماعي الموجهة اساسا ضد الامبريالية . ان الدارس يعجز عن تناول هذه الاعمال وتقويمها بدون فهم المواقف الفلسفية وتقديرها ، وهو قد يختلف مع هذه الاعمال الى الدرجة التي اختلف فيها شخصيا مع فانون ، لكن ذلك ليس لب المسألة . ان اهم ما في الموضوع هو ذلك الوضوح التام الذي يغلف عملية الفهم كما عرضها الدكتور ريكمان .

غير ان هذه المشكلة في ذاتها ليست جديدة ، فقد وفدت الينا من خلال كانت Kant ومن خلال الفلسفة التاريخية الثقافية عند فلهلم ديلتاي Dilthey ، ـ ولقد قدم الدكتور ريكمان مختارات رائعة من مؤلفه المعنى في التاريخ ـ لكن المشكلة محورية في فهمنا لاعمال ماكس فيبر الذي اعتبره ثاني او ثالث مؤسس لعلم الاجتماع . وببساطة شديدة ، فاذا لم نفهم ما سيعرضه هذا الكتاب سنعجز تماما عن فهم اعمال فيبر . وبنفس البساطة ايضا يبدو ان معظم الذين عرضوا كتابات ماكس فيبر لم يتحملوا عناء هذا العمل .

هكذا ، اعتقد ان هذا الكتاب الصغير الحجم مفتاح للكثير مما لا يزال هاما ومبهما في تاريخ علم الاجتماع، كما انه مفتاح ايضا لما يحتل نفس الاهمية في مرحلته الراهنة والمستقبلة • فبهذا المفتاح ، كما اوضح الدكتور ريكمان نستطيع ان نفتح ما استغلق من ابواب الدراسات الانسانية بمختلف فروعها، ونبين ان اقتران هذه الدراسات لم يكن امرا تعسفيا • وسيجد الطالب هنا قناعة اولية بأن الفلسفة ، لافى جانبها الابستمولجي فحسب ، ضرورية تماما للمعرفة وللنقد في ذلك الحقل السريع النمو للدراسات الاجتماعية • كما يتعلم ايضا الحرية والثقة بالنسبة للمصادر والشواهد السوسيولوجية ، وتدعمه في ذلك دعما قويا كتابات الفلاسفة من امثال هومر Homer وكيركيجارد Kierkegard ومؤرخي السير الذاتية ، والفنانين ، وعلماء الانثروبولوجيا الاجتماعية ، ولن يكون هذا التدعيم اقل قوة من ذلك الذي يجده في المسوح ودراسات الرأي العام ودراسات الحالة •

لكن ذلك كله لا يعني انني اوافق تماما على كل ما ورد في هذا الكتاب ، فانني لست مقتنعا تماما بمعالجة الدكتور ريكمان للقيم • واذا اقتبست تشبيها من ستيف سميث استطيع أن اقول بان الصعوبة التي تواجهني تفوق تلك الصعوبة التي واجهت الدكتور ريكمان لكي اتأكد من ان من يلوح من البحر ليس بغريق ••• ذلك ان التفسير في علم الاجتماع مسألة تثير في نفسي القلق ، وعندي الكثير من المشكلات العامة، لكنني اشعر بكل تأكيد بان القارىء المتعمق لهذا الكتاب سيكون اكثر حساسية وقدرة على الخيال ، بل سيكون باحثا اجتماعيا ناقدا حينما ينتهي من مطالعة كتاب الدكتور ريكمان •

دونالد ماكري

مقدمـــة المؤلف

من الأهمية بمكان ان نفهم العالم الانساني ، وأن نجعل الدراسات التي تتناول الانسان على أعلى درجة من الكفاءة ، وتزداد هذه الأهميـة اليوم أكبر مما مضى ، فلقد ترتب على الانفجـار السكانـي وتطـور التكنولوجيا الحديثة المزيد من التعقيد في حياتنا • اننا يجب ان نتوافق مع الحياة في مجتمعات كبيرة ، ومدن مكتظة بالسكان وعمل في منظمات كبرى • ولم يعد من الممكن ايضا ، كما هو الشأن في القرى والمصانـع الصغيرة ، ان تؤسس الادارة وعلاقات العمل على معرفتنـا الشخصيـة بالناس الذين تتعامل معهم • ويتعين كذلك اعادة تكييف ظروف العمـل بحيث يستطيع الناس التعامل مع الآلات المعقدة •

وهكذا ، فنحن بحاجة الى خبراء فنيين في فهم الناس ومشكلاتهم، وقادرين على مساعدة الفرد في علاقاته بالمجتمع ويشمل ذلـك المديرون وعلماء النفس الاجتماعي والصناعي والتربوي (حديثا) وعلماء الجريمة• ولقد ادت هذه الحاجة الى التوسع السريع في الدراسات الانسانية خلال الحقبات القليلة الماضية ، فأنشئت اقسـام الاجتمـاع فـي الجامعـات البريطانية ، واصبح علماء الاجتماع يقدمون المشورة في مجالات عديدة

مثل تخطيط المدن والادارة الاجتماعية . ويجري تدريب الاخصائيين النفسيين على اختيار العمالة في المصانع وفي اقسام التربية والخدمة الاجتماعية . كما تطورت دراسات الادارة استجابة لحاجات الصناعة . وهناك طائفة كبيرة من البحوث تجرى الان في هذه الميادين وغيرها .

ولقد حققنا تقدما ملحوظا في هذا المجال ، لكن علينا ان نواجه بسرعة فائقة تلك الحقيقة التي مؤداها، ان الكثير من المشكلات الرئيسية في الحياة الجماعية والتكيف مع الظروف لم تحسم بعد . فلا تزال تواجهنا مشكلات ارتفاع معدلات الجريمة ، والتعصب العنصري ، والمرض العقلي . ومن الضروري ،اذن ، ألا يتضمن مدخلنا للدراسات الانسانية اي نقطة ضعف .

ومن بين اهم نقاط الضعف ذلك التخصص الضيق الذي يؤدي الى تفتيت الدراسات الانسانية . فمعظم البحوث الاكاديمية يقوم بها شباب الباحثين من ذوي الخبرة المحدودة ، والذين لا يسمح وقتهم بالقراءات الواسعة . وهم يسعون الى تجنب الاخطاء وتحقيق اعلى درجة من الاعتراف الاكاديمي في الوقت ذاته ، وهذا يتطلب اختيار موضوعات للبحث محددة تحديدا ضيقا ، وان يكون البحث في اطار تخصص الأستاذ . وهنا يبدو أن الأهم بالنسبة اليهم هو الا يتعرضوا للنقد على حساب ما يمكن ان يتوصلوا اليه من نتائج مثمرة. ويميل البحث التطبيقي ايضا الى ان يكون ضيق النطاق بحيث ينصب على ما يظهر من مشكلات وقتية . وهكذا ، جاءت نتائج هذه البحوث دون المستوى الذي يمكن ان يسهم في تحقيق بناء متماسك من المعرفة.

ان الانسان لا يفهم الا من حيث كونه انسانا ، وهذا في حد ذاته عمل بالغ التعقيد . اما اذا اتسم مدخلنا للدراسة بضيق نطاقه فلن نستطيع إلا ان نفهم جزءا يسيرا من المسائل البالغة التعقيد، ومن ثم يجب

ان يكون هناك تعاون اوثق بين مختلف مداخل الدراسة ، وبين مختلف التخصصات ايضا ، فمن المؤسف مثلا الا يتعاون علماء النفس التحليلي مع علماء النفس التجريبي والا تكون بينهم لغة مشتركة وبالمثل انه من غير المستحب الا تعرض نظريات علم النفس عرضا مفهوما — دعنا نفترض — للمؤرخ بحيث يستطيع الافادة منها .

ان التخصص امر ضروري نتيجة للتزايد المستمر في المعرفة ، فنحن لا نتوقع ان يوجد عالم اجتماعي يحيط علما بعدد كبير من العلوم ، او حتى بكافة جوانب علم واحد . لكن عليه ان يفهم وضع دراساته ووظائفها في اطار بناء الدراسات الانسانية . واذا ما جاز لنا ان ننظر الى هذه الدراسات بوصفها تمثل كلا متماسكا يتألف من معرفة الافراد والجماعات ، فيجب ان نوقن بأن لهذه العلوم مناهج رئيسية مشتركة ويمكنها ان تستعين بنفس المفاهيم ايضا ، ومن الضروري كذلك الكشف عن كيفية ارتباط الجوانب المختلفة للمشكلات الملموسة بعضها ببعض حيث نكون على وعي حين ينتهي عمل متخصص معين ويبدأ عمل متخصص آخر (فالجريمة على سبيل المثال لها جذورها الاقتصادية والنفسية والتاريخية والسوسيولوجية ويجب دراستها من هذه الجوانب جميعا . كما يجب التنسيق بين مختلف المداخل) .

وليس من شك ان مهمة تحديد مجالات الدراسة والتنسيق بين مجموعة العلوم المتداخلة سوف تصبح سهلة يسيرة حينما نضع نظرية فلسفية كأساس لهذه الدراسات . فما هي هذه النظرية ؟ وماذا يترتب عليها من فوائد ؟

هناك تعريفات عديدة للفلسفة ، ولقد استخدمت كلمة الفلسفة للاشارة الى طائفة متنوعة من الانشطة الفكرية ، فلقد تأمل الفلاسفة —

على سبيل المثال ـ الطبيعة المطلقة للواقع ، وصوروا المطامح الاخلاقية للعصر • وهنا ينصب اهتمامنا على تلك الانشطة الفكرية التي تشغل حيزا كبيرا من أعمال الفلاسفة الا وهي البحث في طبيعة المعرفة •

وحينما نسعى الى الاجابة على التساؤل الذي مؤداه ، كيف نعرف العالم ونصوره لأنفسنا ؟ سنجد ان الابستمولوجيا (نظرية المعرفة) تعني بعض المهام المرتبطة في هذا الصدد ، فعليها بداءة ان توضح المبادىء والافتراضات المسبقة التي تنطوي عليها عملية معرفة شيء ما ، ثم تبين بعد ذلك كيف تختلف هذه المبادىء باختلاف موضوع البحث • وعن هذه القضية الخاصة بمناهج الدراسة تنبع المهمة الثالثة ، اذ يتعين على نظرية المعرفة ان تقدم فحصا نقديا للمفاهيم العامة التي تستخدمها في الاشارة القائمة من جهة ، وبتطويرها او استبدالها بمفاهيم اخرى تكشف الواقع بكفاءة اكثر من جهة اخرى، واخيرا لا بد ان تربط الابستمولوجيا بين مختلف المفاهيم الرئيسية بطريقة منظمة •

ومن الضروري ان ينطبق هذا النوع من البحث على دراسة الانسان (اي على الدراسات الانسانية) ، ذلك أن النتيجة التي يخلص اليها اي بحث تتلون بالمفاهيم التي تستخدمها ، والافتراضات التي نفترضها ، بل ان ما نطلق عليه مصطلح الواقعة Fact ، ونجعل منه نقطة بداية لبحثنا ، يتحدد على أساس ما نستعين به من مصطلحات وافتراضات• فقولنا ان جون غاضب ، او بريطانيا دولة ديمقراطية هي عبارات تشير الى وقائع مختلفة تماما عن تلك التي تشير اليها عبارة الزرع اخضر ، كما اننا نكتشف تلك الوقائع بطرق مختلفة • وعلينا ، على اية حال ، ان نقدم تبريرا لما نصفه بأنه يمثل واقعة وان نفسر ما نعنيه بها ، وعلينا كذلك ان نوضح شروط اقتناعنا بمواجهة تلك الوقائع •

غير ان الحقيقة السابقة لم تكن دائما موضع موافقة عامة ، فبعض الناس يعتقدون اننا لسنا بحاجة الى التدليل على هذه الجوانب من النظرية ، لاننا عادة ما نتخطى هذه الافتراضات في بحوثنا . فالوقائع في مواجهتنا ، وهي تتحدث عن نفسها . وفي اعتقادي ان هذه النظرة العامة الساذجة وهم باطل . فالذين يتبنون تلك النظرة ليسوا على وعي بافتراضاتهم ، ومن ثم لايدرسونها ، ويترتب على ذلك استخدام مناهج خاطئة ، والتوصل الى نتائج غير ملائمة ، فضلا عن مخاطر تلك النزعة الفلسفية الساذجة ، وفي ذلك كله ما يبرر أهمية البحث النظري .

وثمة سبب اخر يختلف تماما عن السبب السابق يبرر أهمية التنظير الفلسفي . فليست الغاية هي ان يستيقظ الناس من ثباتهم عن النظرية نتيجة قرع طبول الفلسفة ، ذلك ان الكثير من العلماء الاجتماعيين لديهم معتقدات نظرية راسخة ، لكن بعض هذه المعتقدات بحاجة الى النقد، وبعضها يعاني من اخطاء ظاهرة . بل ان كثيرا من النظريات يتبنى نظرة احادية في التفسير ، مما يفسد مسار البحث في الميدان . واعتقد ان الوضعية هي من بين تلك النظريات التي توجهنا توجيها خاطئا ولقد ادت في ميدان كعلم النفس الى ظهور النزعة السلوكية. وانني آمل ان أتمكن من الكشف عما تعاني منه هذه النظرية من افتراضات تعسفية ، مما جعلها تهمل جوانب مثمرة جدا للبحث ، ويجب ان نناقش تلك المسألة في ضوء نظرية المعرفة .

ان النظرية الفلسفية للدراسات الانسانية التي طورتها في هذا الكتاب ترجع اصولها الى فلهلم دلتاي ، فلقد حاولت تأسيسا على معالجته للفهم والمعاني والتعبيرات ومناقشته لمقولات الحياة ــ حاولت ــ ان أقدم نظرية متكاملة سوف تسهم في حل مشكلات اشرت اليها بالفعل ، وذات

قيمة عالية لدارسي مختلف العلوم الاجتماعية لأنها تكشف عن طبيعة العلاقة بين هذه العلوم •

ويعد مصطلح الفهم تصورا رئيسيا في هذه النظرية ، واعني به تلك العملية المعرفية التي تتعرف من خلالها على افكار ومشاعر ومطامح الكائنات الانسانية الاخرى • ذلك هو المعنى الذي نقصده من مصطلح الفهم في استخدامنا العادي حينما تتحدث عن فهمنا لصراخ الطفل ، او لسياسة حزب العمل ، غير ان الاستخدام العام للمصطلح أوسع من ذلك ، فنحن نتحدث عن فهمنا لآلية السيارة وللتفاعلات الكيميائية • وتعريفنا للمصطلح يستبعد هذا المعنى الواسع ، ذلك لان هذا الكتاب لا يتعلق بالعمليات الفكرية عموما ، ولكنه بالتحديد يتناول الاستبصار في العالم الانساني • واعتقد ان الفهم على هذا النحو يختلف عن فهمنا للعمليات الطبيعية ، وان استخدامه بهذه الطريقة يميز الدراسات الانسانية عن العلوم الطبيعية •

والفهم مألوف لدينا منذ نعومة أظفارنا ، فهو جزء من حياتنا اليومية، وهو يعيننا على متابعة ما يلقي الينا توجيهات بالكلمة او بالاشارة ، كما أنه سبيلنا الى فهم قصيدة الشعر التي تقرأ ، أو ادراك غضب شخص ما • ولما كان الفهم مألوفا الى هذا الحد أهملناه وقللنا من قيمته ، ومع ذلك فحينما نسعى الى فهم شخصية ما ، او تيار سائد في عصر معين ، او ثقافة قبيلة ، او اسباب الانحراف نلجأ الى نفس العملية • لكنها ليست عملية بسيطة ، أن علينا أن نستخدم الفهم في جمع وتصنيف ومقارنة الشواهد وفي استخراج النتائج والتثبت من صحتها • هنالك اذن امران يستحقان التفسير هما : كيف يمكن تحقيق الفهم ، وكيف يمكن استخدامه بكفاءة في البحث ؟

وتنبع ضرورة الفهم كمدخل متميز لدراسة الكائنات الانسانية من حقيقة أن العالم الانساني مفعم بالمعاني بصورة لا تتحقق في العالم الطبيعي . ولا يعني ذلك ان هناك خطة شاملة او تصميما عاما للحياة الانسانية ، ولكنه يعني ان السلوك الانساني مصحوب بالوعي ومدعم بالاهداف ، وانها تنشأ عن تفسير المواقف والاعتراف بالقيم . فوراء الشخصية التاريخية ، والرقصات الطقسية للقبيلة البدائية ، وممارسات رجال النقابات او رعشات العصابيين ، وراء ذلك كله تكمن أفكار ومعتقدات ومشاعر تكسب السلوك معناه . ومهمة المؤرخ وعالم الاجتماع والانثربولوجي الاجتماعي وعالم النفس لا تقف عند وصف هذا السلوك، وانما عليهم أيضا أن يكتشفوا ذلك المعنى من خلال عملية الفهم . ويعتمد ذلك الى حد كبير على خبرتنا الخاصة بكيفية تأثير هذه المشاعر والافكار في السلوك . وهنا يصبح للدراسات الانسانية فضل كبير يفوق فضل العلوم الطبيعية . فحينما نلاحظ عملية كيميائية نستطيع فقط ان نشير الى تتابع الحوادث دون ان يكون لدينا استبصار مباشر حول كيفية ارتباطها . ومن ثم لا نخلص الا الى بناءات فرضية .

وثمة مفهوم رئيسي ثالث الى جانب الفهم والمعنى هو مفهوم **التعبير** Expression يحتاج الى ان نفسره . والتعبيرات هي المظاهر الفيزيقية للنشاط البشري والتي يدرسها الفهم . اذ برغم انها وقائع فيزيقية او احداث ، الا أن التعبيرات تتميز عن الوقائع المعتادة والاحداث بما تنطوي عليه من دلالة للعمليات العقلية. فالتنفس في ذاته ليس تعبيرا، ولكن التقاط المرء انفاسه عقب صدمة مفاجئة هو كذلك. والحجرة ليست تعبيرا ، ولكنها حين تستخدم في تمييز الحدود تعد تعبيرا . ويشمل المصطلح كافة الوسائل الاعتقادية للاتصال من الكلمات الى علامات

الطريق ، فضلا عن قسمات الوجه التي تكشف عن المشاعر والانفعال لانها توضح ما يكمن خلفها من اغراض . ان نتاج العمل الانساني ـ الآلات والابنية ـ هي تعبيرات الى الحد الذي تكشف فيه عن مسار الجهود والافكار البشرية . وهكذا ، تكون جملة التعبيرات هي الموضوع الامبيريقي للدراسات الانسانية .

وتكشف هذه التعبيرات عن نفسها في صور مختلفة تحتاج الى مداخل متباينة ، ومن ثم فان تصنيف التعبيرات يفتح آفاق المناهج في الدراسات الانسانية ، ويلقي ضوءا على طبيعة التخصص ، لانه يساعدنا في اعادة فحص التساؤل الذي مؤداه كيف تقتسم مختلف العلوم مجال الحياة البشرية فيما بينها

وحينما نطرح التساؤل الخاص بكيفية فهمنا للتعبيرات نصل الى مفهوم السياق Context ؛ فكافة التعبيرات تظهر داخل سياق ، ولا نفهم الا من خلاله . بعبارة اخرى ترتبط التعبيرات فيما بينها لانها نابعة عن شخص واحد ، او لان بينها وجه شبه كبير ، او لما تحققه من هدف مشترك .. الخ .

وتعريف هذه السياقات وتصنيفها يلقي مزيدا من الضوء على المسائل المنهجية ويساعد في تحديد موضوع مختلف العلوم . فقد نطرح على سبيل المثال تساؤلين مختلفين حول شراء الناس للسيارات هما : لماذا يفعلون ذلك ؟ وكيف يؤثر ذلك في مشكلات الطرق ؟ ونحن بذلك نكون قد وضعنا السلوك في سياقين مختلفين ، وبالتالي نحتاج الى مناهج مختلفة للاجابة على التساؤلين مما قد يستدعي الاستعانة بعلمين مختلفين.

وتعد الحقيقة القائلة بأن التعبيرات هي مراكز الاثارة في السياقات

المتعددة هي في حد ذاتها بالغة الاهمية • فحينما نستكشف سياقا معينـا يصبح من الضروري ان نكمل مدخلنا بتتبع سياقات اخرى كذلك • بهذه الطريقة نحقق العدالة بالنسبة لما ينطوي عليه تنوع ضروب الحياة مـن ثراء ، ونكشف عن التداخل بين مختلف فروع العلم ، ونتعرف على الطرق المنطقية للتعاون فيما بينها •

والزعم بأن للحياة الانسانية معناها، وان هذا المعنى يتخذ له تعبيرا، وأنه بامكاننا ان نفهمه حين نربط التعبيرات بالسياقات التي تظهر فيها ، تمثل جميعا حجر الاساس في النظرية التي أعرضها ، والتي اعتقد أنهـا بمثابة الاطار للدراسات الانسانية • واخيرا ، فان هذا اللون من التنظيـر سوف يثير مناقشات لمشكلات هامة

الفصل الأول

الدراسات الإنسانية والفلسفة

١ ـ مفهوم الدراسات الانسانية .

٢ ـ المدخل الفلسفي .

الفَصْل الأول

الدراسات الانسانية والفلسفة

١ ـ مفهوم الدراسات الانسانية .

لقد تقدمت ـ في مقدمة هذا الكتاب ـ بتعريف مبدئي للفهم understanding ، وأشرت الى أهمية الفهم بالنسبة الى الحياة العملية والى الدراسات المعنية بالانسان، ويجب علينا الان ان نعرّف الجزء الثاني من العنوان وهو المتعلق بالدراسات الانسانية . نحن نتمكن من الوصول الى ذلك التعريف باعداد قائمة ـ حتى وان كانت غير كاملة ـ للفروع والعلوم التي يغطيها مصطلح الدراسات الانسانية ، ويمكن ان تضم هذه القائمة : التاريخ ، وعلم النفس ، وعلم الاجتماع ، والانثروبولوجيا الاجتماعية ، والاقتصاد ، والفيلولوجيا ، والتشريع ، والدين المقارن ، وبعض المسائل ذات الموضوعات العامة مثل : الجريمة ، ونظرية الاتصال، والدراسات الادارية .

ان جمعنا لهذه الموضوعات تحت اسم واحد يفترض من ناحية أولى ان لها سمات مشتركة ، وانها ترتبط بالموضوعات التي تعالجها وبالمناهج التي تستخدمها ، كما انه يفترض من ناحية ثانية بأنها ككل

مجموعي يمكن ان تتميز عن كل مجموعي آخر من العلوم وهي تلك التي نسميها بالعلوم الطبيعية physical sciences • ومن هنا ندرك بأن تعريف الدراسات الانسانية يمكن أن يرتكز على ما بينها من اشتراك وعلى ما بينها وبين غيرها من اختلاف •

ان تطور واستقلال مجموعات العلوم ، وانقساماتها ، وتكوينها لانساق متفاوتة هي أمور حديثة العهد ، ومع ذلك فلقد شهدت العهود القديمة والوسطى انفصال واستقلال بعض الموضوعات مثل : التاريخ ، والطب ، والتشريع ، الا أن كثيرا من الابحاث التي جرت وراء فكرة « التخصص الضيق » كانت داخلة في اطار البحث الشمولي للمعرفة ، فلقد مر افلاطون مرورا متصلا من دائرة التأمل الميتافيزيقي الى الكوزمولوجيا الى نظريات المجتمع دون أية عثرات ، كما أن أعمال أرسطو في المنطق والسياسة وعلم النفس والبيولوجيا كانت جميعها اجزاء لبحث شمولي واحد، وحتى في عهد ديكارت وجاليليو لم ينظر الباحثون في أنفسهم على أنهم مجرد علماء فلك أو فيزيائيين أو كيمائيين أو رياضيين أو حتى فلاسفة ، لقد كان كل منهم يشعر شعورا عميقا بتلك الصلات الوثيقة التي تربط فيما بينهم •

ولقد شهد التطور التأملي للعلم فيما بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر نموا مستقلا لانساق علمية كالفيزياء والكيمياء والبيولوجيا والجيولوجيا وهي مزودة باطارات مرجعية واضحة كل الوضوح • وخلال هذه الفترة ذاتها بزغت فكرة المنهج العلمي بحيث أصبح لكل نسق مناهجه الخاصة به •

وكان لا بد ان ينتج عن هذا التطور الذي لحق بميدان العلوم الطبيعية تأملا جديدا لأسس الدراسات الانسانية • والواقع أن دراسة

الانسان قديمة قدم دراسة الطبيعة ، وفي خلال العصور الوسطى وعصر النهضة تشعبت الدراسات الانسانية الى اتجاهات متباينة ، وفيما بين عامي ١٧٥٠ و ١٨٥٠ م على وجه التحديد حدثت الثورة العلمية . فأصبح التاريخ اكثر علمية ، وابتعد عن الاتجاه الاخلاقي ، وظهر مبدأ الحتمية وارتبط بالوقائع ، وامتد هذا الى دوائر التاريخ الاجتماعي والاقتصادي، وظهرت علوم الاقتصاد والاجتماع والنفس والانثربولوجيا كعلوم مستقلة .

لقد نحت جون استيوارت مل مصطلح العلوم الاخلاقية Moral sciences الذي يقابله مصطلح Geisteswissen schaften في اللغة الالمانية لكي يدل به على تلك العلوم التي نمت نموا كبيرا في القرن التاسع عشر وتمايزت من مجموعة العلوم الطبيعية ، وهذا يعني ان دراسة الانسان تختلف عن دراسة الطبيعة Naturwissen schaften . ولقد أثار نحت هذا المصطلح ودلالاته الكثير من المناقشات المنهجية : منها السؤال التالي : الى أي مدى يمكن ان تحاكي العلوم الاخلاقية علوم الطبيعة الفائقة الدقة، والى أي مدى يمكن ان تقف العلوم الاخلاقية على أقدامها ؟ كما أن اعطاء اسم مشترك للدراسات الانسانية بأنها علوم أخلاقية يمكن ان تثير جدلا حول علاقة تلك العلوم بعضها بالبعض الاخر .. هل هي علائقية فعلا ؟ وهل تشترك جميعها في أسس مناهجها؟ وكيف يتمايز مثلا المدخل التاريخي عن المدخل الاجتماعي وفي نفس الوقت يتلاءمان ؟

اني اعتقد ، وآمل في أن أبين ، ان التصنيف الثنائي للعلوم الى علوم أخلاقية وأخرى طبيعية له معنى دقيق ومفيد . لكن لما كان المصطلح « علوم أخلاقية » Moral sciences قليل الاستخدام عموما ، كما أن

الترجمة الالمانية له بالمصطلح Geisteswissen shaften غامضة المعنى بالنسبة الى القارىء بالانجليزية ، فلقد اخترت مصطلح « الدراسات الانسانية » وهو مصطلح بدأ ذيوع انتشاره على الرغم من شعبية مصطلح « العلوم الاجتماعية » ومصطلح «الانسانيات» • نعم ان هذين المصطلحين الاخيرين يغطيان بعض الموضوعات المتضمنة في الدراسات الانسانية ، ويمكن ان يستخدما أحيانا كمترادفين لمصطلح « الدراسات الانسانية» لكن معنى أي منهما أضيق ، فنحن لا نفكر في علم النفس أو الاقتصاد علي أنهما جزآن من الانسانيات ، كما أننا لا نفكر في الفلسفة على أنها علم اجتماع •

كنف يمكن اذن أن نعرّف الدراسات الانسانية؟ لقد اقترحت تعريفها مبدئيا بأنها دراسات تتعلق بالانسان ، على الرغم من أن هذا التعريف ليس دقيقا بدرجة كافية وليس واضحا وليس منهجيا ، فالبيولوجيا على سبيل المثال تهتم جزئيا بالانسان وأفعاله ، ولكنها حين تضيف ذلك الجزء الى الدراسات الانسانية وتضم بقية موضوع البيولوجيا الى علم الطبيعة فانها تقع حينئذ في خلط يؤدي الى عدم الرضا عنها ، ذلك لانه في تلك الحالة لا يكون ثمة فارقا بين الدراسة البيولوجية للانسان والقرد الا كالفارق بين دراسة القردة والقطط • والواقع أن الانسان ــ بغض النظر عن كل شيء ــ حيوان (موضوع طبيعي) وهو من حيث هو كذلك يمثل مادة وموضوعا للعلوم الفيزيقية •

ولنا أن نسأل الان : اذا كان العالم الطبيعي هو موضوع العلوم الطبيعية فما هو اذن موضوع الدراسات الانسانية ؟ لو أجبنا على هذا السؤال وقلنا بأن الانسان هو موضوع تلك الدراسات الانسانية فان تلك الاجابة لن تكون كافية ، ذلك لان الانسان هو أيضا جزء من العالم

الطبيعي • هناك أيضا اجابة فلسفية لهذا السؤال أثارت الكثير من الجدل والنقاش وهي أن موضوع الدراسات الانسانية يتمثل في «عالم العقول» The world of minds في حين يتمثل موضوع العلوم الطبيعية في عالم المادة The world of matter • والواقع أن عبارة «عالم العقول» يمكن أن تكون مقبولة وغير معترض عليها من أحد اذا استطعنا تحديد معناها بالضبط وأشرنا الى متضمناتها • ان عالم العقول يشير — في رأينا — الى أي محتوى عقلي mental content كالافكار والمشاعر والرغبات والمقاصد • او الى أية أفعال تصاحب بمثل تلك المحتويات العقلية ، أو الى أي نتاج يرجع جزئيا أو كليا للفكر أو الشعور (وهذا يتضمن الشعر والدين والمؤسسات وغيرها) • لكن يجب أن نضع في ذهننا أن عالم العقول يتشابك ويرتبط تماما مع عالم المادة أو عالم الطبيعة ، فالشعر مثلا يكتب على ورق ، والورق مادة من مواد الطبيعة • عالم الفكر اذن ليس عالما مأهولا بأشباح حرة ، ولكنه يرتبط بالموضوعات الطبيعية • ان الدراسات الانسانية هي تلك الانساق التي تعالج عمليات العقل الانساني ، وكل ما يمكن أن يكون نتاج ذلك العقل، أو يتأثر بعملياته •

والواقع أن الاعتقاد بأن مناهج العلوم الطبيعية هي النموذج الاوحد المطلوب للمعرفة الثابتة الدقيقة انما يرتبط بالمذهب الوضعي Positivism ذلك الذي يهدف الى تجسيد الدراسات الانسانية في جسم علمي موحد تتمايز الانساق فيه تبعا لموضوعات وطرق كل نسق ، وتتآلف تبعا لاستخدامها لمنهج علمي مشترك • ان ما يقوله الوضعيون هنا أصبح قضية مشهورة تنادي بالاضافة الى ما ذكرناه عنها بأن النجاح النظري والعملي للعلوم الطبيعية يرجع الى اننا نشعر بأن الانساق الاقل يمكن

أن تحصل على نفس هـذا النجاح اذا أصبحت علـى مستوى العلـوم الطبيعية او كانت قريبة منها • ان التوحيد بين النظرية وبين المنهجية هو هدف مشروع للعلم ، وتحقيق ذلك الهدف هو ما يؤكد تقدم العلـم ، ضف الى ذلك ان الاستخدام الانجليزي يعطي القيمـة الكبرى للعلـم وللصفة « علمي » لكنه يحتفظ بمثل تلك الكلمـات للعلوم الطبيعيـة ومناهجها فقط بحيث أصبح قولنا « لا علمي » مرادفا للامنهج واللادقة •

ويرى أنصار المذهب الوضعي أن كل الانساق والعلوم يمكن أن تستفيد في محاولتها بلوغ الدقة حـين تحاول تطبيق المناهج التـي ثبت أهميتها وقيمتها في الميادين الاخرى (العلـوم الطبيعية بوجه خـاص) وبقبول مثل هذا الرأي حقق المذهب الوضعي دورا مفيـدا فـي تطوير الدراسات الانسانية •

ولقد أدى ذلك الى تخوف الباحثين من الخوض في المشاكل المعقدة والمركبة ، واتجاههم الى معالجة ما هو يسير ومبسط منها حتى يتمكنوا من حلها بمثل تلـك المناهـج العلمية المحترمـة كالتجربـة والتكميـم quantification والتحليل الاحصائي • ونتيجة ذلك تخفيض دائرة البحث واقتصاره على ما هو منحل تافه ، فتكون لدينا معرفة دقيقة لما هو غيـر جدير بمثل تلك المعرفة •

كما ينتج عن هذا الرأي أيضا تصورا معرفيا متمايزا يتغافل عـن استخدام الدراسات الانسانية لمناهج صارمة تتضمن تطبيقا نسقيا لعمليات المعرفة ، وتختلف عن مناهج العلوم الطبيعية •

والنتيجة الثالثة التي تنجم عـن النتيجتين السابقتين تتعلق بـأن الباحثين قد يلقون بالدقة المنهجية عبر الرياح حينما يواجهون مـا هـو

«غير علمي» من المشاكل الضحلة أو الابحاث المعقدة أو الاسئلة المثيرة .. ها هنا تؤدي المداخل الحدسية الغامضة والمداخل التأملية الصرفة الى ما هو أكثر من « مائدة تتحدث » بدلا من أن تتأدى بنا الى نتائج علمية .

اني أرفض المذهب الوضعي . ليس فقط بسبب ما ذكرته من نتائج سابقة تنجم عن موقفه، بل لأن هذا المذهب يحيد عن العدالة في موضوعنا مثار النظر . وأيا ما كان من قبولنا لفكرة وحدة العلوم ، ولفكرة استفادة الدراسات الانسانية من العلوم الطبيعية ، فان موضوع كلا منهما يفرض تغييرا حاسما في منهجيهما . ولقد ظهر هذا الرأي المتعلق بتميز الدراسات الانسانية عن العلوم الطبيعية خلال الجدل والمناقشات التي ثارت في القرن التاسع عشر ، وهو الرأي الذي سندافع عنه في هذا الكتاب . ولعل أول من صاغ هذا الرأي صياغة دقيقة واضحة هو الفيلسوف الألماني فيلهلم ديلتاي W. Dilthey حين ربطه بنظرية في « الفهم » بوصفه العملية المعرفية المتميزة في حقل الدراسات الانسانية . ولقد أحدثت آراء ديلتاي هذه آثارا عميقة على المفكرين في مختلف الاتجاهات، نذكر منهم على سبيل المثال عالم الاجتماع ماكس فيبر وعالم النفس والفيلسوف سبرانجر .. ومن خلال كتابات هؤلاء اخترقت هذه الآراء وتلك الأفكار العالم الانجلوساكسوني في وقت استنفذت فيه قيمة نظرياتهم تماما . والواقع ان أعمال ماكس فيبر كانت حاسمة في تكوين نظرية علم الاجتماع الحديثة ، كما أثارت مسائل ومشاكل لا تزال موضع النقاش والجدل حتى أيامنا هذه .

ولكي أتمكن من تحديد النقطة المحورية للمنهج المميز للدراسات الانسانية ، يجب أولا أن أصيغ نظرية الفهم ، وهذه سوف تتطلب بدورها تعريف وتفسير المصطلح نفسه ، وتعريف وتفسير مجموعة من المصطلحات

الاخرى المترابطة معه مثل مصطلح « المعنى » ومصطلح « التعبيـــر » • كما أنني سوف أثير بالطبع مسألة « المكانــة الابستمولوجيــة للفهم » وطريقة تطبيقها وارتباطاتها بعمليات اخرى لازمة في طلب المعرفة• وأخيرا سأبحث في مشاكل تتعلق بالدراسات الانسانية المتعلقة بما هو جزئي •• كيف يمكن تحديدها •• وكيف تتعاون في حل المشاكل الخاصة ، وذلــك في ضوء الصور المختلفة للفهم •

٢ ـ المدخل الفلسفي •

لما كان المدخل هنا فلسفيا ، فانني سأعالج فيه الوقائع التجريبيــة والنظريات المرتبطة بها عرضيا فقط وعلى سبيل التوضيح ليس الا • أما الرجوع الى تاريخ الفكر أي الى آراء الفلاسفة فانني سأكتفي فيه بما هو متعلق ببحثنا هذا فقط ••

ان معالجتي الفلسفية للموضوعات مثار النظر هنا سوف تتحــدد طبقا لمواقفي الفلسفية العامة ، ووفقا لتصوري لطبيعة وأهداف الفلسفة• ودون الخوض في ذلك الى النهاية فانني سأبين المنهج الــذي اعتبــره ملائما ، والذي أنوي اتباعه •

اني اعتقد بأن الواجب العام للفلسفة يتمثل في بناء أنماط تصورية تفسر الخبرة وتوضحها ، وأن التحليل الدقيق يجب أن يسبق ذلك البناء. وأن يكون متضمنا من ثم في كل تفلسف • نحن نحلل التصورات لكــي نكتشف معانيها ، ونبحثها لكي نقف على صحتها ، وندرك أبعادهــا •• وفي النهاية نتمكن من أن نصفها بكفاءة •• لكن هذا وحده لا يمثل الا مراحل أولية ، اذ علينا بعد ذلك أن نقيم أنماطا جديدة عــن طريق اعادة

تحديد هذه التصورات ، ونحت الجديد منها ، أو حتى خلق نسق مبتكر من التصورات المترابطة •

وبالطبع فان كل البناءات التصورية ليست من صنع الفلسفة ، فثمة وقائع خاصة يجب أن توصف بواسطة المتخصصين فيها •• هاهنا يتقدم هؤلاء بتصورات جديدة عنها ، لكن فحص ووضع التصورات الرئيسية التي تنتظم خلالها آراؤنا عن العالم هو من واجب الفلسفة ، فتقديم اقتراحات مبتكرة ، وتعريفات جديدة ، وتصنيفات طازجة توجه الفكر الى قنوات جديدة ، هي احدى الوظائف التقليدية للفلسفة • ويكفي أن نفكر هنا فقط في البناء التصوري الذي قدمته النظرية الذرية كفكر تأملي في العصور السحيقة للفلسفة والذي أثمر اطارا تصوريا ساعد على تقدم العلوم الطبيعية في العصور الحديثة •

ان الفلسفة يجب أن تستمر في دورها الرائد في مجال الأفكار ، ولا يجب ان تتهم الفيلسوف بأنه يقعد منتظرا أفكار واقتراحات الآخرين التي إن قدمت إليه فانه يقوم عندئذ اما بنقدها واما بتوضيحها •

يتضمن هذا الكتاب بناءا تصوريا (جديدا) ان الكلمات والتصورات ليست مقدسة •• اننا يجب ألا نجادل الان في الطريقة التي استخدمنا بها كلمة من الكلمات في الماضي الا اذا أردنا أن نغير استخدامها ، فهنا يتعين علينا لكي نفهمها أن نبين لماذا نغير استخدامها وهاهنا تزول قدسيتها • كما أن المصطلحات لا تعطي الا المعنى الذي هو أدق من ، أو الذي يختلف عن الاستخدام العادي ، ذلك المعنى الذي يوضح التشابهات والترابطات والاختلافات • ان التصورات Conceptions والفهم Understanding والتعبير Expression المستخدمة هنا محدد معناها بدقة كاملة في

هذا الكتاب ، وهي جميعا تترابط فيما بينها وبين بعضها البعض ، وفيما بينها وبين غيرها من المصطلحات بنفس الدقة • اني لا أدعي أن ذلك هو الاستخدام الاصح لها ، والذي يكشف بكفاءة عن المعنى الحقيقي ، كما أنني لا أقبل مثل هذه الادعاءات بالنسبة الى الاستخدام العام لها • ولقد استخدمت هنا مصطلح « تعبير » استخداما اوسع بحيث يشمل الاشارة الى الاستخدام العادي والاستخدام غير العادي له • كما أنني حددت المصطلح «فهم» تحديدا يبتعد به عن المشاكل الزائفة الناجمة عن الاستخدام اليومي له ولكي اتجه مباشرة الى الموضوعات الابستمولوجية الهامة • ان اختبار مثل ذلك البناء التصوري هو أمر عملي ومطلوب يتبين منه ما اذا كانت طريقتنا في تناول هذا الموضوع أو ذاك تلائمه وتوضحه ، وما اذا كانت تتغلب على منبع الغموض فيه ، وما اذا كانت صالحة في اقتراح خطوط جديدة للمسألة محل البحث •

ويجب أن تكون الفلسفة نسقية Systematic كي تكون قادرة على التوضيح ، ذلك لأن أي مدخل جزئي يكون غير نسقيا وغير قادر على تفسير المبادىء التي يرتكز عليها • والواقع أن المشاكل الجزئية لها جذور مركبة واتجاهات متفاوتة يتعذر علاج كل منها على حدة ، ولا يتم التوضيح الاكمل لها الا من خلال بناء تصوري يكون فلسفة كلية، ولعل هذا يفسر لنا السبب في اعتبارنا أعمال أفلاطون في « الجمهورية » ، واسبنوزا في « الاخلاق » وكانط في نقده للعقلين النظري والعملي أعمالا فريدة وعظيمة ، ذلك لأن هذه الأعمال تميزت بفهم كامل واحاطة نسقية لدائرة واسعة من دوائر المشاكل الانسانية • حقا انه لمن الضجر أن نبدأ بوصف شامل لاحدى الفلسفات حين نهتم بمجموعة جزئية من المشاكل ، ولكن أيا ما كان من محدودية

موضوعنا ، وأيا ما كانت نقطة بدايتنا ، فيجب أن تتذكر بأن مثل هـذه المشاكل لا يمكن أن تحل الا في ضوء سياق مستوعب نسقيا •

يتناقش بعض فلاسفة العصر الحديث حـول وجوب أن يـكون الفلاسفة متواضعين يقتصرون على معالجة المشاكل الجزئية بدلا من أن يكونوا بناة أنساق فلسفية • لكن التوحيد بـين المدخل الجزئي غيـر النسقي وبين التواضع ، والتوحيد بين النسقية والدجماطيقية انما يمثل خلطا بين المقولات ، ان الانسان يمكن أن يكون دجماطيقيا وهو بازاء مسائل جزئية غير نسقية ، كما يمكن أن يكون غير ذلك وهو بازاء بناء نسقي ، وحتى لو كان الامر غير كذلك فان المدخل النسقي يفرض نفسه علينا وفق طبيعة المشاكل ذاتها والتي تكون محل التناول •

نحن نستطيع أن نقيم تفسيراتنا بواسطة البناء النسقي • والتفسير يعني في اللغة العادية الملامح الذاتية Subjective features (وهي تلك التي لا تعرف موضوعيا) التي تدخل في تفسير وتوضيح مجموعة معطاة من الوقائع • ومثل هذا النشاط يـكون صحيحا ، وفـي بعض الاحيان يكون ضروريا ، حينما لا تكون الوقائع مفسرة بذاتها ، أو حينما لا تكون مشيرة الى نتيجة محددة ، فاذا رأينا شخصا يرتدي زي رجـال البريد ، وهو يوزع الخطابات ، وقلنا « هذا رجل البريد » فان قولنـا هذا لا يعد تفسيرا ، ولكن اذا رأينا رجلا على بعد منا ، يرتـدي زيـا لا نستطيع ان نحدده ، ورأيناه يقرع الابواب ، ويبدو وكأنه رجل بريد ، وقلنا « هذا رجل بريد » فهذا هو ما نسميه بالتفسير • نعم قد تكـون الادلة هنا غير كافية ، كما يمكن أن يكون تفسيرنا خاطئا ، اذ قد يكون هذا الرجل جنديا أو رجل شرطة او ما شابه ذلك ، ولكن هذا هو مـا نقصده بالتفسير على أية حال ، اذ الوقائع لا تتحدث بذاتها ، ولكننا نحن الذيـن نجعلها تكشف عـن أسرارهـا • نحـن نحـاول

الاحساس بالموقف ، وفي بعض الحالات يكون ذلك ضروريا اذا استدعى الموقف ذلك رغما عن نقص الادلة ، وغالبا ما يتأدى بنا الامر الى اكتشاف أدلة اكثر فتتحول التفسيرات الى معرفة ، لكن تبقى مسألة نقص الادلة وكأنه لا علاج لها • ان البناءات الفلسفية هي بالضرورة تفسيرات من هذا النوع • تكون الوقائع أمامنا ، ويمكن أن تكون هي كل الوقائع ، أو كل ما يمكن أن نأمل في معرفته، لكن هذه الوقائع لا تتحدث بذاتها • نعم ان هناك طرقا عديدة تتمكن بها من تصنيفها وترتيبها وربطها وتفسيرها لكن لا واحد من هذه الطرق يفرض نفسه علينا فرضا من داخل الوقائع ذاتها • ها هنا تبدو الحاجة ــ تحت دافع ما نسميه ببحث أعمق ــ الى انتاج احدى التفسيرات ، ومثل تلك التفسيرات قد تكون شخصية أو ذاتية في أحد معانيها ، لكنها يجب أن تعكس الوقائع من زاوية أخرى ، وان تعالجها معالجة شمولية تتسم بسمة التوضيح •

تتكون محتويات هذا الكتاب من تفسيرات من هذا النوع، ويعتبر كل تفسير منها بمثابة جزء من أجزاء نسق تفسيري واحد • أما أهداف هذا الكتاب فتتمثل في أغراض ثلاثة متميزة ومترابطة ، الغرض الاول هو أن أتقدم باسهام في الحقل الفلسفي ذاته : ان الفلسفة الحديثة ــ خصوصا في العالم الانجلوساكسوني ــ أصبحت ذات جانب واحد بسبب انشغالها بالنجاح الباهر للعلوم الطبيعية ، كما أن العمليات المتضمنة في معرفة العالم الطبيعي ومناهج العلوم المتعلقة بها تم تناولها على أنها الانموذج الفريد لكل معرفة ، ولهذا السبب تضخم موضوع الادراك بحيث ظهر كبيرا جدا في نظرية المعرفة • وفي ضوء هذا حاولت النظرية اللغوية تحديد المعنى في ضوء ما يمكن ان نخبره بالحواس ، وخضعت الرياضة وهي ذات صلة وثيقة بالعلم للتحليل الكمي ، وتأكدت مثل هذه

النظرة الخاصة من واقعة أن أكثر فلاسفة عصرنا نفوذا كانوا رياضيين أو علماء طبيعة في حين كانت الاقلية منهم علماء اجتماع أو علمـاء تاريخ، ونجم عن ذلك كله اتجاه معظم المؤلفات الفلسفية نحو بحث عملية « الادراك » والحديث بغزارة عن « مناهج العلوم الطبيعية » ، بينما اتجهت القلة النادرة من المؤلفات الفلسفية نحو الحديث عن «الفهم» Understandiug وعن مناهج الفيلولوجيا وعلم الاجتماع .

وكنتيجة لهذا الانشغال الزائد بعملية الادراك ، غفل المفكرون عن العمليات المعرفية الاخرى ، أو اعتقدوا أنها صور ناقصة من صور المعرفة الطبيعية . اني اعتقد أن مناقشة مشاكل الدراسات الانسانية سوف تصحح هذا المسار ، وسوف تمنع الانحياز الى جانب العلوم الطبيعية ، فحينما نستطيع أن نبين في مجال الدراسات الانسانية ان أنساقا مثل التاريخ وعلم الاجتماع انما تتحقق معرفتها بواسطة عمليات عقلية تختلف بطريقة ما عن تلك العمليات المستخدمة في العلوم الطبيعية فان ذلك انما يلقي أضواء جديدة على افتراضاتنا الابستمولوجية ويقودنا الى اعادة تقدير آرائنا الفلسفية . وهذا يمثل أحد أغراض هذا الكتاب .

ولا يمكن أن يتحقق هدفنا هذا الا بمحاولة كسب بصيرة نافذة في مجال الدراسات الانسانية ، تمكن العاملين في هذا المجال وتساعدهم في عملية توجيه النظرية وارشادها للتطبيق . وبيان مثل هذا الامر يمثل غرضي الثاني من أغراض هذا الكتاب ، فمما لا شك فيه أن العلوم المختلفة تقيم نظرياتها الخاصة بها ، ولكن هذه النظريات على ما بينها من تفاوت في درجات العمومية ، ليست ذات طبيعة فلسفية . ومع ذلك فان التحليل الفلسفي ، وبناء الاطار الفلسفي يمكن أن يمد هذه النظريات بتعريفات واضحة عن الدراسات الانسانية ، وعن أهدافها ، وأن يجيب على سؤال مثل : « ما نوع التفسير الذي نبحث عنه ؟ » ، كما يمكن

للتحليل الفلسفي أيضا أن يعزز الفهم الواضح ، وان يدعم الاستخدام المتناسق للمصطلحات الرئيسية ، وأن يجعل الخطة التصورية جلية ، كما يمكن له أن يمنح الأساس النظري بمداخل متشابكة مستقاة من أنساق عديدة لكي يعاونه على حل مشكلة جزئية مفردة .. فمثل هذا الاسهام الاخير لا يقدر عليه أي واحد مفرد من المتخصصين في فرع ما . وأخيرا فان البصيرة الابستمولوجية يمكن بل ويجب أن تؤثر في الخطة المنهجية.

ان اسهام الفيلسوف ليس نوعا من الوحي .. ان على الفيلسوف أن يتعلم أولا مما يفعله الباحث ، وعليه أن يدرك مشكلته ، وبعد ذلك يكون قادرا بمهاراته الخاصة على تقديم اسهام في مجال الواجبات المعقدة التي تواجه طالب الشؤون الانسانية ، كما يكون قادرا على بيان أن لفلسفته فائدة عملية . وهذا يعني ضرورة ان تكون معالجة الفيلسوف منصبة على المشاكل الواقعية المستقاة من الحياة اليومية ، والتي لا تكون مفروضة من قبل الفلاسفة . ان مشاكل الدراسات الانسانية هي من هذا النوع ، فهناك لا يقينيات نظرية وأوجه خلط منهجية تعوق تقدمها.. وهذه تعوق بالتالي حل المشاكل الانسانية ، وحين نطبق احدى الفلسفات على مشاكل مثل هذه فاننا نعرضها لامتحان حاسم يبين قيمتها، وهذا على ما هو عليه هو ما يجب ان يكون .

الفصل الثاني

نقطة الانطلاق ومفهوم المعنى

١ ــ افتراضات المعرفة .

٢ ــ وجهة النظر الانسانية .

٣ ــ المعنى والمقولات التي ندركه بها .

الفصل الثاني

نقطة الانطلاق ومفهوم المعنى

١ ـ افتراضات المعرفة .

تتناول الدراسات الانسانية ـ وحدها ـ بعكس العلوم الطبيعية دراسة الاجسام والحركات في المكان، والبناءات المختلفة بقدر ما تجسده من أفكار ، ومشاعر وأهداف ، وتهتم هذه الدراسات بالافكار والمطامح والسلوك الهادف والابداع الفني ، والادوات التي يصنعها الانسان ، والقواعد التي يفرضها البشر على أنفسهم ، والانظمة التي يستحدثونها ، فتلك كلها ظواهر تجعل للحياة معنى ، ولهذا كانت الدراسات الانسانية تعالج أساسا وقائع ذات معنى .

وطالما ان هذا التعريف يطرح حكما مسبقا على كافة المسائل التي يناقشها هذا الكتاب ، فمن الضروري اذن تفسيره والدفاع عنه . اننا نفترض ان هذا التعريف يعبر عن الحقيقة القائلة بأن الناس يدركون العالم على أنه عالم ينطوي على معاني ، ومن ثم كان سلوكهم ذا معنى كذلك ، وان هذه الحقيقة لتشكل جانبا من خبرتنا تماما كخبرتنا بصلابة المعادن وألوان الزهور . ومع ذلك فغالبا ما يتعذر التمييز بين الواقع

والنظرية ، فهل نعتبر دوران الارض حول الشمس مسألة واقع أم نظرية؟ وهل الحياة الجنسية للطفل واقع أم نظرية ؟ والحق ان النظرة الكليـة للعالم تتضمن العديد من الافتراضات حول ما نعرفه وكيفية معرفتنا له ، فتلك افتراضات مسبقة تفرض علينا عند النظر الى أي موضوع حتى ولو بدا بسيطا .

وقد لا تبدو هذه المسائل واضحة خلال حياتنا العملية ، او حتـى عندما نقوم باجراء بحث علمي لاننا لا نثير تلك التساؤلات . فنحن نبحث العلاقات بين ما نقبله كوقائع دون أن نهتم بالعلاقات الاشد تعقيدا والتي تقوم بين الوقائع والجهاز المعرفي للباحث . فالباحث في المجال الجنائي ــ مثلا ــ يبحث اساسا عن مرتكب الجريمة ، وهو يسلم بذلك التصور للعالم الذي طوره البحث العلمي والتفكير الفلسفي وقبله الرأي العـام، ثم هو يفترض أنه يتحرك في عالم البشر والاشياء حيث يقع دون سبب، فالناس يدفعهم الجشع ، والرصاص ينطلق وفقا لقواعد الرماية ، تلـك وقائع يسلم بها الباحث دون أن يتشكـك في مبادىء علـم النفس أو الفيزياء ، وهذا أمر ضروري وواضح اذا أراد الباحث أن يصل الـى حلول لمشكلاته الخاصة . وبالمثل فان عالم النبات يصنف النباتات دون ان يتشكك في مبلغ ثبات حواسه ، او درجة انتظام الطبيعة أو قوانـين الابصار التي تحكم استخدامه للمهجر .

ويرجع ذلك كله الى التخصص الذي اصبح أمرا لا مفر منـه ، اذ يعتمد باحث متخصص في ميدان معين على أعمال باحث آخر مـن خلال مبدأ تقسيم العمل ، فرجل الشرطة يقبل نتائج خبير الرماية ، تماما كمـا يقبل عالم النبات نتائج البحوث البصرية . ونحن لا نسلم فحسب بذلـك البناء الهائل من المعرفة الذي اسهم فيه عدد من المتخصصين ، وانما نسلم

أيضا بتلك الافتراضات الرئيسية التي تتعلق بنظام الطبيعة وبقدرتنا على اكتشافه ، تلك كلها عوامل تحكم ما نطلق عليه مصطلح الواقعة •

والفلسفة تختلف عن العلم والذوق العام ، ويبدو هذا الاختلاف واضحا في ذلك الفرع الذي نطلق عليه مصطلح نظرية المعرفة أو الابستمولوجيا والذي يختص بفحص تلك الافتراضات ، ويسعى هذا الفرع الى وضع الاسس الفكرية للمعرفة والنظر في كيفية استيعاب العقل للواقع، وتفسر القاعدة التي يرتكز عليها قبولنا للاشياء كحقائق، وتفرقتنا بين الواقع والنظرية والفرض •

ولهذا التفسير دوره الهام في الدراسات الانسانية حيث لا تزال طبيعة الوقائع والمناهج الملائمة لدراستها موضع جدل • هنا تكون لنظرية المعرفة صلتها القوية بعلم المناهج •

واذا كانت الفلسفة تدعي لنفسها القدرة على نقد الافتراضات التي يقدمها العلم والذوق العام فهي أيضا يجب أن تكون على استعداد لمناقشة افتراضاتها الخاصة ، ذلك لأن كافة الافتراضات المسبقة حول معرفتنا وتفكيرنا هي الاخرى موضع تساؤل • وللهروب من مأزق الافتراضات المسبقة هذا وضعت الفلسفة نقطة انطلاق مطلقة لليقين ، والمثال على ذلك هو ما يعرف بالمعرفة الكاملة • ولقد حاول العديد من الفلاسفة اكتشاف هذا اليقين في مجالات متباينة ، فالعقليون يدعون اكتشافه في نطاق النتائج البرهانية للاستدلال الرياضي وضروب التفكير الاستنباطي الاخرى ، والتجريبيون في يقينهم المباشر بالحواس • فلقد بدأ ديكارت من وعيه بذاته كذات مفكرة • وهكذا تقاس المعارف الاخرى بهذا المعيار ، وغالبا ما تعالج كمجرد رأي أو اعتقاد او تخمين ، وحينما تتبنى نقطة بداية بسيطة لا نستطيع ان نتراجع ابدا الى خبرتنا الواقعية

الخصبة المثمرة. ان صاحب المذهب العقلي يكافح من اجل وضع الحقائق الجزئية بالقوة داخل اطاره الفكري • ويفترض التجريبي ان المعرفة برمتها مصدرها الخبرة الحسية ، ومن ثم يصعب عليه استيعاب المعرفة الرياضية والقوانين السببية لمعرفة الناس والاشياء • وحينما جعل ديكارت من الوعي البشري نقطة بداية له واجهته صعوبة بالغة في تحديد معرفتنا بالجسم البشري والعالم المحيط بنا •

والبديل لذلك كله هو رفض فكرة نقطة البداية المطلقة ، والاعتراف بأن أية محاولة للتفلسف ترتكز على افتراضات مسبقة • وحينما يبدأ الفيلسوف في إعمال عقله لا نستطيع ان نعتبر العقل صفحة بيضاء في انتظار ما ينقش عليها من نقوش ، كما أن العقل أيضا ليس موضوعا معرفيا خالصا يفتح عيون فكره لأول مرة على عالم غريب عليه تماما • فتلك تجريدات مصطنعة ، اذ ليست هناك بداية نظرية بسيطة لا جدال فيها ، فنحن لا نبدأ بعقل مفرغ يبحث في الحقيقة الغاية •

وقبولنا لفكرة الافتراضات المسبقة تجعلنا نقع في صعوبات تتصل بها ، ذلك لان الموضوع الذي سنبدأ منه سيصبح هو ذاته موضعا للتحليل النقدي ، ومن ثم يبدو الفيلسوف غارقا في دائرة التفاهة والتناقض. فاذا ما أعاد اثبات ما افترضه في خاتمة بحثه بدا تافها، واذا ما تجاهل افتراضه اصبح متناقضا • فالنتيجة التي مؤداها : انا موجود نتيجة ساذجة ، كما أن القاء الشك على قدرة العقل في الوصول الى نتائج صادقة ينطوي على تناقض اذا كانت النتيجة مترتبة على الفكر •

ومع ذلك ، فان الفهم الصحيح لماهية الفلسفة يتطلب السعي من أجل هذا الانطباع ، فمهمة الفيلسوف هي الايضاح ، وليست تأكيد وقائع معينة او تجاهلها ، اذ هو لا يدعي انه يهدف الى اكتشاف الحقيقة

الواضحة التي تعني انه موجود ، وهو في الوقت ذاته لا يتجاهل الحقيقة الواضحة الاخرى والتي تعني وجود العالم الخارجي • انه يهدف الى الكشف عما يعنيه الوجود او الوعي بالعالم الخارجي • وهكذا ، تظل صعوبة اعمال الفكر حول نقطة البداية والافتراضات الملزمة قائمة• ويتعين ان يكون الفيلسوف واعيا وحساسا بالنتائج التي سيصل اليها، ومستعدا لمراجعة افتراضاته في ضوء البحوث التي يقوم بها ، هنا فقط يستطيع ان يقف على الطريقة التي يقبض بها العقل الانساني على الواقع•

وليس ثمة تناقض في القول بأن الفلسفة التي تعني بنقد كافة معارفنا تعتبر وجود ذلك البناء الشامل للمعرفة القائمة نقطة انطلاق لها • فحينما نبدأ التفلسف تفترض أن لدينا معرفة بالرياضيات وبالعالم الطبيعي وبالتاريخ وعلم النفس أيضا • اما محتوى هذه المعرفة ومدى ثبات مختلف النظريات فليست مسألة ذات أهمية بالنسبة للفلسفة • ان المعرفة قد اقيم صرحها، واستطاع الانسان ان يتحقق منها ويصححها خلال مساره في التوافق مع العالم • فالسؤال عما اذا كانت نظريات نيوتن Newton صحيحة ام خاطئة مسألة تتعلق بعلم الفيزياء ، كما ان علم النفس هو المختص بالاجابة على التساؤل الذي مؤداه هل يشكل الجنس دافعا محركا لسلوك الاطفال ؟ ووفقا لما ذهب اليه كانت Kant نستطيع القول بأن مهمة الفيلسوف ليست هي تقرير ماااذا كانت لدينا معرفة ام لا، أو ماذا نعرف ، ولكن عليه اكتشاف كيفية المعرفة وما تنطوي عليه المعرفة من افتراضات اولية •

٢ ـ وجهة النظر الانسانية •

الواقع أنه يبدو ان هناك نوعا من التزييف في أية محاولة لتجاهل

ما يوجد لدينا من معرفة ، فحينما يبدأ الفيلسوف في التفكير لا يستطيع اغفال حقيقة كونه مخلوقا طبيعيا له حواسه التي يستخدمها في اكتساب كل ما يعرفه عن الطبيعة البشرية • وهكذا يكون قبولنا للعلوم الطبيعية وللدراسات الانسانية متضمنا في نقطة انطلاقنا •

ان التحليل الاساسي لما تنطوي عليه عملية وجود الانسان بجعل هذه الافتراضات واضحة تماما • فنحن مخلوقات طبيعية لدينا اجسام تؤدي وظائفها بطريقة محددة بيولوجيا • وخلال اجسامنا تتأثر بالبيئة الطبيعية ، فحواسنا تنقل لنا موضوعات العالم الخارجي • وطالما ان لدينا حاجات فسيولوجية ورغبات محددة فان هذه الموضوعات هي الاخرى تعبر عن الرغبة وتحقق الاشباع ، ولكنها قد تعوق ذلك أيضا ، انها تجلب اللذة او الالم، الاشباع او الاحباط ، ونحن بدورنا نستطيع التأثير في البيئة وتعديلها وتغييرها • فاذا كانت الزهور تجلب لنا اللذة بوسعنا تنميتها ، واذا كانت الحواجز تعوق رؤيتنا بمقدورنا ازالتها •

ونستطيع ان نعدد الكثير من المظاهر الاخرى لحقيقة كوننا مخلوقات طبيعية ، فنحن سنموت لا محالة ، ومعرضين في اي لحظة للمرض ، ونحن نرث الكثير من السمات والخصائص ، لكن اكثر مظاهر الحياة الانسانية وضوحا هو أن الوعي ملازم للحياة• اننا لا نفكر فحسب على اساس الحساب والقدرة على حل المشكلات ، فلدينا مشاعر وأمزجة ورغبات ومقاصد تلون تفكيرنا وهي جزء متكامل من ادراكنا لذواتنا • ونحن ننسق فيما بين رغباتنا ونضع الخطط ، ونخضع سلوكنا لقواعد ومبادىء ، فذلك هو ما نعنيه بعقلانية الانسان التي تعتمد على قوتنا الفريدة في تكوين صور ممثلة ، والتفكير في شيء لا يوجد امامنا بالفعل ، وتلك القدرة هي التي تجعل اللغة ممكنة • ومع ذلك ، فالانسان

مختلف عن سائر الحيوانات الاخرى من حيث انه يستطيع ان يتعلم دروسا من الماضي ، كما يستطيع ان يفكر فيما هو بعيد مكانيا ، وهو يتوقع المستقبل ، وينظم الحياة الاجتماعية والثقافية ، ويعتمد استمرار التقاليد والوعي بالذات على كل هذه القدرات .

الانسان اذن على وعي بالعالم الثقافي والاجتماعي وبالعالم الطبيعي ايضا ، انه يسعى الى المعرفة مثلما يسعى الى الطعام ، والاحباط لا ينتج عنده فقط من الموضوعات الطبيعية ، بل قد يرجع الى ضغوط اجتماعية ايضا . وتتحكم في الانسان الوراثة والتقاليد معا . يضاف الى ذلك انه نتيجة لان الانسان على وعي بالماضي والمستقبل ونظرا لان حياته مستغرقة في حياة الاخرين فانه يطرح تساؤلات حول وجوده ومن ثم يصبح فيلسوفا . واستمرار هذا الوعي ذاته يجعل الاختيار امرا ضروريا، ولكي يتمكن الانسان من القيام بهذه الاختيارات عليه ان يطور نسقا اخلاقيا . والواقع ان صبغ الحاضر بوعي الماضي وبتوقع المستقبل يجعل الانسان مدركا لكيفية وقوع الحوادث في الزمان ، اي يجعل منه مؤرخا .

وكل الوقائع التي اشرت اليها هي وقائع مألوفة لا تفسح مجالا للجدل ــ ولقد حصرت هذه الوقائع لأنها متضمنة في عملية المعرفة ، بل وقد تعمل على تعديلها . وما نطلق عليه مصطلح الخبرة يحدده تكويننا الفسيولوجي (حواسنا ، واعصابنا ، وعقولنا .. الخ) ، وتكسبه حاجاتنا ورغباتنا لونا خاصا . ونحن نستوعب الخبرة على أساس ما تلعبه الوراثة في الذكاء والذاكرة والانتباه والميراث الثقافي والاجتماعي، ولغتنا وافكارنا وبناء المعرفة القائم ، وطائفة هائلة من المواقف تعد جميعا نتاج العملية التاريخية .

ان الوقائع السابقة تحدد وجهة النظر التي تتعرف من خلالها على العالم • وتتضمن نقطة الانطلاق هذه عناصر ذات صبغة واقعية محددة ، فلا توجد لدينا سوى اعضاء الحس فقط ، ونحن نمثل انسان القرن العشرين بكل ما تتضمنه هذه الكلمة من معاني • ومع ذلك ، فلما كانت هذه الاحكام ذات طبيعة مزدوجة لكونها افتراضات مسبقة للمعرفة من جهة ، وجزء من المعرفة ذاتها من جهة اخرى ، فنحن مضطرين لاعادة فحص طبيعة المعرفة • ان ذلك لا يعني اننا نشكك فيما نعرفه ، ولكن المسألة هي مسألة معنى المعرفة • اننا نقع فريسة دائرة تسلب المعرفة تحديدها المطلق وتجعلنا نرتبط اكثر بالواقعية الساذجة لان المعرفة كلها تبدو نسبية أو مرتبطة بنقطة البداية التي نرتضيها • ان المعرفة البيولوجية أو السيكولوجية قد حددتها عوامل حتمتها عوامل بيولوجية أو نفسية، كما أن المنظور التاريخي يحدد حكمنا على التاريخ•

والعالم الذي نسعى الى التعرف عليه لا يطرح نفسه أمامنا بطريقة موضوعية ، ولكنه في ذاته موضوعا للدراسة من خلال تصورنا للظروف الانسانية • وحينما نتحدث عن الموضوعية يكون حديثنا في اطار سياق محدد بعد ان نسلم ببعض الشروط المعرفية • يحدث ذلك حينما يفحص عالم النبات الزهور • ولكن حينما نبحث مشكلة المعرفة برمتها ــ كما هو الشأن في نقطة بدايتها الفلسفية ــ لا نستطيع ان نهرب من منظورات علم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ التي يحدث داخلها أي فعل معرفي• ولما كنا نتعامل مع المعرفة برمتها كان من العسير علينا أن نخطو خارج نطاقها ، اذ حينما نشرع في تفسير العالم يبدو كما لو انه قد فسر بالفعل فور البدء في مهمتنا ، وغايتنا هي تحقيق مزيد من الاتساق ومزيد من الوعي الذاتي •

في ضوء ذلك كله لا يعد بناء المعرفة برمته صورة فوتوغرافية للواقع ،ولكنه خلق انساني تتجلى فيه القرارات ومختلف انواع التقويم. اننا تنظر الى العالم ، وتقوم بتنظيمه من وجهة نظر خاصة بواسطة ادواتنا المعرفية ، وهذا هو ما دفعني الى القول بأن العالم قد فسر بالفعل. فحينما نستخدم مثلا كلمة « الشجرة » او « التفاحة » أو « القلم »نكون قد فسرنا موضوعات عديدة تنتمي الى مجموعة واحدة . والعلم هو سلسلة من التفسيرات التي نصل اليها باستخدام مناهج بالغة الدقة والتحديد بهدف التوصل الى أغراض معينة بالذات . أما الاساطير والاديان والفلسفات فهي تفسر جوانب رئيسية من العالم بطرائقها الخاصة ، وهذه التفسيرات تجعل العالم ينطوي على معنى عند الانسان.

ويقدم لنا بناء المعرفة والاعتقاد منظورات لبحث مشكلات محددة، ويتضمن معايير للكشف عن حقيقة تأكيدات بالذات . وهكذا نستطيع ان نتساءل عن اي عبارة واقعية هل هي حقيقية كذلك ؟ ولكن طالما اننا لا نستطيع ان نخطو خارج المنظور الذي طورته تفسيراتنا للعالم ، فلن يكون هناك معيار يمكننا من الاجابة على نفس التساؤل فيما يتعلق بتصورنا للواقع . وغاية ما نستطيع ان نفعله هو أن نجعله اكثر اتساقا وشمولا . وهكذا ، ينبغي ان نعترف بالحقيقة القائلة بأن الحياة الانسانية ، وهي التي تمثل موضوع الدراسات الانسانية ، مفعمة بالمعاني المشتقة من تفسير الانسان لعالمه . ولكننا نستطيع اخضاعها للتحليل حين نفحص كيف يشير هذا المعنى الفيلسوف ، فذلك يضع للدراسات الانسانية اساسها الابستمولوجي .

٣ ـ المعنى والمقولات التي ندركه بها .

عندما نشرع في التحليل يتعين ألا نجعل من معاني الكلمات

الانموذج الأمثل لكافة المعاني التي نقصدها ــ مثلما حدث عند اصحاب النزعة التحليلية في اللغة ــ وذلك بالرغم من أن فهم المعاني اللغوية يعد من أهم خصائص الحياة الانسانية ، فوعينا بذواتنا ، وبالعالم المحيط بنا غالبا ما يتحقق من خلال تصورات نصوغها لغويا • فمع ان هناك تشابها بين الانسان حين يشم زهرة ، وبين الكلب حين يشم عظمة ، الا ان الفروق جوهرية بينهما ، فأنا اصنف خبرتي واصوغها في مصطلح محدد بدقة ويصبح جزءا من ذاكرتي الشخصية ومعرفتي العامة • وتكمن فائدة المدخل اللغوي للمعاني في هذه الحقيقة • غير ان التساؤل الذي مؤداه، ما الذي يجعل من هذا الموقف موقفا ينطوي على معنى ؟ يبدو اكثر أهمية من التساؤل الذي يقول ما الذي يجعل هذه العبارة ذات معنى ؟ اذ كيف ينطق الطفل باللغة أو كيف يتعلمها لأول مرة اذا تعذر ان يكون لديه فهم لغوي مسبق لمعاني المواقف كالموقف الذي يرمز الى شيء ما، كما انه اذا استحالت الاشارة بالاصبع أو الاشارة الى اعلى بشيء معين ثم تكرار الكلمة الدالة على ذلك ، فان هذه الكلمة لن يكون لها ادنى تأثير على الطفل الصغير ، ان عليه ان يفهم أولا ما هي اللغة ، وماذا يقصد بالاشارة أو الرمز أو الكلمة التي نطلقها على شيء ما •

على أننا كثيرا ما نشير الى معاني غير لغوية خلال أحاديثنا اليومية كقولنا : ان ذلك يعني شيئا بالنسبة لي ، ان افعاله تبدو خالية تماما من المعنى ، انني اعرف ماذا تعنيه تلك الابتسامة على وجهه ، وماذا تعنيه تلك الحادثة التاريخية • ان هذه الاستخدامات ستبدو واضحة اذا نظرنا اليها كمجرد استمرار لما ينطوي عليه مصطلح المعنى بالمفهوم اللغوي • وتهتم الدراسات الانسانية بصفة خاصة بالمعاني في مفهومها العام • وتحتل معاني الافعال والمواقف مكانة بارزة في هذه الدراسات • واذا ما أرادت الفلسفة ان تثبت فعاليتها للدراسات

الانسانية فان عليها ان تحلل مضمون كلمة المعنى .

وكتوضيح لما سبق دعنا نأخذ موقفا بسيطا ، ثم نستخلص المعاني التي ينطوي عليها . اندفع سميث الى داخل حجرتي ثم ضرب بقبضة يده على المنضدة . ان هذا الموقف يتضمن معنى عندي لانني رأيت شخصا ما أعتبره صديق قديم لي فأدركت ان الحركة التي قام بها بمثابة دليل على غضبه . وسيبدو الموقف مختلفا تماما اذا استبعدنا أي حركة من حركاته ، واذا أومأ لي شخص غريب عني تماما أثناء تجواله فسأجد الموقف غير مفهوم . وأخيرا ، اذا حاول صديقي بدلا من قيامه بتلك الحركة المقصودة ، أن يضرب على المنضدة فجأة فستقل المعاني التي يتضمنها الموقف .

وتؤثر اتجاهات الموقف المختلفة على درجة فهمنا له ، فصديقي سميث لم يضرب فقط بقبضة يده ، ولكنه أخذ يضغط على شفتيه ، وهذه ولا شك تعبيرات منسقة يكمل بعضها بعضا . أما اذا تناقضت اتجاهات الموقف بحيث تعبر عن عواطف متعارضة ، كأن تصاحب ابتسامة الصديق حركة تدل على غضبه، فسوف يكون فهمي له غامضا. وينطبق نفس الشيء على نطاق أوسع ، فاذا علمت أن صديقي سميث قد لحقت به اهانة أو حدث له احباط حينئذ سيصبح فهمي أكثر وضوحا ، أما اذا كان قد حصل على ترقية أو تزوج من فتاته ، فان الموقف لن يكون مفهوما بنفس الدرجة .

أما أن غضب سميث يعني شيئا بالنسبة لي ، فذلك مرجعه انني أتألم حين أراه في حالة سيئة ، فذلك يذكرني بما اعانيه شخصيا من احباط ، اذ قد يكون موقفه هذا له صلة بالظروف التي اعيشها ، بل ربما اكون في حاجة الى معونة سميث ، لكنني اضطر الى الامتناع عن

طلب معونته لأن حالته المزاجية لا تسمح بذلك ٠

وهكذا يجد الناس أن المواقف تنطوي على معنى لأنهم يتأثرون بها ويستجيبون لها، ويربطونها بمواقف أخرى، ويحكمون عليها ويفسرونها على أساس ذاكرتهم ٠ وقد يبدو هذا المعنى معقد بدرجة تقل أو تكبر ، ولكنه دائما ما يكون هو المعنى الأول الذي يدركه الشخص حينما يواجه الموقف ٠ وهكذا يتسم المعنى بأنه ذاتي وربما اعتقادي ، كما أن المعنى الذي يدركه شخص ما لموقف معين ، يمكن أن يدركه أو يفهمه شخص آخر ٠

يبدو من التحليل الدقيق اذن ، أن المعنى مرتبط باستخدام مفاهيم معينة ، هي أحكام نصدرها على أساس نماذج من العلاقات ، بحيث تشكل المعنى وتمنحنا أدوات فهمه ، ويمكن أن نطلق على هذه المفاهيم مصطلح المقولات بالمعنى الكامل ٠ ومن المفيد في هذا الصدد ان نعرض لهذه المقولات ونناقشها ، فكل منها يتناول جوانب معينة من الموقف وما يوجد بينها من تساند متبادل ، ثم هي مجتمعة تمكننا من فهم المواقف المعقدة ٠

وثمة علاقة وثيقة بين مظاهر الطبيعة والمحتوى العقلي الذي يجعلها تبدو كتعبيرات جلية ، فجانب كبير من العالم المحيط بنا يتضح معناه حين ندرك أن ما نراه أو نسمعه لا يزيد عن كونه مظهرا لأفعال عقلية ٠ وحينما ننظر الى الحركات مثل الايماء ، والى الأصوات كالكلمات ، والى الموضوعات مثل الأدوات ، فاننا نفعل ذلك لأننا نفترض ان ما ندركه هو نتاج الفكر الانساني والشعور أو الاحساس ٠

وتلك العلاقة النموذجية التي تشكل احدى مقولات المعنى هي

علاقة قائمة بذاتها Sui generis ولا يمكن ردها الى أي علاقة أخرى • وكمثال عام ، فقد يفكر المرء في العلاقة بين الغضب والعبوس، أو بين الفكر والكلمات المكتوبة ، أو بين ما هو داخلي وما هو خارجي ، وهذا بالطبع راجع الى التصور العام للعقل بوصفه بناءا داخليا مكينا • وبوسعنا أن نقول أن الغضب داخلي ، وأن العبوس خارجي ، ولكننا يمكن أن نقول بطريقة اخرى أن الغضب يتجسد في العبوس ، وأن الفكر تجسده الكلمات • غير أن هذه المماثلات مضللة ، فما هو داخلي لا يعني بالضرورة علاقة مكانية هنا ، فليس معنى أن أفكارنا تكمن داخلنا ، أن العقل يحتويها احتواء مكانيا ، ولا هي متضمنة في الكلمات احتواء البيضة فرخ الدجاج • هكذا يتعين أن نقول في هذا الصدد ان العلاقة هنا هي علاقة التعبير عن محتوى عقلي في صورة طبيعية • وكنتيجة لهذه العلاقة نواجه بمركب معقد فريد نطلق عليه مصطلح : التعبير ذو المعنى • ومع ذلك فنحن لا نستطيع أن نمضي في تحليل هذا المركب الى عناصره المكونة ، ذلك لأنها ستبدو شديدة الارتباط فيما بينها • فنحن نستشعر الجوع دون أن نظهره ، أو نبدو في حالة غضب دون أن يكون لدينا شعور حقيقي بذلك • ولا يفقد ذلك التعبير عن الغضب دلالته الحقيقية، ولكنه يعني انني استطيع ان اتعمد خداع الآخرين بالتعبيرات الخارجية تماما مثلما اخدعهم بالكلمات •

ونحن نلمس العلاقات التي ترمز اليها هذه المقولة وغيرها من المقولات مباشرة ، وهذا يجعلنا نميل الى تفسير الاحداث في ضوء هذه المقولة ، فحينما يحكم المرء قبضة يده ربما دل ذلك على ما يشعر به من غضب • على اننا اذا كنا نلمس العلاقة بين المقولات في ضوء حالاتنا الخاصة فليس معنى ذلك ان كل تفسير لسلوك الاخرين في ضوء الخبرة

الخاصة سيكون تفسيرا صحيحا • فقد نخدع أنفسنا فيما يتعلق بمشاعر نعانيها فعلا ؛ على حين تكشف تعبيراتنا الحقيقة واضحة • اذ نستطيع أن نقول لشخص ما انه يحب ، قبل أن يكون لديه وعي بذلك • تلك مسألة يحددها البحث الامبيريقي ، وليست مسألة قرار نظري •

وتختص المقولة الثانية بالعلاقة بين الأجزاء والكل • فمعنى الكلمة يتحدد على أساس العبارة او السياق الذي تظهر فيه ، والبناء الكلي للغة التي تنتمي اليها • واعني بذلك شيئا محددا بالذات هو البناء اللغوي الذي يحدد الاسم أو الفعل ، وترجمة المعاني كما تحددها القواميس • فمعنى الايماءة أو الحركة يتضح أكثر فأكثر حينما نربطهما بايماءات أو حركات اخرى ، وبالمواقف التي تظهر فيهـا • واذا عرضنـا على بعض الناس جانبا واحدا من وجه شخص ما في صورة فوتوغرافية ، ثم طلبنا اليهم تحديد مبلغ غضب هذا الشخص أو حزنه ، فان الاجابة ولا شك لن تكون محددة وثابتة • أما اذا عرضنا عليهم الصورة كاملة فـان الحكم سوف يختلف حتما ، وسيطرأ عليه بعض التحسن ، واذا ما عرضنا فيلما سينمائيا يصور الحركات والتغيرات فستكون الاحكام اكثر صدقـا لا محالة • واذا جعلنا هذا الشخص في سياق الموقف الذي يعيشه ، كأن نصوره مشتركا في تشييع جنازة مثلا ، فلن يكون هناك ادنى شك فـي قدرتنا على تفسير مشاعره • وهكذا نستطيع ان نستمر في توضيحنـا ونقول ان كل ادراك هو جزء من مجال ادراكي ، وان كل حادثة تقع في سياق زماني • ومعظم الوحدات التي تتعامل معهـا كالاجسام البشريـة والآلات والمجتمعات والنظم والدول هي كلمات مركبة تتألف من أجزاء مكونة • واستطيع ان اطبق هذه المقولة على حالة صديقي سميث بطرق مختلفة ، فحركة يده مرتبطة بتعبير وجهه ، والحركة الحالية مرتبطة بخبرة

سابقة ، وأثر حالته المزاجية على حالتي الشخصية مرتبط بتاريخ الصداقة بيننا .

على أن التفسير لا يتجه فحسب من الكل الى الجزء ، ولكنه يتخذ أيضا اتجاها عكسيا . فالكل يتحدد معناه من خلال معنى الاجزاء التي يتضمنها . فبدون ادراك المعنى الذي ينطوي عليه كل جزء من الاجزاء لا نستطيع ان نفهم المعنى الكلي واذا لم نفهم الكلمات تعذر علينا فهم الجملة . وهكذا يتميز بحثنا في المعاني بانه بحث متشابك ، فنحن ننتقل من ادراك معنى الاجزاء الى فهم الكل ، ثم الى مزيد من فهم الاجزاء .. وهكذا .

ولا يتعذر بالطبع الكشف عن الجذور الأولى لهذه المقولة في ثنايا الخبرة الشخصية . فنحن نعي ذاتنا المركبة ، في الوقت الذي نعلم فيه اننا مخلوقات ذوات بناء واحد ، ونحن ندرك العالم بوصفه يمثل وحدة متباينة ، وما يحدث لنا من حوادث يصبح جزءا من قصة حياتنا المستمرة، وهي لها معناها كمراحل محددة لحياتنا ، او فترات من مراحل اعمالنا .

أما المقولة الثالثة فهو مقولة التأثير في البيئة والتأثر بها . وهي التي اطلق عليها مصطلح مقولة القوة Power فحادثة معينة تعني لدينا شيئا ما لانها مفروضة علينا ، مثل الرائحة النفاذة التي لا نستطيع منها فكاكا ، فهي تؤثر فينا وتساعدنا أحيانا . وكذلك التغيرات التي تقوم بها ذات معنى ، والآثار التي تتركها جهودنا على البيئة . والأزمة التي حرمتني من والدي ، أو التي حرمته من عمله تعني شيئا بالنسبة لي (لكن المجاعة في الصين قد لا تعني بالنسبة لي نفس الشيء) . وهذه الشجرة تعني شيئا عندي لأنني زرعتها بنفسي ، أما الشجرة التي غرستها أنت فلا تعني عندي نفس الشيء .

واضح كيف تشتق هذه المقولة مباشرة من الخبرة الانسانية • ولقد اطلقت عليها مصطلح مقولة القوة (أو العنف) لأننا نخبر القوة حينما تتأثر بالظروف الخارجية ، أو حينما تؤثر فيها نحن • وتعادل هذه المقولة في المجال الطبيعي مقولة العلية • فكلاهما يشير الى نمط من العلاقة تتبع فيه بانتظام حادثة معينة حادثة أخرى يعتمد عليها وقوعها • ومع ذلك، فمن الضروري ان نفرق بين العلية (التي تشير الى الارتباط بين الحوادث الطبيعية ») وبين القوة (التي تعد مقولة من مقولات المعنى) ، ذلك لأن الارتباط بين الحوادث لا تخبره في الأولى ، على حين اننا نستشعره تماما كخبرة محددة في الأخيرة• فحينما الاحظ ان كرة البلياردو تصطدم بكرة بلياردو أخرى فتحركها ، فانني لا ألاحظ سوى مجرد تتابع احداث ، ولكنني حينما القي بالكرة ، او حينما تصطدم بي الكرة حينئذ اكون على وعي تماما بالعنف واذا ما تحدثت عن القوة أو العنف حينما تصطدم كرة بلياردو بكرة أخرى ، ففي هذه الحالة أكون قد اقتبست مماثلة من خبرة خاصة بي حينما أتأثر بشيء ما أو احدث اثرا فيه • واذا ما اتجهنا في المماثلة الى اكثر من ذلك سوف نقع في خطأ التشبيه • بهذا المعنى تصبح مقولة القوة هي مقولة أساسية أكثر من مقولة العلية •

والمقولة الرابعة هي مقولة القيمة Value ، وهي التي تعطينا الصورة النموذجية للحكم ، والتي من خلالها نضفي معنى على المواقف حينما نربطها بالرضاء أو عدم الرضاء ، وباللذة والالم ، وبالقبول أو الرفض • فالزهور تعني شيئا بالنسبة لي لأنني استمتع برائحتها ، وكذلك الموسيقى التي أطرب لسماعها • وهكذا تكون المواقف ذات معنى في ضوء ما تثيره فينا من عواطف سلبية أو ايجابية • أما طريقتنا في صياغة الأحكام الاخلاقية أو الجمالية أو الاقتصادية فليست هي موضوعنا ، اذ

ان الأهم والأعم هو خبرة التقويم •

وأخيرا ، سأشير الى المقولة التي ترمز الى طريقة ربط المواقف بأغراضنا وأهدافنا ، ويمكننا ان نطلق عليها مصطلح مقولة الوسائل والغايات • اذ قد يبدو شيئا ما على أنه ينطوي على معنى عندي لانه مرتبط برغبتي في تحقيق هدف معين ، فتسلق جبل مرتفع شيء له معناه عند شخص يرغب في التسلق ، لكنه لن يتضمن هذا المعنى عند شخص آخر • وهنا يتضح الارتباط بين هذه المقولة والمقولة السابقة • فقد نسعى الى تحقيق ما يدخل علينا السرور ، أو ما له قيمة بالنسبة لنا • لكننا لا نستطيع اختزال المقولتين الى مقولة واحدة • فقد ارغب في تسلق الجبل ، لكن ذلك لا يعني ان تسلق الجبال له قيمة اخلاقية أو جمالية ، او انه يجلب لي اللذة أو السرور • فليس ضروريا أن تترجم تحديد شخص معين لهدف ما الى قيمة ، وذلك بالرغم من أن تحقيق هدف المرء شيء يجلب اللذة ، لكن هذه الأخيرة مسألة مختلفة • ان الرغبة في الحصول على اللذة من أداء شيء ما لا تماثل بالضبط رغبة تحقيق هذا الشيء • فقد أطل من نافذة المصنع فألاحظ العدد والآلات المختلفة دون أن تثير اهتمامي ، على حين ان شخصا آخر قد يحصى هذه الاشياء باهتمام بالغ • وهكذا تكون نوعية الحياة الانسانية هي التي تكسب العالم المحيط بنا معناه حينما نحدد لأنفسنا مجموعة من الأهداف ونسعى الى تحقيقها • وبعض هذه الأهداف أصيل في تكويننا الفسيولوجي وفي الحاجات البيولوجية ، وبعضه الآخر نحدده نحن بأنفسنا ، أو نستمده من التقاليد •

ولما كانت هذه المقولات لها جذورها العميقة في الحياة الانسانية ــ ذلك اننا جميعا نستخدم الرموز ولنا مشاعر ، ونكافح من أجل غايات معينة ، ولدينا وعي متكامل ومعقد ــ فهي تنطبق بصفة عامة بحسب الطريقة التي نستخدمها في التفسير • ومع ذلك ، فنحن لا نستطيع أن

نكمل قائمة المقولات ، كما لا نستطيع أيضا أن نستبعد امكان وجـود مقولات أخرى ، اذ من الممكن ان تكون هنـاك مقولات نوعية تلعـب دورا مشابها في حياتنا العقلية • والمعتقدات المشتركة لجيل معـين ، أو الاطار النظري لفلسفة ما قد يعطينا المنظور الذي تدرك من خلاله معاني المواقف • مثال ذلك أن فكرة التطور قد تكون بمثابة مقولة تنظم تصورنا لتطور الدول كوحدات محددة • ولا يزال هناك جدل حول أصل هـذه الفكرة هل هي ذات جذور في خبرتنا بعملية النمو والنضج ، أم أنها نتاج الأفكار الدينية والفلسفية السائدة في حضارتنا • ومن جهة أخرى نجد أن استخدام مفهوم الطبقة الاجتماعية كمقولـة وتفسير المواقف فـي ضوئها هو بوضوح امر له جذوره في أيديولوجية معينة •

ان جانبا مما ذكرت قد يبدو أنه صياغة جديـدة لمسائل واضحـة مألوفة ، أما الجانب الآخر فهو تحليل فلسفي لبعض العمليات العقلية في ضوء المقولات • ان هذه المقولات ملائمة لمناهج الدراسات الانسانيـة تماما مثلما تلائم مقولات كانط Kant وبخاصة الجوهر والعليـة العلوم الطبيعية •

والعالم الانساني مفعم بالمعاني ، فالمواقف تفسر حينما يظهر دارس الانسانيات على المسرح ، أما المعاني التي يكتشفها الناس ، أو يضعونها على حياتهم ، والتفسيرات التي يقدمونها فهي عادة ما يعبر عنها ، ويمكن فهمها من خلال تعبيراتهم •

وهكذا تصبح مهمة الدراسات الانسانية مختلفة عن مهمة العلوم الطبيعية ••• فالأخيرة تهتم بصياغة بناءات فرضية تتعلق بتتابع وارتباط الاحداث، وتعالج الدراسات الانسانية عالما ينطوي على معنى بالنسبة للفعالية، وهي تعمق فهمنا لمختلف ألوان التعبير، انها تجعل فهمنا أكثر عمقا وتنظيما ، كما تمكننا من الوقوف على المعاني الكامنة فـي حياة الناس •

الفصل الثالث

الفهـــم

١ ـ بعض صعوبات مصطلح الفهم .
٢ ـ نحو تعريف لمصطلح الفهم .

الفصل الثالث

الفهـــم

١ ـ بعض صعوبات مصطلح الفهم .

تتضمن نظرية الفهم التي يناقشها هذا الكتاب ثلاثة قضايا رئيسية، فالفهم يمكن تعريفه باعتباره عملية معرفية متميزة ، أي أنه عملية ينتـج عنها اكتساب المعرفة ، والفهم مطلب لا غنى عنه في الدراسات الانسانية، والفهم يطبع مناهج تلك الدراسات جميعا بطابعه .

ولقد كان فلهلم ديلثاي رائدا في هذا الميدان ، ثم ما لبثت نظريته أن أصبحت جزءا من المناقشات النظرية التي صاحبت نمو علم الاجتماع والدراسات الانسانية الأخرى من خلال أعمال ماكس فيبر . ومع أنـه من الضروري في نطاق المعرفة أن نكشف عن مصادرها وأن نشير الـى السياق الذي استخدمت فيه المصطلحات واكتسبت معنى محددا ، الا أن هذا المؤلف لا يمثل مسحا تاريخيا . ان مصطلح الفهم هو بمثابة المحور الذي يدور حوله الجدل في وقتنا هذا ، فلقد هاجمه الوضعيون ، كمـا لعب هو نفسه دورا هاما في الرد على الوضعية التي حاولت أن تجمـع قواها خلال الحقبات القليلة الماضية .

غير أن الحوار حول قضية الفهم كانت تشوبه مظاهر سوء الفهم الواضحة ، فحتى أولئك الذين كانوا يعرضون نظرية الفهم متعاطفين معها ومدركين أهدافها في التغلب على ضيق نظرة الوضعية يعترفون أنفسهم بأنهم وقعوا في غير قليل من الشك والحيرة فالاستاذ آرون Aron مثلا حين يكتب عن علم الاجتماع الألماني يتحدث عن الغموض الذي يكتنف مصطلح الفهم ، ويصف الاستاذ بارسونز في مؤلفه بناء الفعل الاجتماعي المصطلح بقوله : « ذلك المفهوم الصعب الى حد ما » ، أما الاستاذ هيوجز Hughes في مؤلفه : الوعي والمجتمع ـ وذلك في معرض مناقشته لاستجابة الآباء المؤسسين لعلم الاجتماع ضد الوضعية ـ فهو يشير الى مصطلح الفهم واعتبره ممثلا لاكثر المشكلات الفكرية صعوبة واجهها في دراسته ، بل انه في رأيه « ضباب يغطي جوانب مظلمة في متاهة المناهج الألمانية للعلوم الاجتماعية » • فليس غريبا اذن ان نجد من بين أصحاب الاتجاه الوضعي من يعجز تماما عن استيعاب المصطلح •

ويبدو ان طريقة استخدامنا للمصطلح بالانجليزية والغموض الذي أحاط بما ينطوي عليه من معاني قد شجع على ذيوع سوء الفهم هذا • اذ غالبا ما نستخدم الفهم معادلا لكلمتي Grasping ' Comprehension بالانجليزية بالمعنى العام للكلمتين • ونحن نقول بهذا المعنى أننا نفهم الكلمات ، والرسائل ، واللغات ، والنظريات والموضوعات ، كالاقتصاد ، والاشياء مثل آلية السيارة ، والعلاقات مثل العلاقة بين البرق والرعد ، ونحن نذهب أيضا الى أننا نفهم كيفية حدوث الاشياء ، ومن ثم ينطبق الفهم على كل عملية معرفية • ومع ذلك فغالبا ما نستخدم المصطلح بمعنى محدد لنقصد به تلك البصيرة العاطفية التي ننفذ من خلالها الى الحياة

العقلية للاخرين • وليس ذلك مجرد تطبيق لاستخدام المصطلح على فئة خاصة من الموضوعات ــ الناس ــ ولكنه يختلف تماما عن أشكال الفهم الأخرى ، فقد يتكون عند شخص ما فهما شاملا للعالم المحيط به ، ولكنه لا يزال يشعر بأن فهمه غير مكتمل لأنه يعدم تلك البصيرة بالناس •

ويؤسس اصحاب نظرية الفهم استخدامهم للمصطلح على ذلك المعنى الذي يقصره على السياق الانساني ، وهم اذ يوضحون ذلك في أعمالهم لن يكون ثمة سوء فهم للمصطلح ، وان كان بعض النقاد يعتبرون أن ذلك يعد ضربا من الفشل ينطوي على خلط في استخدام المصطلح وجهل بمعناه المعتاد • ولقد كتب الاستاذ لندبرج G . Lundberg في مؤلفه : أسس علم الاجتماع يقول : « ان الخطأ يكمن في اعتبار البصيرة والفهم غايتان تسعى الى تحقيقهما كافة المناهج ، وذلك بدلا من التركيز على المناهج ذاتها » ، كما ذهب فون ميسز R . Von . Miesses في مؤلفه : « الوضعية » الى أن « الفهم لا يزيد عن كونه ادماج حادثة معينة في نظرية ابتدائية تغطي مجالا محدودا للخبرة••ومن العسير أن نقرر وجود فعل معين للفهم في الانسانيات يتألف من أي أكثر من مجرد الرد للخبرات السابقة ، والادماج فيما نعرفه وما هو معتاد ، وما يتكرر من ملاحظات » ، ومثل هذه التأكيدات تتجاهل بوضوح وجود اجراء متميز في الدراسات الانسانية ، ومن ثم تثبت من جديد عمومية انطباق المناهج العلمية • وهكذا ، اتسمت كتابات النقاد باللغو بدلا من الفحص النقدي لدعاوى نظرية الفهم ، وحتى اذا افترضنا ان للفهم معنى محددا ، فانهم يزعمون انه لا يمكن ان يكون له أي معنى آخر • انك لا تستطيع ان تجادل في لغو حقا ، وحتى اذا تجنبنا الحقيقة القائلة بتعدد الاستخدامات القائمة للمصطلح ، فان الاستخدام الشائع ليس مقدسا • ونحن حينما

نستخدم تعريفا مبدئيا آخر يصبح من الممكن ان نحدد فعلا محددا للفهم في الانسانيات ، لكن ذلك ليس هو السؤال الحاسم ان المسألة الرئيسية هي هل يشكل الفهم منهجا متميزا له دلالته .

وثمة سوء فهم آخر (نجده عند لندبرج) هو ذلك الذي يفترض أن الفهم منهج « صوفي Mystical » ، فاذا ما قصدنا بالفهم تلك البصيرة بالعمليات العقلية وفرقنا تفرقة حاسمة بينه وبين الاستيعاب Comprehension فهو اذن سيصبح ضربا من الحدس ، لحظة خيال مفاجئة ، أو ومضة ضوء خاطفة ، وجانب الصدق المحدود في هذه النظرة هو ان العمليات الأولية للفهم مثل فهم الكلمة مثلا يجب أن تعالج بوصفها أولية في الدراسات الانسانية تماما كما نعتبر رؤية الحوادث والاشياء مسألة أولية في العلوم الطبيعية. ويمكن وصف العمليتين بأنهما عمليتي حدس مباشرتين في هذا السياق بالذات ، برغم أنهما قد يعتبرا في سياق آخر من العمليات التي تخضع للتحليل السيكولوجي أو الابستمولوجي ، ولسوف نعود لهذه النقطة مرة أخرى .

ومع ذلك ، فليس ثمة ما يدعو الى اعتبار كل ضروب الفهم مسألة حدس . أو انها تمثل نوعا من العملية الصوفية المقدسة ، فاذا وافقنا على ذلك لتعذر تحديد مناهج الدراسات الانسانية ولكانت موافقتنا تنطوي على سخرية من هذه الدراسات ولظهر الحدس اذا حددناه بمعنى الحس الباطني ، والقفزة الى النتائج ، والشعور بالاستنارة المفاجئة في كافة مجالات الحياة ، في الطهي مثلا واثناء السير في الطريق ، وفي البحوث الكيمائية والاجتماعية . ومهما كانت طبيعة الحدس ، فان الرؤية المفاجئة لحل المشكلة تلعب دورا في حياتنا الفكرية عموما ، ولا يمكن استخدامها

التفرقة بين الدراسات الانسانية والعلوم الأخرى • ونحن نعتقد ان الحدس اساسا فجائي ولا منطقي فهيتلر Hitler – مثلا – راح يفكر تفكيرا عميقا ثم فجأة اصدر امره بدخول فرق عسكرية اخرى الى ستالنجراد ، وهذا يمثل نموذجا للانسان الذي يعتمد على الحدس • اننا يتعين ان نضبط دور الحدس في العلم ، واذا قبلنا الفكرة القائلة بأن الدراسات الانسانية تعتمد بصفة خاصة على الحدس فان ذلك معناه انكار جهود الاجتماعيين واعتبار دورهم شبيه بدور العراف الذي لا يحتاج الى الالتزام بالبحث المعملي الذي يعتمد عليه علماء الطبيعة ، كما أنه غير ملتزم أيضا باستخلاص نتائج منطقية •

وهكذا ، قد يكون فهمنا للمظاهر الطبيعية الهامة أو وضعنا لاطار من الفروض الفلكية ، هو فهم حدسي بدرجة تقل أو تكبر ، وفجائي بنفس الدرجة ، أو عقلي ومعتمد على الشواهد ، لكن هذه الخصائص جميعا لا تحدد طبيعة العملية •

٢ – نحو تعريف لمصطلح الفهم •

كنتيجة لسوء الفهم هذا ، ولغيره من أنواع سوء الفهم التي ستشغلنا فيما بعد يتعين تحديد معنى الفهم بدقة كلما كان ذلك ممكنا ، وربما لا يكون هو المعنى العادي اذ لم يسبق أن استخدمه احد من قبل بنفس هذا التحديد ، وستوضحه الأمثلة وتظهر التعريفات كيفية ارتباطه بالاستخدامات الأخرى للكلمة ، اذ أنها ستشير الى عملية أو مجموعة عمليات يمكن تمييزها عن غيرها ومن ثم تعطينا معنى واضحا محددا لنظرية الفهم •

وقد يكون المثال التالي نقطة بداية مقنعة ، دعنا نفترض انني على

وعي ــ تنيجة للملاحظة ــ بحالات اعبر عنها بقولي : « ان الرطوبة قــد أفسدت المنضدة في غرفة الطعام » ، ان أي شخص سيسمعني سيشاركني المعرفة ، فكلانا فهم شيئا ما أو علاقة بين احداث ، اما معرفتي أنا فهــي تنيجة للملاحظة ، واما معرفته هو فهي مترتبة على الاتصال • والمستمع واقع بوضوح تحت تأثير عمليتين معرفيتين ، حينما أخذ عني ما أقــول ، ثم أدرك العلاقة بين الرطوبة والمنضدة • وعلى الرغم من أن الاستخدام العادي للفهم ينطوي على العمليتين ، انني فهمت ما ذكرته ، وفهمت أثــر الرطوبة على المنضدة ، الا أنني اعتقد انه من المهم التمييز بينهما ، ومــن ثم فسوف استخدم مصطلح الفهم للاشارة الى العملية الاولى ومصطلح الاستيعاب أو المعرفة للدلالة على العملية الأخرى • وبالتحديد هناك ثلاثة عمليات رئيسية، فلقد فهم هو معنى الكلمات ، ثم اقترب من فهم أفكاري، واخيرا ادرك بعض الوقائع • ولسوف اناقش العلاقة بين العمليتين الآن، وطالما أنهما مرتبطتان اشد الارتباط فسأعتبرهما مظهران مختلفان للفهم، اذ ان العمليات الثلاث تتمركز حول فعل واحد ولا يجب ان نفكر في أنها تقع الواحدة بعد الأخرى • والحقيقة انه يمكن وصفهم بأنهــم يمثلون جوانب مختلفة لفعل واحد • ومع ذلك فالتفرقة بينهم هامة لكي تتمكن من التركيز على جانب أو آخر • فاذا كان المستمع مهتما بالاثاث حينئــذ ستكون عملية الفهم مجرد وسيلة للوقوف على بعض الوقائع التي نــادرا ما يلاحظها : أما اذا كان يشك فــي صدق ما أقول فسيركز علــى فهم الاتصال • وبعبارة أخرى حينما يكون المستمع مهتما بذاتي أنا (مثلمــا يهتم المؤرخ او المحلل النفسي) فان المعلومات الخاصة بالمنضدة لن تكون ذات قيمة رئيسية في فهمه بحقيقة ثورتي كنتيجة لما أصاب الاثاث • هنا نستطيع ان نفهم الفارق بين العلوم الطبيعية والــدراسات الانسانيــة ، فالأولى تهتم بالاستيعاب والأخرى بالفهم •

وهناك الكثير مما يمكن ان يقال لتوضيح عملية الفهم ، ويجب أن اضيف هنا نقطة هامة وهي أن الاستعانة بفكرة المستمع في المثال السابق ليست هي لب المسألة ، ولكنها وسيلة للاقناع . ومن الممكن ان نذهب الى أن تحويل خبرتي الى تصور هي بالفعل ضرب من الاتصال . وهكذا يمكن القول أن كل استيعاب ينطوي على فهم ، ومع ذلك فهذا لا يؤثر في حالتي ، اذ ان علينا ان نميز بين الاستيعاب بوصفه يعبر عن ادراك العلاقة بين الحوادث أو الاشياء وبين الفهم باعتباره يعبر عن ادراك العلاقة بين الرموز .

لقد أوضحت ان الفهم عملية متميزة لا يجب ان يختلط بالحدس الصوفي أو استيعاب اشياء أو حالات معينة، وأشرت في المثال السابق الى التمييز بين فهم الكلمات وفهم الأفكار، وبلورة هذه النقطة وتفسيرها آمل أن اكون قد قضيت على كل غموض يحيط بمصطلح الفهم . فقد أقول : « انني افهم رسالة صديقي » ، ثم استمر في القول و « كنتيجة لذلك ما يدور في ذهنه » . ومن طبيعة الاتصال الناجح ان يكون فهم الكلمات ، والاشارات ، أو صور التعبير الأخرى مؤديا الى فهم الافكار والمشاعر والمقاصد التي يعبر عنها . ان علينا ان نفرق بين هاتين الخطوتين المختلفتين في الفهم ، ويتضح ذلك حين تفشل الاتصالات ، « انني افهم كل كلمة في رسالته لكنني ما زلت لا افهم ماذا يقلقه » . وبالرغم من أن الفشل الجزئي في الاتصال يجعل تمييز الاتصالات عسيرا الا أن العمليتين ـ أي فهم التعبير وفهم ما يشير اليه ـ مرتبطتين اشد الارتباط ، او هما وجهان لعملة واحدة . اننا احيانا ما نتحدث عن فهم التعبيرات ، وأحيانا عن فهم الناس أو أفكارهم أو مشاعرهم ، لكننا حقيقة لا نستطيع أن نفهم الشخص دون أن نفهم الطريقة التي يعبر بها عن ذاته . قد يبدو ذلك كله ضربا من المبالغة والتطرف في تحليل امر واضح تماما ، لكن هناك الكثير

مما قيل عن صعوبة مصطلح الفهم وغموضه كما يستخدم فـي الدراسات الانسانية ، ولقد ركز الذين عرضوا نظرية الفهم على الحديث عن صعوبة فهم الافكار والمشاعر والمحتويات العقلية الأخرى • وحقيقة اننا نستطيع أن نصف هذا الفهم على أساس عملية اعادة التفكير او استرجاع الخبرة والتعاطف او البصيرة التخيلية • غير أننا اذا لم نوضح كيف نصل الـى هذه البصيرة فسنترك انطباعا بأننا نفعل ذلـك بواسطة عملية غامضـة ندخل من خلالها مباشرة الى عقول الناس ، وهكذا نكون قد عرضنـا نظرية الفهم عرضا غير ملائم باعتبارها نظرية رومانسية جامدة • ومـع ذلك فان الحقيقة الواضحة هي ان فهم المحتوى العقلي يحدث دائما من خلال فهم التعبيرات ، ويستخدم المصطلح الأخير للدلالة على كل مـا يعبر عن اشياء اخرى أو يدل عليها ويتضمن ذلك الكلمات والاشارات من كل نوع ، وما نطلق عليه السلوك التعبيري (مثل البكاء) •

والنقطة الهامة هنا هي اننا حينما تنظر الـى تعبير ـ أو نسمعه ـ تكون نظرتنا موجهة نحو مظاهر فيزيقية كنقطـة الحبر علـى الـورق وكالاصوات وحركات الاجسام ، فنحن نفهم ما يفكر فيه الناس ويشعرون به ، ونستمع الى ما يقولون ، وتلاحظ ما يفعلون • ولقد كان الاستاذ ناجل Nagel على حق بكل تأكيد حينما قال : « ان ملاحظة السلوك الظاهر هي المنبع الوحيـد للمعلومات لكـل مهتم بتعبيرات الآخريـن وأفعالهم » ، لكن ذلك لا ينهي مشكلة الفهم على الاطلاق •

على أن قولنا بأن الفهم يجب أن يعتمد على ادراك صور التعبير لا يضيف كثيرا الى تصورنا لفكرة الفهم كأبسط طريقة لاجراء البحوث في الدراسات الانسانية ، ولتصورنا للباحث الاجتماعي كما لو انه عـراف يجلس على اريكته • والتغيرات بوصفها مظاهر فيزيقية يمكن ملاحظتها

او اخضاعها للتجربة ، ومن ثم فهي يمكن ان تجمع وتختبر وتصنف • فقد يلجأ الباحث الى اخفاء أدوات بحثه كآلة التصوير مثلا لكي يسجل تعبيرات الأطفال أثناء اللعب،وقد يعثر على بعض النصوص العتيقة ثم يجري على أساس ما اكتشفه فيها بعض الاختبارات الكيميائية • وقد يستخدم الباحث الاجتماعي الآلات الحاسبة في تصنيف استجابات المبحوثين لأسئلة الاستبيان • وليس هناك من بين هذه الاجراءات جميعا ما يدل على الفهم ، ولكنها مقدمات للفهم وشروط ضرورية له ، اذ انه يعتمد بدوره على تلك الاجراءات لكي يتحقق الغرض منه • ومع ذلك ــ وتلك نقطة رئيسية في نظرية الفهم ــ فان الموضوع الحقيقي للدراسات الانسانية لا تجسده سوى عملية الفهم • فالباحث بالتأكيد يلاحظ وينظر ويستمع ، لكن المشاهد التي يراها ، والأصوات التي يسمعها ليست هي موضوع بحثه ، انه يهتم بالتعبيرات والتي برغم أنها مدركة بالحواس كغيرها من الموضوعات او الحوادث الا أنها تشترك في خاصية عامة مميزة وهي أن لها ــ مرجع معين ، ونحن حينما نفهم ذلك فقط تتحقق لدينا المعرفة • فالغصن الذي يسقط على الارض لا يزيد عن كونه قطعة من الخشب ، وحينما نعرف شكله وحجمه ، ونوعية الخشب ، وبتعيين الحقائق الأخرى حينئذ نكون قد عرفنا كل ما يمكن معرفته منه ، ولكن اذا كان غصن الخشب هذا مقطوع على شكل صليب ، فان هذه المعلومة لن تكون ملائمة في هذا الصدد ، لأننا لا نعرف سوى ما هو ماثل أمامنا ومن ثم لا ندرك أن الغصن على هذا النحو يصور لنا رمزا دينيا• وحينما يهيء الباحث نفسه لاستقبال المظاهر الفيزيقية يكون في موقف أولي تماما كما يدرب الفلكي منظاره ، وينكب البيولوجي على مجهره • اما حينما يبدأ الباحث في مرحلة فهم تلك المظاهر كتعبيرات حينئذ

يحصل على بعض الوقائع التي تعد كأساس للدراسات الانسانية •

بامكاننا الآن أن نصل الى تعريف محدد فالفهم هو استيعاب بعض المحتويات العقلية التي يجسدها تعبير معين ، تلك هي العملية المعرفية الأولية التي ندرك من خلالها موضوع الدراسات الانسانية ، وهي عملية لا غنى عنها في هذه الدراسات، ومايترتب عليها من نتائج مثمرة هي الهدف الذي تسعى اليه الدراسات الانسانية • والتوجيه نحو الفهم هو السمة المميزة للدراسات المهتمة بالانسان عن العلوم الطبيعية •

٣ ـ دور الفهم في الدراسات الانسانية •

وثمة مثال آخر يكشف لنا كيف ينطوي الفهم على موضوع الدراسات الانسانية ، فاذا كنت على وعي بأن طائفة من الاجسام البشرية تتحرك بسرعات متفاوتة في مكان متسع ، وتصدر عنها أصوات ذات مستوى وعمق معين ، فانني لا أواجه هنا موقفا انسانيا يحتاج الى تفسير سيكولوجي أو سوسيولوجي مهما بلغت معرفتي بهذه الأصوات أعلى درجة من الدقة • ولكنني حينما أفهم أن بعض الاشخاص الغاضبين يسحلون زنجي يحاول اختطاف امرأة بيضاء ، هنا يتمثل امامي موضوع للدراسات الانسانية • وبعبارة اخرى يتعين على أن افهم بداءة التعبير عن الغضب ، ثم بعد ذلك التفسير الذي يقدمه المشاركون في الموقف ومقاصدهم •

ولقد أشار الاستاذ ماكيفر Macivar الى نقطة مماثلة في مؤلفه عن المجتمع حين كتب يقول : « هناك اختلاف بيّن من وجهة نظر العلية بين ورقة تطير من النافذة ، وبين شخص يهرول في حشد مطارد ، فالورقة لا تعاني من الخوف ، والرياح لا تعرف أي كراهية ، وبدون

الخوف والكراهية لن يهرول الانسان ، ولن يطارد الحشد » • وغالبا ما يدعى الوضعيون قدرتهم على ترجمة مثل هذه المواقف الى سلوك بحت ، وتلك محاولات تبوء بالفشل كما ذكر هايك F. Hayek في مؤلفه : الثورة المضادة للعلم • كما أن الصياح ، والتلويح بقبضة اليد، والوجه العابس ليس بينها سمات فيزيقية مشتركة وانما تصنف جميعا في فئة واحدة لأنها تعبيرات عن الغضب • يصدق ذلك أيضا حتى اذا افترضنا بأن كل هذه الصور للسلوك تصنف معا على أساس أنها تؤدي الى نتيجة سلوكية واحدة (الا وهي تحطيم موضوع الغضب)، فتجاهل شخص معين ، واثارته ، واهانته أو حرمانه من شيء يحتاج اليه هي أشياء تختلف تماما من وجهة النظر السلوكية ولكنها كلها يحركها دافع الغضب، ولا يستطيع السلوكي تصنيف المظاهر الاجتماعية وتفسيرها اذا رفض أن يأخذ في اعتباره المظاهر العقلية التي تحرك السلوك ، وان يفهم السبب في أنها كذلك •

ولا يعني قولنا بأن الفهم عملية عامة لا غنى عنها في الدراسات الانسانية ـ لايعني ذلك أنها العملية الوحيدة التي تستخدمها هذه الدراسات أو انها شاملة أو كافية بذاتها • وأحيانا ما يذهب الوضعيون الى أن نظرية الفهم تدعى ذلك لنفسها ، وبذلك يتكون لديهم الدليل الواقعي على أن اجراءات معينة كالتعميم أو صياغة الفروض تستخدم في الدراسات الانسانية معتقدين بانها تلائم طبيعة تلك العلوم ، لقد ذهب كل من ناجل في مؤلفه بناء العلم ، وميسز في مؤلفه الوضعية ، وهمبل في مؤلفه القوانين العامة في التاريخ ذهبوا جميعا الى هذا الادعاء ذاته (وذلك بالرغم من أن همبل يسلم بأن الفهم وسيلة تعليمية طيبة) •

انني لا أعرف مفكرا جادا قد عرض النظرية كما تهاجم هكـــذا ، وبالتأكيد ان ديلثاي وماكس فيبر لم يفعلا ذلك •

لقد تحدثت عـــن الفهم بوصفه يقوم بثلاثة أدوار مختلفة فـــي الدراسات الانسانية ، فهو العملية الأولية التي نبدأ بها البحوث ، وهو في نهاية المطاف الهدف الرئيسي للبحث • واذا لم نميز بوضوح بين هذه الادوار فسيبدو الباحث الاجتماعي كما لو انه قد اتم عمله منذ أن بدأ ، ومن ثم فليس هناك ما يدعو الى تعلم عملية الفهم وتطبيقها • وينبغـــي من جهة اخرى ألا نفكر في وجود مفاهيم ثلاثة متميزة للفهم ، وانمـــا الفهم عملية مستمرة تنتقل من مستوى أولي الى مستويات أعلى فأعلى، واكثر تعقيدا حتى تكتمل العملية •

وعلينا أن نميز بين عمليات الفهم الأولية ، وعمليات الفهم العليـــا على الرغم من صعوبة توضيح الانتقال من موقف الفهم الأولى الـــى البحث العلمي الذي يسلمنا الى الفهم المكتمل • ففي المثال الذي أشرت اليه قبل قليل نلحظ أننا على وعي منذ البداية بأن هناك نشاطا انسانيا هادفا ، وأصواتا ذات مغزى ، كما اننا نسمع الصيحات ونفهمها بوصفها تشير الى عملية «اغتصاب» أو الى محاولة «تقييد زنجي بقيود معينة» • كما أننا نرى شخصا معينا يحيط شجرة بحبل فنفهم هذه الواقعة • على أن الفهم قد يعاني من بعض الثغرات تنيجة للملاحظة والاستماع وربما توجيه الاسئلة • وفي مرحلة معينة قد يرتبط اهتمامنا العلمي باهتمامي الانساني والشخصي ، وهنا نتتقل الى بحث اكثر تنظيما يمتد الى ما وراء المشهد الذي أمامنا واللحظة التي تمر علينـــا • فالظروف الاقتصاديـــة والاجتماعية في منطقة معينة ، والتكوين العقلـــي للافراد ، ومعتقـــدات المجتمع وتحيزاته هي كلها ظواهر ممكنة الفهم ، وهي بدورها تسهم فـــي فهمنا للموقف •

ولا يظهر الانتقال من الفهم الأولي الى الفهم الاعلى والاكثر تعقيدا فحسب في المواقف ذات الطابع العلمي كما اشرت من قبل ، فهو يحدث باتنظام أيضا في الحياة العادية • مثال ذلك أن فهم رسالة معينة عملية معقدة تعتمد على عمليات فهم أولية للكلمات المفردة • ولكن كيف تنتقل من الفهم الأولى الى الفهم الأعلى ، وكيف نربط عمليات الفهم ببعضها ، ذلك هو موضوع الدراسات الانسانية •

ان عمليات الفهم — كما ذكرت — هي العمليات المعرفية الأولية التي يجب آن تبدأ بها الدراسات الانسانية، ولا يعني ذلك أنه يتعذر تحليلها الى أبسط من ذلك، اننا نعتبرها أولية في الدراسات الانسانية تماما مثلما نعتبر الادراك في العلوم الطبيعية عملية أولية نجمع بها الوقائع التي تعالجها هذه العلوم • لكن ذلك لا يعني اننا لا نقع في الخطأ حينما نرى شيئا ما بل ان ذلك معناها انه لا توجد طريقة اخرى غير الاعتماد على الحواس لكي تتحقق بها من نتائجنا الأصلية ، ان غاية ما نستطيعه هو أن نعيد النظر مرة أخرى أو نقارن انطباعاتنا ، الحسية بانطباعات الآخرين • وبنفس هذا المعنى نحن قد نخطىء في عملية الفهم لكننا نستطيع اكتشاف هذا الخطأ وتصحيحه بعمليات فهم أخرى •

وعندما نشير الى الفهم في الدراسات الانسانية والادراك في العلوم الطبيعية كعمليتين أوليتين نقف من خلالهما على موضوع الدراسة في هذه العلوم فليس ذلك سوى نوع من التبسيط • فهناك أنماط عديدة للفهم في كل فرع من فروع الدراسات الانسانية وهي أنماط على مستويات مختلفة من التعقيد ، وهذه الانماط تعتبر أولية تماما كما هو الأمر بالنسبة لكل فرع من فروع العلوم الطبيعية هناك

أنماط مختلفة للادراك هي دائما نقطة البداية ، فنقد النصوص يبدأ من فهم التعبيرات اللغوية ، كما يبدأ علم الاجتماع من فهم التفاعل الانساني . واستخدام العين المجردة ، والتلسكوب ، والمجهر هي ادراكات أولية في الميكانيكا والفلك والبكتريولوجيا .

ولكل علم عناصره التي قد تخضع للتحليل الى جوانب أكثر أولية من جانب علم آخر ، فدارس الميكانيكا يدرس حركة البترول ولكنه لا يهتم بالمادة التي صنع منها هذا البترول ، كما أنه يهتم بدرجة أقل ببنائه الذري . وعالم الاقتصاد يتجاهل الخطأ اللغوي في عقد العمل ، وكذلك العمليات الفسيولوجية المصاحبة لعملية الكتابة . ونستطيع في ضوء العمليات الأولية أن تتناول المشكلات المختلفة في العلوم وأن نصل الى حلول لها . وقد يكون في وسعنا أن نصوغ تفسيرا للفارق بين الزهرة البرية والزهرة المزروعة على أساس تكوين الخلايا ، أو نفسر الوثيقة على أساس العمليات الفسيولوجية ، غير أن التفسير الأول لن يساعد البستاني ، والتفسير الثاني لن يمكننا من التنبؤ بنتائج العقد .

انني أكدت هذه النقطة بسبب ما ينطوي عليه مذهب الرد Reductionism من مشكلات ، واعني بذلك البرنامج الذي يضعه من وقت لآخر دعاة فكرة وحدة العلم ، اذ انني حاولت توضيح المكونات الأولية للمواقف لكي أفسر موقفهم . فليس هناك شك ان هذا الموقف طبق بنجاح أكثر في العلوم الطبيعية واثمر نتائج مفيدة . لكنه لا يمكن أن ينطبق بصفة عامة دون تمييز . فعلى الرغم من أن الفهم ينطوي على ادراك ، الا أن الأخير لا يرد اليه ، كما أن التعبيرات لا يمكن تفسيرها في ضوء ما ندركه من أحداث . وحتى في نطاق الدراسات الانسانية

نجد أن محاولة رد فهمنا للتعبيرات الى فهمنا للعمليات العقلية للفرد، وهي النظرة التي يطلق عليها معارضوها اسم المذهب النفسي ويسميها دعاتها باسم النزعة الفردية المنهجية ، هذه المحاولة ممكنة الى درجة محدودة جدا • ففهم المسرحية لا يعادل تماما فهمنا للعمليات العقلية عند المؤلف ولا يعتمد عليه كلية ، بالرغم من أن جوانب كثيرة من المسرحية تفهم حينما نفعل ذلك •

وأخيرا ، هناك المطلب القائل بأن الفهم يجب تناوله كعملية أولية داخل سياق الدراسات الانسانية ، ولا يعني ذلك أنه يعالج كمطلب أولي غير قابل للتحليل بعد ذلك ، اذ ان ذلك معناه انه سيكون لدينا انطباع بأن الفهم عملية قدسية غامضة • وهنا تكون المماثلة بالادراك في العلوم الطبيعية ملائمة تماما • فرؤية موضوع معين هي عملية معرفية معقدة ، واذا شك أحد في ذلك فليس أمامنا سوى الرجوع الى التحليل الشامل الذي قدمه كانط في مؤلفه نقد العقل النظري • غير أن عالم الجيولوجيا والكيميائي يسلمان ادراك الموضوعات والحوادث ويبدآن منها ، وينطبق نفس الشيء على الفهم ، اذ يستخدم عالم النفس وعالم الاجتماع هذه العملية دون حاجة الى تحليل مركباتها أو فحص أسسها النظرية ، فذلك هو موضوع الفلسفة •

وبايجاز فان الفهم أولي أو ابتدائي ، وهو عملية متكاملة نتعرف من خلالها على موضوع الدراسات الانسانية وتلعب الانماط المختلفة للفهم هذا الدور في مختلف فروع هذه الدراسات • وتلك ليست عملية غامضة غير ممكنة التحليل ، وانما هي تخضع للتحليل الابستمولوجي• وهكذا تواجهنا مهمة مزدوجة وهي اجراء البحوث على مستوين ، فلدينا من ناحية المشكلة الابستمولوجية التي يصورها التساؤل التالي،

ما هي العمليات التي يتطلبها الفهم والشروط التي ينطوي عليها ؟ وكيف ومتى نحقق فهما لنا ؟ (بعبارة اخرى ما هي معايير الفهم الصحيح ؟). ومن ناحية آخرى تواجهنا تلك المضامين المنهجية للتأكيدات التي نقدمها والتي يصورها التساؤل التالي ، ما هي بالتحديد الموضوعات التي يتناولها الفهم في الدراسات الانسانية ؟ وكيف تتجسد هذه العملية في اجراءات محددة للبحث وترتبط بالعمليات الأخرى ؟ والى اي مدى تضع أساسا مشتركا لكافة الدراسات الانسانية وما هو دورها في مختلف الدراسات ؟

ومن الضروري ان نميز بين هذين الاتجاهين في البحث . أما موضوع الاتجاه الأول فهو الفهم ، وأما الاتجاه الثاني فيهتم بكيفية استخدام الفهم كطريقة للبحث في موضوع من موضوعات الدراسات الانسانية . ويمكن تناول كل اتجاه على حدة الى حد ما . ولكي نصل الى نتائج ابستمولوجية ليس ضروريا – بل من المتعذر حقا – ان نطوف حول دائرة المناهج واساليب البحث المستخدمة في الفهم بشكل لا متناهي . والفيلسوف المنشغل بالبحث الابستمولوجي لا يهتم كثيرا بالطريقة التي يوصلنا اليها اختبار رورشاخ (بقع الحبر) الى الاستبصار. والباحث في هذا الجانب يسلم بامكانية الفهم ولا يفكر سوى في ملاءمة اجراء معين .

ومع ذلك فان نظرة عميقة للاتجاهين ستكشف لنا عن مدى الاعتماد المتبادل بينهما وملاءمة كل منهما للآخر . ويعتمد هذا الكتاب على الاعتقاد بأن الفيلسوف يستطيع أن يفيد من النظرة الدقيقة لما تقوم به الدراسات الانسانية بالفعل ، ويستطيع بدوره ان يطور اجراءاتها . والفيلسوف الذي يصوغ اطر المعرفة متجاهلا أو مشككا في الاجراءات

المعرفية المبررة براجماسيا ، أو الذي يعتمد بطريقة غير نقدية على استعارة افتراضاته من العلوم الاخرى دون أن يعترف بها نظريا يسيء الى سمعة موضوع دراسته ، ويماثل ذلك العالم الاجتماعي الذي يسيء توجيه جهوده حين يعتمد على ابستمولوجيا ساذجة • ويحدث ذلك كله حينما تجري البحوث المنهجية الدقيقة دون أن تتساءل بداءة عن مدى اسهام نتائجها في اثراء المعرفة العامة •

وتهتم الابستمولوجيا بطبيعة المعرفة ، ماذا نستطيع أن نعرف ، وما هي شروط المعرفة ؟ ويتناول علم المناهج الاجراءات التي نكتسب المعرفة من خلالها في مجالات معينة وتحت ظروف خاصة ، ولهذا فهو متصل بالابستمولوجيا لأنه يكشف عن طرق اكتسابنا للمعرفة • ومن جهة أخرى فان النتائج الابستمولوجية تتضمن مضامين منهجية ، ففي ضوئها نحدد نطاق المناهج المشروعة أو نوسعه ، ونقترح مناهج جديدة ، أو نعيد تقييم المناهج القديمة • والسلوكية على سبيل المثال تعتمد على نظرية معرفية قائمة على ملاحظة مناهج العلوم الطبيعية ، وهي تدين بوضوح بعض المناهج المستخدمة في الدراسات الانسانية ، بينما تزكي مناهج أخرى •

الفصل الرابع

الشروط الابستمولوجية للفهم

١ ـ مشكلة التعرف على التعبيرات وفهمها .

٢ ـ الشروط الابستمولوجية الثلاثة للفهم .

٣ ـ ملاءمة الشروط الابستمولوجية لمنهج الدراسات الانسانية .

الشروط الابستمولوجية للفهم .

١ ـ مشكلة التعرف على التعبيرات وفهمها .

ان الابستمولوجيا أو نظرية المعرفة هي فرع الفلسفة الذي يعالج مسألة امكانية المعرفة ، وهي تحاول أن تجيب على السؤال التالي : ما هي الشروط الواجب تحققها اذا أردنا أن نعرف شيئا ؟ ومن ثم فهي تهتم ببيان ما تتقيد به من معايير أو مبادىء تجعل الجهد المبذول في المعرفة ناجحا .

وسوف نركز نحن في ثنايا هذا الكتاب ، وفي ضوء تناولنا لنظرية المعرفة ، على العملية المعرفية التي تمثل محور الدراسات الانسانية ، ونقصد بها عملية الفهم . وهذا يعني أننا ضيقنا نطاق نظرية المعرفة هنا وحصرناها في تناول السؤال التالي فقط : ما هي الشروط الواجب تحققها لمعرفة شيء كتعبير ، وفهمه بما يحمله من سياق عقلي ؟

ومع أن الاعتبارات الابستمولوجية العامة تلائم الدراسات الانسانية، فاننا يجب أن نضع في اعتبارتا بعض الظواهر الطبيعية قبل أن نقوم بعملية فهم التعبير . وذلك لأن مثل تلك الظواهر الطبيعية تعتبر الطريق الذي تتمثل عنه كل التعبيرات ، فيجب أن نرى أشكالا وأن نسمع أصواتا ، وبالطبع فلقد أثيرت من قبل ، مسألة ثقتنا بحواسنا (اذ هي

تخدعنا أحيانا) ومسألة علاقة الحواس بالعمليات العقلية • ولن ندخل في تفصيلات ذلك هنا • ولكننا نكتفي بالقول بأن طريقة تناولنا لمثل هـذه المسائل تحدد المناهج التي يجب علينا استخدامها للقضاء على الشك • هذا ونود أن نذكر هنا على أن الشروط الابستمولوجية للادراك الحسي يجب أن تتحقق قبل أن يكون في مقدورنا فهـم أي شيء ، ومن هـذا المنطلق ندرك أن الفهم يتضمن نفس العمليات المتعلقـة بمعرفة العـالم الطبيعي •

ان المسألة الابستمولوجية النوعية للفهم تثار ونحن بصدد التأكد من وقائع الطبيعة •• اذ كيف نعرف أن استدارة البرتقالة هي تعبير ، وكيف نعرف ما تعبر عنه ، علما بأن التفسيرات لا تعطى نفسها كتفسيرات فـي عملية الادراك ؟

اننا نتحقق فقط من أن ما ندركه هو تعبير حينما نفهم أن له معنـى meaning ، أي حينما نفهم أنه يعبر عن شيء أو يشير الى شيء •

ان الذي قلناه توا يتميز عن فهم التعبير أو فهم معناه • ومن ثـم ينشأ لدينا سؤالان متمايزان الأول هو : كيف نفهم أن شيئا ما يدل علـى تعبير ؟ والثاني : كيف نفهم التعبير ؟ واضح ـ من الناحية الابستمولوجية ـ أن السؤال الأول يبدو رئيسيا أكثر من السؤال الثاني ، ذلك لأن فهم ذلك الشيء الذي يدل على تعبير شرط لا غنى عنه لفهم التعبير : ومـن ثم فيجب أن نبدأ بذكر الاعتبارات التـي تميز التعبير عـن أي ظاهرة أخرى ، لكننا يجب أن ندرك أن العمليتين لا تتمايزان تماما ، ذلك لأن التعبير يتضمن فهمه الى حد ما ومن ثم يكون التعبير هو المرحلة الأولى لاكتشاف معانيه •

ان الخاصية المميزة لكافة التعبيرات أنها تدخل في علاقة مع الأشياء

الاخرى التي تمثلها أو تشير اليها ، وهي أيضا ترتبط بالضرورة بالنشاط العقلي أو بالمحتوى العقلي الذي يثير أو يبدع العلاقة السابقة، فالمنضدة تشير الى فكرة بنفس الدرجة التـي تشير فيها الى موضوع ، الا أنـه لوحظ أن بعض الحالات تنفرد بأنها ذات طابع عقلي فقط مثل التنهيدة •

والحقيقة السابقة التي تشير الى أن التعبيرات لها صلات بالوقائع الفيزيقية من جهة وبالأفعال العقلية من جهة أخرى تحتاج منا الـى تأكيد وتعزيز نظرا لأهميتها البالغة ومغزاها الابستمولوجي • ويذهب البعض أحيانا الى أن الترابط المنتظم في خبرتنا بين واقعتين (الصوت والحيوان على سبيل المثال) يجعلنا نفهم أن واقعة منهما تكون علامة على الأخرى، تماما كما تدلنا خبرتنا على أن السحب الكثيفة يعقبها دائما سقوط المطر•• لكن الأمر ليس على هذا النحو دائما ، فمثلا يوجد ارتباط منتظم بـين توهج الضوء في عيوننا وبين فتح العينين واغماضهما على نحو لا ارادي، لكن هذا الارتباط المنتظم ـ لكونه غير ارادي ـ فانه لا يعني ان الواحد منهما يمكن أن يفهم كتعبير عن الآخر ، لكن حينما يطرف رجل بعينـه لامرأة فان ذلك يعد تعبيرا لأن الفعل العقلي تدخل فيه •

كيف نفهم اذن كون العلاقة الجزئية التي تجعل الشيء تعبيرا حاضرة؟ ان الاجابة على هذا السؤال بسيطة وواضحة وهي أن الارتباط أو العلاقة القائمة بين المحتوى العقلي وبين السلوك أو الشيء المدرك المعبر عنه انما يعطي لنا خلال خبرتنا ، ومن ثم فنحن نعيه •• اني أكون على وعـي مثلا بأني غاضب حينما أعض على نواجزي •• وأكون على وعي بقصدي في الاتصال حينما أشير الى شيء أريد الاتصال به •• وأكون على وعـي بالأفكار التي تصاحب الأصوات التي أتفوه بها ، وحينما أتعرف علـى الموضوعات والحادثات كتعبيرات فانني أتقدم باقتـراح رئيسي ينكره

أنصار المذهب الأنوى Solipsism [1] ولم تعلن عنه الفلسفات الممتدة من ديكارت الى كانط وحتى تلك التي أتت من بعده اعلانا صريحا ضمن مقترحاتهم الابستمولوجية ــ وهذا الاقتراح هو : انني لست محاطا فقط بموضوعات ولكنني محاط أيضا بكائنات تشارك معي في الطبيعة الانسانية العامة وهي الكائنات الانسانية . وطبقا لهذا فانني أتمكن من معرفة عض على نواجز أخرى غير نواجزي ، والى أصابع أخرى غير أصابعي وتشير هنا وهناك على انها تعبيرات .

ان الابستمولوجيا التي تقف على ساق واحدة تقودنا الى مصاعب لا حصر لها حين نرغب في تفسير معرفتنا بالآخرين . ان الفهم يفتح العالم على مصراعيه من أجلنا ، أنه يرتكز على سياق تفسيري ، وعلى تعددية أفراد مترابطين . ان الفهم كما حدده ديلتاي بدقة هو « اعادة اكتشاف الأنا في الغير » .

٢ ــ الشروط الابستمولوجية الثلاثة للفهم .

هناك افتراض مسبق للفهم وهو أنه توجد كائنات انسانية اخرى : وأن تلك الكائنات تتشابه معنا . ان أحد العلامات التي لا غنى عنها ، والتي نتعرف بها على التعبير هي من ثم أن التعبير يتصل بكائن انساني ، بل ويجب أن ينتج عن مثل هذا الكائن . لكن هذا وحده ليس كافيا لتمييز التعبيرات ، فعطس الانسان أو ترك آثار أقدامه على الرمال ليس من قبيل التعبير ، ان التعبير يجب أن تكون له علاقة ببعض المحتوى

---

(١) يرى أنصار هذا المذهب ان الانا هي كل ما يوجد أو يكون وانها محور الوجود كله ، وما عداها لاكون ولا وجود . المترجم .

العقلي الكامن في صميم خبرتنا الخاصة •

نحن لا نعتبر « المجدار » [1] Scarecrow بما يحمله من سلاح مرفوع تعبيرا ، لكننا نميل الى ان نعتبر حركة مشابهة تابعة من انسان على أنها تعبير عن ترحيب أو تهديد • ان أثرا على الرمال به ملامح كلمة انجليزية لا يعد تعبيرا اذا كان البحر قد أحدثه صدفة ، ولكنه يعد تعبيرا اذا كان بفعل انسان • كما أن حديث الببغاء أو تسلم الكمبيوتر لرسائل لا يعد من قبيل التعبير، لأننا نحن الذين دربنا الببغاء على الحديث، ونحن الذين صنعنا الكمبيوتر • ويتضح من هذا أن التعبير يتصل بالانسان وبالقدرة الانسانية •

الآخرون يتشابهون معنا ، ونحن نمتلك واياهم طبيعة انسانية مشتركة ، لكن هذا لا يجب أن يعني أن ثمة توحدا كاملا بين الخصائص الانسانية بحيث لا يتمايز واحد عن آخر • ان مثل هذا القول يعد سخيفا ومن السهل علينا رفضه • ويعلمنا علم النفس أن هناك فروقا فردية بين الناس في القدرة والمزاج والسمات ، كما يعلمنا التاريخ أن ثمة تفاوتا بين الناس من عصر الى عصر في النظرة والحساسية والبناء الشخصي ، كما كشفت الانثربولوجيا لنا عن كيفية استطاعة قدرات الانسان أن تتوافق بمرونة بالغة مع مختلف البيئات وأن تغير بالتالي الأنماط الثقافية •

وحينما نشير الى الطبيعة الانسانية فنحن نعتمد على ثبات الموقف

---

(١) المجدار كما يذكر « لسان العرب » هو ما ينصب في الزرع مزجرة للسباع والطير . وهو ما يعرف في مصر باسم « خيال المآتة » وفي لبنان باسم « الفزاعة » أو « خيال الصحراء » ويعرف في سوريا باسم « الصريفة » . المترجم.

الانساني في حدود معينة لا يتخطاهـا ، وعلى نطاق محدد لامكانياتـه وقدراته ، وعلى معرفة بميول وأنماط ثابتة للحياة العقلية • فمن طبيعـة الانسان انه مائت لا محالة ، وأنه يتمتع باحساسات حسيـة وبمشاعـر وبعمليات فكرية • ونحن نعلم يقينا ماذا تقصد تماما بقولنا أن لنا نوايا، وأننا ندرك المعنى في مواقف مختلفة ، ونعبر عنه • وأخيرا فاننا نستطيع أن نحصي الصلات القائمة في حياتنا العقلية ، ونعلم أن الادراكات الحسية تثير الذاكرة ، وأن المشاعر تنشأ عن الرغبات •

ونود أن تؤكد هنا على أن نكون على ألفة بكل هـذا ، لا لأننـا متمرسون في البحث النفسي أو حتى لأننا عارفون بالتحليل النفسـي ، ولكن لأننا انسانيين • اننا لو لم نعلم تلك الاشياء من خبراتنا الخاصة فلن نستطيع أن نفهم تعبيراتها ، ولا أن نفهم حتى ما هو التعبير • وهذا ليس غريبا ، فالأعمى لا يمكن أن يعرف ما هـو اللون الاحمـر ولا أي لون آخر ، والانسان المفكر الذي لا تكون لديه خبرة بما يتعلق بالفكر مـن موضوعات حسية لا يمكن مطلقا أن يفهم معنى الفكر ولا أن يفهم غرضه• ولما كنا نستطيع أن نستوعب اللغة كلغة دون الاشارة الـى تبدياتهـا الفيزيقية وصلاتها بالنوايا فان هذا الاستيعاب لا يمكن أن يتحول الـى فهم باللغة •

ان التأكيد على هذين الشرطين من شروط الفهم وهما : أنه يجـب أن يكون ثمة تعبير ، وأن هذا التعبير يجب أن ينبع عن خواص الطبيعة الانسانية المألوفة لدينا، أصبح من الأمور المسلم بها بعد ظهور كتاب هايك F. A. Hayek المسمى « بالثورة المضادة في العلم » والذي تحدث فيه عن المعتقدات والآراء التي لا تتمكن من ملاحظتها مباشرة في عقول الناس، ولكننا نتمكن من التعرف عليها من خلال أعمالهم وأقوالهم ، وما ذلك الا

لأننا نمتلك ببساطة عقولا مشابهة لعقولهم •

ان الزعم بأننا لا نستطيع أن نعرف كل ما ينطوي على قصد أو نية كالحب أو الغيرة أو الطموح أو اليأس أو الشك ، دون أن تكون لدينا خبرة بهذه الحالات ، هو زعم غير مقبول ويمكن نقده • لقد عارض الأستاذ ناجل Nagel في كتابه « بناء العلم » الرأي القائل بأننا نفهم فقط الشيء الذي يتمثل في خبرتنا الا أن التوضيحات والامثلة التي يستخدمها بغية نقد موقفنا تشير الى درجات من العاطفة قد لا تتمكن من أن نخبرها ، فيذكر ناجل مثلا أننا تتكمن من فهم انطونيو وكليوباترة أو عطيل دون أن نحب بنفس درجة حب انطونيو وكليوباترا ، ودون أن نغير بنفس درجة غيرة عطيل • ليس ثمة حاجة لانكار هذا ، اذ ليس من الواجب أن نشعر بالضبط بما يخبره ويشعر به الآخرون لكي نفهمهم، فأنا لا أحتاج الى أن أحب السيدة/سميت لكي أفهم حب السيد/سميث لها، وربما أجد نفسي غير قادر على تخيل أني أحبها ، فأكتفي بأن استمع من السيد/سميث ماذا يرى في زوجته ، لكن ما يجب أن أعلمه من خبرتي الخاصة هو كيف يعني الحب ، لأن السيد/سميث لا يمكن أن يفسر لي ذلك •

واذا أنكرنا القول بأننا نستطيع أن نفهم مالم نخبره في هذه الصورة أو تلك الدرجة ، فاننا لن نستطيع أن نتعلم أي شيء من الفهم ، كما أننا لن نستطيع أن نفهم أي شخص يختلف عنا • وفي مثل تلك الحالة فان الفهم لن تمتد دائرته، ولن يغني خبرتنا، ولن يكون منهجا نافعا للدراسات الانسانية •

ويبدو واضحا ، وبالرجوع الى الدراسة التاريخية ذاتها ، أننا نصبغ معرفتنا بالطبيعة الانسانية بتقدير كبير للآداب العظمى ، كما تتمكن من

الاتصال بكائنات انسانية أخرى • ولكن كيف يمكن أن نمر من ألفتنا بخواص انسانية رئيسية الى فهم كائنات انسانية أخرى وخبرات غريبة؟ الواقع أن مثل هذا اوقف يتضمن ثلاث عمليات عقلية مألوفة : الأولى ، أننا نضيف المحتوى العقلي المألوف لدينا الى أناس في مواقف مختلفة عن مواقفنا وهذا هو ما تؤكده نقطة التماثل أو التشابه • وعلى سبيل المثال فقد أتمتع « بلعبة التنس » ، ويتمتع سميث « بلعبة الجولف » ولكي أفهم كيف يتمتع سميث بلعبة الجولف فيجب أن أقارن بين اللعبتين ، حينئذ سأجد أن كلا اللعبتين يتسمان بملامح عامة مشتركة مثل كونهما يتمتعان بروح المنافسة ، وبالفرح بالفوز ، واحتياجهما لتدريبات وتمرينات في الهواء الطلق تؤدي الى كسب المهارة •• ومن هنا استطيع أن استنتج أن استمتاع سميث بلعبة الجولف يتشابه مع استمتاعي بلعبة التنس •

أما العملية الثانية فتتمثل في أنه توجد في كل انسان دائرة عريضة من الامكانيات أكثر من تلك التي يعيها في ذاته ، فموقف جديد ، وتحد جديد قد يستخرجا مشاعر واستجابات لم يكن الانسان يخبرها بوعيه في ذاته ، فعطيل ربما لم يكن يعتبر نفسه انسانا غيورا حتى وجد سببا لهذه الغيرة ، وعلى الرغم من أنني لم أخبر الغيرة ، فانني لو سمحت لخيالي ان يقف مثل هذا الموقف مثلا ، فسوف أوقظ مشاعري الباطنة ومن ثم أفهم المسرحية • ان مثل هذه الطريقة هي ما تتعمق به أفهامنا بالطبيعة وبأنفسنا بواسطة الآداب العظيمة •

تبقى العملية الثالثةوالأخيرة وهيتتمثل في أننا يمكن أن نفهم الخبرة العقلية ذات الشدة القصوى عن طريق الحصول على خبرة تعادلها من دائرة أكثر تواضعا ، ومن خبرات ذات درجات متفاوتة الشدة من ميادين أخرى • ويتضح هذا من مثال الغيرة لعطيل ، ومن بعض التصرفات مثل :

أنه بسبب تواضع طموحي في الترقي فانني أتمكن بجهد خيالي من أن أفهم الطموح العالي لماكبث ، وبسبب أنني أتهيب أحيانا وأقول « فهي استطاعتي قتل هذا الانسان » فأنني أقدر على أن أفهم الرغبة في القتل •

ويتمثل الشرط الابستمولوجي الأول لفهم شيء ما والتعبير عنه في ألفتنا بالملامح الرئيسية لطبيعتنا الانسانية العامة ، وبوجه خاص في رغبتنا في الاتصال وباتجاهنا نحو التعبير عن أنفسنا • أما الشرط الابستمولوجي الثاني لفهم التعبيرات ، وفي بعض الأحيان فهم أن ذلك الشيء يدل على تعبير فيتمثل في ألفتنا بالقواعد والاصطلاحات التي تحكم الأغلبية العظمى من التعبيرات • فمن الواضح مثلا أننا لا يمكن أن نفهم الجملة بدون معرفة قواعدها النحوية ، وتركيبها ، والقواعد الاصطلاحية للغة عامة، كما أننا لا نتمكن من معرفة أن حركة ما لليد ليست تمرينا رياضيا لكنها علامة على التحية الا اذا كنا على ألفة باصطلاحات وعادات سكان المنطقة ، ونفس الأمر ينطبق على قدرتنا على قراءة الخرائط ، وتفسير علامات الطريق ، والتعرف على الصياح ، وتمييز المزاح عن الاهانة •

ان هذا الذي قلناه يعد أمرا واضح الصدق فيما يتعلق بفهم أي تعبير خاص (عدا التعبيرات الطبيعية التي سأعالجها في الفصل القادم) • لكنه يوقعنا في دوار، ذلك لأننا لا نستطيع أن نفهم القواعد والاصطلاحات الا بواسطة فهم التعبيرات ، وهذا يعني ضمن ما يعنيه أن الشرط الثاني ليس أساسيا بنفس درجة الشرط الأول كما أنه يعتمد عليه : اذ الشرط الأول يمكننا تحقيقه من فهم الكائنات الانسانية وبالتالي فهم كل ما يمكن أن ينتج عنها •• ان كل ما يخلقه العقل البشري يمكن للعقل الانساني فهمه ، وذلك على عكس الظاهرة الفيزيقية ، ففي حين تكون هذه الاخيرة

غريبة وغير مفهومة ، ويكون بناؤها بالغ التعقيد ، بحيث يعجز العقل البشري عن فهمها ، تكون ابداعات الانسان أليفة لدينا ، بحيث نتمكن من فهمها ، والتعرف على جزئياتها ، لأننا نحمل سمة التآلف معهم • نعم أنني أجد فلسفة هوايتهد أو نظرية نيوتن في الجاذبية غير مفهومتين . لكن سبب عدم فهمي يرجع الى نقص ذكائي أو عدم تمرسي بالموضوعين ومع ذلك أكون على ثقة من حيث المبدأ بأن أسرار تلك الفلسفتين سوف تنكشف لعقل انساني باحث •

سال مداد الباحثين حول عيوب الدراسة الانسانية ، خصوصا حينما نقارنها بالعلوم الطبيعية ، وذهبوا الى أن سبب تلك العيوب انما يرجع أساسا الى تميز الدراسات الانسانية بالتعقيد الكبير بحيث تكون في وضع يجعلها غير خاضعة للتكميم ولا للتجريب العلمي خضوعا كاملا ، وهاهنا تكون الدقة فيها صعبة ، كما تكون الموضوعية فيما تتناوله عسيرة المنال لكن تلك العيوب ونواحي النقص هذه انما يمكن تعويضها بتلك الميزة الفريدة التي ذكرناها ونعني بها ميزة الألفة (هذه الميزة لا توجد في ميدان الطبيعة الفيزيائية ، لأنها في آخر الأمر غريبة عنا ، كما أنها لا تكشف عن عملياتها ، علاوة على أن نظرياتنا عنها ستبقى مجرد تكوينات افتراضية) • وعلى العكس من الطبيعة فاننا نخبر بأنفسنا تلك العمليات التي توجد وفقها ملامح العالم الانساني ، لكننا حينما نبدأ أبحاثنا العلمية فاننا نجد أنفسنا توا وسط الأشياء •

وبعبارة أخرى فاننا نفهم الروايات ، والأعمال الفنية ، والمؤسسات، والاقتصاد ، والتنظيمات ، والأديان ، والاصطلاحات لأننا نكون على ألفة بها ، وعلى مقدرة من اعادة تكوين العمليات التي أدت الى انتاجها ،

وفهم الاهتمامات والنوايا التي تتضمنها ، وادراك الأفكار والحالات والمشاعر التي تعبر عنها •

ولأن النشاط البشري هو الذي أبدع العالم كله ، فاننا يمكن أن نستخدم في الاشارة الى ذلك كلمة ثقافة Cultur والثقافة تتضمن هنا : اللغة والأدب والفنون والدين والقانون والعادات والفولكلور والعلم والتكنولوجيا والحرف والصناعة والزراعة والعلاقات الاجتماعية •• ان طريقة صنع الأواني ، وترتيب الأشجار وتهذيبها ، وتصور الأب لكيفية تربية ابنه هي كلها مظاهر ثقافية •

وفي كل عصر من عصور الزمان ، وفي كل موضع من مواضع المكان نجد ثقافات متباينة •• هناك أديان متباينة تباينا لا نهاية له ، ولغات متفاوتة ، وعادات زواج لا حصر لها ، ومع ذلك فان الانسان يعيش في عالم من صنعه ـ خلال سياق ثقافي ـ يمتاز بأنه كلي • وأبعد من ذلك فان كل الثقافات تحتوي على أعظم ان لم نقل على كل الملامح التي ذكرتها ، لأنها تتوافق مع متطلبات الانسان واتجاهاته • ان كل جماعة انسانية نعرفها تطور لغتها ، وتحدد قواعدها وعلاقاتها ، وتوجه طقوسها نحو قوى تعتقد أنها تحكم العالم بأسره •

يمكننا بطبيعة الحال أن ننتقل من الألفة بالطبيعة الانسانية الى معرفة كل ما يبدعه الانسان (العالم الثقافي كله) وهذا أمر ضروري لأن ذلك العالم جسد كلي من القواعد والاصطلاحات اللازمة لفهم التعبيرات، وفي هذا الصدد لا يعد ذكرنا لقواعد نوعية أو اصطلاحات فردية الا من قبيل التبسيط ، فقواعد اللغة والتركيب لا تكفي لفهم عبارة ما ، اذ يلزم أن ندرك أيضا كل القواعد المكونة لسياق جزئي ، وبالمثل فاذا أخذنا

مثالا من الفلسفة ، فانه لا يكفي أن تبحث في المعنى القاموسي لكلمات تكوّن عبارة كانط «التركيب الترانسنتندالي للوعي» كي نفهمهما، اذ القواعد التي تحكم استخدام هذه العبارة تتجسد في فلسفة كانط كلها كما جاءت في كتابيه : « نقد العقل النظري الخالص » و « نقد العقل العملي الخالص » • وينطبق هذا أيضا على محاولتنا فهم عمل المهندس : اذ يتعين علينا دراسة التكنولوجيا التي يقوم بتطبيقها •

لقد ذكرت منذ قليل فكرة وقوعنا في دور ابستمولوجي ، وسنمحص هذه الفكرة الآن • ان هذا الدور يتمثل ببساطة في أن فهمنا للعالم الثقافي كله يجب أن يكون تتاج فهمنا للتعبيرات الفردية التي لا حصر لها ــ فهذا هو الهدف النهائي للدراسات الانسانية ــ لكننا ذكرنا أيضا ــ وهذا هو ما أوقعنا في الدور الابستمولوجي ــ بأن فهم التعبيرات الفردية يحتاج الى فهم العالم الثقافي كله ، فكيف نحل هذه المشكلة ؟

نحن نحل هذه المشكلة عمليا بنوع من الحركة المكوكية •• فالفهم التقريبي لبعض التعبيرات يقودنا الى فهم تقريبي لملامح العالم الثقافي كله ، وهذا الفهم بالعالم الثقافي كله يساعدنا في المقابل على فهم تلك التعبيرات الجزئية بصورة أعظم • وهكذا تكون معرفتنا بالعالم الثقافي متحركة ذهابا وايابا ، وهي في حركتها تلك تعمق تقدم فهمنا بالعالم الثقافي وبتبدياته الجزئية في الوقت نفسه •

أما الشرط الثالث والأخير من الشروط الابستمولوجية للفهم فيتعلق بفهم السياقات المحددة التي تحدث فيها التعبيرات• وهذا الشرط واضح وضوحا لالبس فيه ، فالكلمة تكون أكثر دقة اذا فهمناها من خلال عبارة، وفهمنا العبارة من خلال فقرة ، وفهمنا الفقرة من خلال كتاب • وفهمنا الكتاب من خلال العرف الأدبي • فبمثل هذا الطريق يكتشف القارىء أو

الناقد بالأحرى معنى ما يقرأه ، وفهمه فهما كاملا • وبغية فهم أكبر يلجأ رجال الأعمال والاجتماعيون والاقتصاديون الى ربط الأفعـال بالمواقف التي تحدث فيها ، ويلجأ المؤرخ لكي يفهم رجلا مثل نابليون الى دراسة عصره وبيئته وخليفته كلها •

ان تحقيق الشرط الثالث له أهمية خاصة بالنسبة الـى الدراسات الانسانية ، ولكنه لا يخص تلك الدراسات وحدها ، اذ هو شرط ينطبق على كل المعارف والعلوم بما فيها العلوم الطبيعية ، فلكي تعلم لماذا يدور جسم سماوي في مدار معـين ، فيجب أن تأخذ فـي حسبانك الاجسام الاخرى التي تؤثر فيه ، ولكي تعلم لماذا تنمو الأزهار على النحو الـذي تنمو به عليه فيجب أن تأخذ في اعتبارك التربة والخضروات المزروعـة حولها وأحوال الطقس ، لدرجة انه قيل أحيانا أن معرفتنا بالزهرة يتضمن معرفتنا بالعالم • وبالطبع فان الرأي العـام ومتطلبات الحياة اليوميـة يرفضان مثل هذا القول الأخير ، فنحن نعلم أن ثمة أشياء جزئية وحادثات فردية رغم افتقارنا لما يسمى بالمعرفة الكلية •

ان مسألة التداخل الكامل أو الاستقلال بالنسبة للفهم تحدث أيضا بالنسبـة الـى التعبيـرات ، ففـي الطرف الأول نحـن نميـل الـى القول « هـذه مقطوعـة مـن الشعر ، ولو تكن احـدى سونيتات دون Donne الدينية •• انها كتبت لكي تفهم بذاتها ، ومن ثم فاننا نستطيع أن نقرأها ، وأن نفهمها ، بدون أن نكون حاصلين على تفوق دراسي » أما في الطرف المضاد فنحن نميل الى القول « ان عليك لكي تفهم نفس المقطوعة السابقة أن تعرف شيئا عن نظرية وتاريخ الشعر ، ولكي تقيم هذا الأنموذج فعليك أن تعلم شيئا عن الاصطلاحات والعادات الفكرية الذاخرة في عصر دون Donne وأن تعلم شيئا عن مؤلفها ذاته ، ولما كانت تلك

المقطوعة دينية فعليك أن تفهم بعض العقائد اللاهوتية المتعلقة بها ، ولكي تفهم هذه الأخيرة عليك أن تبحث في تاريخ الديانة المسيحية وعلاقتها بتاريخ الانسانية » ان هذا يؤدي دون شك الى وجوب قيامنا ببحث معرفي شمولي قبل أن تلك المقطوعة فهما حقيقيا .

ان الموقف الأول عبث مثل الموقف الثاني فكل واحد من هذين الموقفين يتطرف تطرفا مبالغا فيه ، لكن التوسط بينهما تكون له فائدة . ذلك لأننا اذا اعتقدنا أننا لا نستطيع فهم أي شيء دون أن نفهم كل شيء، واذا اعتقدنا بأننا لن نستطيع ان نصل الى الفهم الكامل بالنسبة لأية حالة فردية ، فلن تكون لدينا الشجاعة في أن نبدأ بتناول أي مسألة أيا ما كانت ، وسوف نغلق على أنفسنا دائرة بحثنا .

ان عمل الفهم ليس هو عمل كل شيء او عمل لا شيء ، اننا نحصل على فهم حقيقي في مختلف مراحل البحث ، لكن هذا الفهم يمكن أن يعمق وأن يصبح أكثرا ثراءا اذا أعطينا للتعبير الذي نحاول فهمه أبعادا أكبر . وعلى سبيل المثال يمكن أن أرى انسانا يحرك ذراعه ، وأفهم من ذلك مباشرة ــ بسبب ما أتشارك معه من خلفية من الاصطلاحات ــ انه يحييني تحية الصداقة ، ويريدني أن أعرف بأنني قريب من قلبه ، ومن هنا اشارته على أنها نوع من التحية أو التشجيع ، لكن افرض انه سألني في اليوم التالي أن امنحه قرضا ماليا فانني حينئذ افهم حقيقة اشارته واعتبرها كنوع من الرغبة في أن يفوز بالحظوة عندي حتى امنحه قرضا ، ومن هذا المثال تتضح أهمية السياق في فهم التعبيرات. ومثل ذلك ينطبق على أشياء كثيرة : فحينما ندرس لونا أو نجما أو قطعة معدنية أو زهرة فان هذه الموضوعات تكون أمامنا بطريقتها التكوينية ، لكن تعبيراتها لا تكون أمامنا كلها ، لأن التعبيرات يجب أن تفهم في سياقاتها.

وأن تشير الى ما ورائها ، ودراستها تقتضي منا الذهاب الى دوائر أبعد منها •

وعلى الرغم من أننا نستطيع ، بل ويجب ، أن نميز بوضوح بين الشرطين الثاني والثالث ، بين معرفة اللغة وبين كونها مألوفة في السياق الذي توجد فيه بعض الكلمات ، فيجب أن نعلم أنهما يميلان الى الالتقاء على مستوى النظرية ، فالثقافة الكلية هي السياق المحدد والمشخص للعمل الجزئي ، كما أن نتاج المؤلف كله يمثل الخلفية الثقافية لفهم انتاجاته الجزئية •• من أجل ذلك ثارت المشكلة الابستمولوجية التي آمل أن أكون قد وفقت من حلها وهي مشكلة الدور والتي تمثلت كما قلنا في أن التعبيرات الفردية يتم فهمها فهما أكبر من خلال سياقاتها العريضة ، وأن تلك السياقات العريضة يتم فهمها من خلال التعبيرات الجزئية •

٣ ـ ملاءمة الشروط الابستمولوجية لمنهج الدراسات الانسانية •

ان الشروط الثلاثة للفهم والتي ذكرتها توا : الألفة بالطبيعة الانسانية، ومعرفة الخلفية الثقافية ، والوعي بالسياق ، ليست شروطا مثالية وحسب، فعلى الرغم من أن الفهم الكامل بما هو فردي ، وبما يمثل الحقيقة الكلية بأبعادها التاريخية والاجتماعية هو أمر مستحيل ـ رغم كونه مطلوبا من الناحية النظرية ، فاننا نحقق فهما في كل من الحياة اليومية والدراسات الانسانية ، وهذا يعني أننا نحقق هذه الشروط في حياتنا العقلية قبل أن نجمع حروف البحث المنهجي، فنحن نكون على الفة تامة بالخواص الأساسية لحياتنا العقلية ، وتتشرب اللغة والعادات والاصطلاحات من مجموعتنا منذ الطفولة ، فاما أن تكون التعبيرات حاضرة بذاتها في سياقاتها كما تحضر الكلمات في عباراتها ، واما أن تنكشف صنوف السياق لنا خلال تتابع الحوادث •

هذا أمر مألوف ، لكن ما معنى قولنا بأن الدراسات الانسانيـــة ترتكز أساسا على ما هو مألوف ؟ ان الاطار الرئيسي لتطور الدراســات الانسانية العلمي يجب أن يدعم بعملية تجعل المألوف والمقبول من لــدى الرأي العام الشائع مفهوما فهما نسقيا ومنهجيا ، ونضالنا نحو تحقيق كامل للشروط الابستمولوجية الثلاثة يمكننا من التوصل الى فهم منهجـــي دقيق .

ان ألفتنا بالطبيعة الانسانية ، وبالفعل الانساني يمكن أن تتســع وتتعمق بواسطة الاستبطان الدقيق ، وجمع الوثائق عن ذلك الاستبطان، ودراسة الأعمال التي تعبر عن معرفتنا بالطبيعة الانسانية مثل السير الذاتية خصوصا تلك التي دبجها رجال ذوي بصيرة نافذة وعمقا في المعرفة مــن أمثال القديس أوغسطين وروسو وجوتة وجيد ، ومثل مؤلفات رجــال عباقرة يتمتعون بخيال قوي من أمثال ستندال وشكسبير ودوستوفسكي، ومثل أعمال رجال الدولة من أمثال قيصر وبسمارك . ان مثــل هــذه الكتابات تجعلنا نتعرف على ما هو أليف لطبيعتنا الانسانية .

وعلى الرغم من أننا نفهم أنفسنا في الحياة العادية بمثل هذه الطرق وطرق أخرى ، ونستفيد من بصيرة الآخرين ، وتتحقق من صدقها فــي أفعالنا ، فلقد وجد علماء النفس وعلماء العلوم الاجتماعية صعوبة فــي الاستفادة من تلك الأمور ، ذلك لأن أفعالنا تتسم بالتعقيد ، وتستعصي على التصنيف ، وعلى قابلية اختبارها موضوعيا . ومع ذلك فانه مــن الضروري واللازم للدراسات الانسانية ان تجد وسيلة للافادة من هــذه الثروة الغنية من البصيرة عن طريق جمع كمية هائلة من مادة البحث هذه وتصنيفها وتحليلها . ويجب أيضا أن نستكشف التجربة الداخلية وحكمة الشعوب لا لما يحملناه في ذاتهما من أهمية ولكن باعتبارهما أساس التطور

المنهجي لطرق الفهم • ان ما نحتاج اليه هو الوصف الكامل ، ودراسة الحالات الفردية ، ووصف كيف يخبر الناس الحياة في مواقف محددة •

نحن نرى أن هذه الألفة بالعالم الثقافي انما تتوسع وتمتد بواسطة تراكم الخبرات : الرحلات، والقراءة النسقية وما شابه ذلك• ان من واجب الدراسات الانسانية جعل معرفتنا أكثر اتساعا وذات صورة نسقية ، وفي ضوء هذا نستطيع ان ندرك لماذا كانت معرفتنا بالفيلولوجيا والدين المقارن والتاريخ وعلم الاجتماع والتي تكشف عن القواعد والاصطلاحات والعادات التي تحكم التعبيرات شرطا ضروريا من شروط الفهم •

لقد وصلنا الى الفهم الواقعي للسياق بواسطة التراكم التدريجي لمواد الدراسات الانسانية، وبالمعرفة التاريخية، والسير الذاتية ، والابحاث الانثربولوجية ، وغير ذلك من معارف اجتماعية وصفية •

ان ما أثرناه حتى الآن من مناقشات يتطابق مع نتيجتنا التي ذكرناها بادىء ذي بدء وهي أنه ليس ثمة نقطة بداية بحتة من الوجهة الابستمولوجية • ان الفكرة القائلة بأن الدراسات الانسانية ذات نسق دقيق يبدأ من بصيرة أولية ويتقدم بخطوات منطقية تجاه الفهم الكامل هي فكرة مضللة وتشبه سراب الغابات will - o - the wisp (١) •
وبدلا من أن يتقدم دارس الدراسات الانسانية في جبهة عريضة واسعة فان عليه أن يقتصر على دراسة الأسس الابستمولوجية لموضوعه، ويمكنه أن يختبر موضوعه ، ويصححه ، ويجعله واضحا ودقيقا بالرجوع الى كل

---

(١) المقصود بسراب الغابات هو توهم الانسان التائه في غابة انه يرى نورا على بعد وكأنه منبعث من منزل بعيد فاذا ما اقترب كا نهذا النور سرابا فلا يجد بيتا ولا قصرا رلا كوخا .

ما هو موجود من معارف مطلوبة له ترتبط بالحقيقة التاريخية والاجتماعية.
ان المدخل التاريخي والابستمولوجي له وظيفة محددة ونوعية، فلا يمكنه أن يحل محل البحث بحثا آخرا ولكنه يستطيع أن يوضح أعمال الباحثين ويجعلها نسقية ، وأن يوجه الباحث نحو غرضه المنشود ، وينظم النتائج من خلال الاطار الذي يوضح العلاقة المتبادلة بين كل ما هو موجود .

الفصل الخامس

التعبيرات

١ ـ طبيعة التعبيرات ووظائفها .

٢ ـ تصنيف التعبيرات .

٣ ـ المضامين المنهجية لتصنيف التعبيرات .

التعبيرات

١ ـ طبيعة التعبيرات ووظائفها ٠

تتضمن قضية الفهم كثيرا من جوانب موضوع التعبيرات ، الأمـر الذي دفعنا الى الاشارة لهذا الموضوع في الفصول السابقة ٠ والتعبيرات هي الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن يحدث الفهم من خلالها ، وهي تعـد ـ من ناحية معينة ـ الموضوع الوحيد للدراسات الانسانية ، ثم هي من ناحية أخرى الموضوع الذي يتحقق الفهم من خلاله ٠

والتعبيرات مظاهر فيزيقية نستقبلها بواسطة الحواس ، فنحن نرى الكلمة المكتوبة تماما مثلما نرى العلامات المميزة على الزهور ، ونحـن نسمع الكلمات مثلما نسمع صوت الرعد ٠ لكن الكلمات بعكس تلـك المظاهر الأخرى لها طبيعة مزدوجة فهي تحيلنا الى ما هو كامن وراءها ، وهي تجسد لنا المعاني التي يمكن فهمها ويتعذر ادراكها ٠

ولكي نستكمل تعريفنا للتعبيرات الذي سبق أن عرضناه يجب أن نوضح طبيعة تلك الاحالة ٠ ثمة علاقتان متميزتان بين المظهر الفيزيقي وما يكمن خلفه ، ووظيفتان مرتبطتان للتعبير ، الوظيفة الاولى تتعلق بالحالة العقلية التي تنشأ عنها التعبيرات وما يترتب على ذلك من وظائف تؤديها كافة التعبيرات تتصل بالتعبير عن تلك الحالة العقلية واظهارها ، فصرخة

الألم ، وعبوس الوجه مظاهر تحقق تلك الوظيفة في أكمل صورها • أما الأفعال ، وهذا هو الأهم ، فهي تحقق شيئا لا يرتبط بعالم التعبير اذ هي تكشف عن المقاصد والاتجاهات ، فاذا مزقت قطعة من الورق ، فقد يعني هذا التعبير انني أريد ترتيب مكتبي ، كما أنه يعبر أيضا عن نفاد صبري ورغبتي في الترتيب • وهكذا ، فحتى حينما تستخدم التعبيرات لتحقيق وظيفة الاحالة ، فهي تحقق في الوقت ذاته وظيفتها الأولى ، ذلك أن الحديث الموضوعي عن القطط مثلا يعبر عن مقاصد المتحدث واهتماماته واتجاهاته ، والواقع أن هناك اعتمادا متبادلا بين الناحيتين ، فاذا كانت طريقة الحديث تعبر عن خوف المتحدث ولا تكشف عن تفكيره ، ففي هذه الحالة يتعذر القول بأنه يتحدث عن القطط •

أما الوظيفة الثانية للتعبيرات فهي الاحالة Reference ، فالمظهر الفيزيقي يصبح تعبيرا محققا لتلك الوظيفة اذا ارتبط بشيء فيزيقي ما أو عقلي ، أو بفعل حادثة يشير اليها ويمثلها ، وتتحقق تلك العلاقة بفعل عقلي يظهر هو الآخر من خلال التعبير • وهكذا تعتمد الوظيفة الثانية على تحقيق الوظيفة الأولى ، فما تحيلنا اليه التعبيرات هو الذي يحدد معناها ، ومن ثم تصبح الاعلام والكلمات وعلامات الطريق تعبيرات تنطوي على معاني •

ويطلق على التنظيم الدقيق للتعبيرات من أجل تيسير مهمة الاحالة مصطلح اللغة • وهذا تعريف عام لا يتضمن فحسب لغات مثل الانجليزية أو الفرنسية ولكنه يشمل أيضا الأفكار الرياضية أو الجغرافية والقواعد المتفق عليها ، مثل القواعد المتبعة في ارسال البرقيات أو اشارات القطارات ، أو نظم اشارات المرور • واذا رمزنا لأنواع الزهور المختلفة بمعاني محددة فاننا نستطيع في هذه الحالة أن نتحدث عن لغة خاصة

بالزهور • وهناك فروق شكلية بين هذه اللغات ، فبعضها أولى ، وبعضها الآخر يعتمد على امكانية ترجمتها الى لغة عادية ، لكنهما يرتبطان معا تحت مصطلح اللغة لكي تتضح خصائصهما المشتركة •

واللغة هي نسق اصطلاحي للتعبير ، وهي اصطلاحية لانها من صنع الانسان ، ثم هي نسق لأنها كل يتألف من أجزاء تحكم العلاقات المتبادلة بينها قواعد محددة هي قواعد اللغة والمنطق ، وتلك القواعد هي التي تجعل عملية الاحالة ممكنة ومنسقة ومفهومة وفعالة • أما مكونات اللغة فيمكن وصفها بطريقتين مختلفين ، أما كما تظهر في التعبيرات الفردية المتعددة التي يعبر عنها الناس (وفي هذه الحالة استخدم مكونين للغة حين استخدم كلمة القطة مرتين) أو كوحدات تمثل المعنى الذي تشترك فيه عدة تعبيرات لا تطلق الا على فئة واحدة (وفي هذه الحالة لا توجد سوى كلمة واحدة هي القطة مثلا في اللغة الانجليزية) •

تلك معالجة مقتضبة للغة ، وان كانت أساسية ومألوفة عند دارس المنطق • وليس من الضروري هنا أن نقدم نظرية شاملة للغة ، ولكننا أشرنا فقط الى الموضوع لكي تتجنب سوء الفهم ونمهد لمزيد من مناقشة التعبيرات والعلاقات التي تشكل عملية التعبير ، والاحالة التي تحدد أيضا طبيعة التعبيرات ، هي علاقات قائمة بذاتها Sui generis لا يمكن اعادة تعريفها أو ترجمتها ، فهي متضمنة بالفعل عند استخدامنا للغة ، وهي أساسية بدرجة تفوق علاقات السببية ، اذ في ضوئها نصف العالم • والحقيقة أننا حين نحاول ، كما فعل بعض السلوكيين ، أن نجعل العلاقات بين التعبيرات وما تشير اليه مسألة خاضعة للملاحظة المنظمة نكتشف انه ليس ثمة شيء يمكن ملاحظته • حقيقة انني ابحث عن الشراب حين استشعر العطش ، لكن العلامات الفيزيقية التي أظهرها قد لا يكون بينها

شيء مشترك سوى المعنى ، فقد أطرق الحائط ، أو اومىء ، او اكتب ملاحظة أو اتحدث بالانجليزية أو الفرنسية أو الألمانية .

ومن المهم أن نؤكد أن مفهوم التعبير أوسع من مفهوم اللغة ، فاللغة بأكملها تعبير ، ولكن ليس كل تعبير لغة ، وهذه نقطة هامة فما يتعلق بتحديد دائرة الدراسات الانسانية في ضوء التعبيرات . فالتعبيرات غير اللغوية كتغيرات الوجه ، والايماءة التلقائية ، والأفعال المقصودة هي كلها تعبيرات تمنح الدراسات الانسانية شواهد تدل على حالات عقلية ، وهي مادة مماثلة تماما للمادة التي تقدمها لنا اللغة وهي تتضح بصفة خاصة حين نركز على الوظيفة التعبيرية للغة ، اذ أن هذه الوظيفة ـ وليست وظيفة الاحالة ـ هي الملائمة في هذا الصدد لأنها تحدد اتجاه الاهتمام في الدراسات الانسانية . والمثال قد يوضح الفكرة اكثر ، فالانجليز كما نعلم يتحدثون عن الطقس . اما ما يشير اليه هذا الحديث ـ كالقول بأن الطقس ممطر خلال شهر يوليو مثلا ـ فلا ينطوي على أهمية عند دارس المسائل الانسانية ، لكن التعبير ذاته وما ينطوي عليه من اهتمام بالطقس وامتثال لبعض الاصطلاحات هي بالتأكيد جوانب من موضوعه . وبعبارة أخرى تشير اللغة الى أشياء كثيرة لا تشكل جميعا اهتماما مشتركا في الدراسات الانسانية . أما ان الكائنات الانسانية تعبر عن أفكارها وتهدف الى الاتصال بعضها ببعض ، فذلك يشكل اهتماما وموضوعا هو لب الدراسات الانسانية .

٢ ـ تصنيف التعبيرات .

ان كافة التعبيرات تكشف عن محتوى عقلي ، وبعضها يحيل الى هذا المحتوى . ولما كانت هناك أنماط مختلفة للتعبير ، فان الفهم أيضا يختلف

باختلاف هذه الانماط ، وسوف يمكننا تصنيف التعبيرات من الكشف عن مدى اختلاف أنماط الفهم والصور التي يتخذها • وعلينا أن نعتمد على مبادىء مختلفة للتصنيف لكي نقسم ميدان التعبيرات • ولقد أشرنا بسرعة الى التصنيفات الممكنة حينما ذكرنا التفرقة بين التعبيرات النظرية والتعبيرات التي تقوم بوظائف أخرى ، وقد لاحظنا أن بعض التعبيرات هي تعبيرات اصطلاحية • وكل مبدأ من مبادىء التعبير يصور جانبا خاصا ينطوي على أهمية بالنسبة للمداخل المستخدمة في مختلف العلوم•

دعنا نبدأ بتصنيف التعبيرات الى تعبيرات اصطلاحية وتعبيرات طبيعية ، ان كافة التعبيرات اللغوية ، بل ان لكل التعبيرات التي تعد جزءا من اللغة بالمعنى السابق كالرموز الرياضية ، الاشارات الموسيقية •• الخ هي تعبيرات اصطلاحية ، كذلك الاشارات الأخرى مثل اشارات المرور والعلامات المميزة هي تعبيرات اصطلاحية حتى وان كان من الصعب اعتبارها جزءا من النسق اللغوي • فالايماءات لا تفهم الا في ضوء الاصطلاحات ، واسلوب التحية الانجليزي قد يبدو سخيفا في نظر الألمان ، كما أن القبلة التي نطبعها على جبين شخص ما قد تعبر للفرنسي عن صداقة متواضعة ، بينما يعتبرها الانجليزي علامة على انعدام القدرة على ضبط النفس أو الحماس الزائد •

وهناك من ناحية أخرى تعبيرات طبيعية نفهمها لأننا على انفة بالمشاعر والأفكار والمقاصد التي تصاحب بعض المظاهر الفيزيقية ، كالصيحة التي تعبر عن الألم والرهبة • ومثل هذه التعبيرات الطبيعية قد تلعب بالضبط نفس الدور الذي تلعبه التعبيرات الاصطلاحية في عملية الاتصال • فأنا أستطيع أن أعبر عن حبي بقصيدة ، كما استطيع تقديم باقة من الزهور الحمراء ، تماما كما أكشف عن حبي بابتسامة ونظرة

حالة • كما أن عامل الاشارة المختص بسير القطارات يحاول أن يستوقف القطار مستخدما اشارة متفق عليها ، أما اذا سقطت منه الاشارة ، فانه يحاول أن يستوقف القطار بحركة يديه ، وسيفهم السائق الماهر هذه الحركة بوضوح تماما كما يفهم الضوء الأحمر •

ا نالتمييز بين ما هو طبيعي وما هو اصطلاحي ليس تمييزا حادا دائما ، لأن بعض الاصطلاحات نستوعبها منذ الطفولة المبكرة من البيئة ومن ثم تصبح تعبيرات طبيعية، وأحيانا لا تعرف العنصر الاصطلاحي فيما يبدو أنه تعبير طبيعي ، فالبكاء مثلا هو تعبير طبيعي عن الألم أو الحزن ، وأحيانا عن الفرح ، ونحن قد لا نستطيع في هذه الحالة أن تضبط مشاعرنا ، ولكن الاصطلاحات تمنعنا من التمادي فيها • فخلال فترات تاريخية معينة ، في عصر هو ميروس مثلا كان الناس يعبرون عن عواطفهم بسيل منهمر من الدموع ، أما اصحاب المدرسة الانجليزية فهم لا يوافقون على ذلك مطلقا ، فأقارب الميت حينما يجدون أنفسهم لا يستطيعون البكاء غالبا ما يشعرون بالذنب لأنهم لم يكشفوا عن عواطفهم الحقيقية ، بينما قد يبكي الآخرون بكاء المناسبات • والحالات المتطرفة واضحة هنا فمن ناحية لدينا صرخة الالم المفاجئة ، ومن ناحية أخرى لدينا الصورة الرسمية ، وهكذا يتشابك العنصران الطبيعي والاصطلاحي للتعبير ، ويتعين استخلاص كل منهما بالبحث الدقيق •

على أننا قد نصنف التعبيرات أيضا على أساس كونها وسيلة للاتصال أم لا ، وهذا يتخطى التصنيف السابق ، ذلك لأن الضوء الأحمر، وحركة يدي عامل الاشارات تهدف الى توصيل شيء ما• ان كل التعبيرات اللغوية ، وكل العلامات الاصطلاحية هي وسائل للاتصال ، وينطبق ذلك أيضا حتى في حالات الكذب والخداع بالنسبة للافكار المسجلة في

يوميات سرية ، ففي الحالة الأولى يتمثل القصد فـي توصيل معلومات خاطئة ، وفي الحالة الثانية يكون القصد متصلا بصورة المـرء فـي المستقبل • والكثير من التعبيرات الطبيعية ، من جهة أخرى ، قد يكشف عن محتوى عقلي ، فاحمرار الوجه ، والضحكـة المكتومـة ، والحركـة السريعة هي حالات ممثلة في هذا الصدد •

ومع ذلك ، فان التعبيرات قد تكون اكثر تعقيدا ، حينما تكشف التعبيرات اللغوية أو الاصطلاحية عن شيء لا يكون القصد منه هـو الاتصال • فقد القى محاضرة عامة في جمعية من الجمعيات النسائيـة الحالية ، وتكون كل كلمة وكل عبارة وكل حركة تصدر عني هادفة الى توصيل نسق من الافكار ، ومع ذلك فقد تكشف هذه التعبيرات فـي الوقت ذاته ، وبدون ارادتي عن تحيز غير منطقي عندي ضد المرأة •

ولتوضيح ذلك اكثر سوف اقيم تفرقة بين نمطين للتعبير لا يهدفان الى توصيل أي شيء • فتعبير مثل احمرار الوجه خجلا ، قد لا يهـدف الى توصيل أي شيء لأنه ليس فعلا مقصودا لكنه لا يهدف الى الاتصال (أو قد لا يهدف الى توصيل ما قد ينطوي عليه التعبير) • فاذا كنـت اسير على أطراف أصابعي الى أعلى ممسكا حذائي بيدي فذلك بالطبع فعل مقصود طالما أنني لم أحاكي أو أقلد أحدا ، وأنا لا أهدف منه الى التعبير عن أي شيء ، لكنه سيبدو للملاحظ تعبيرا عن السرقة والرغبـة في اخفائها •

أما التصنيف الثالث فهو يعبر عن تفرقة واضحة ولكنها غير هامة ، ولقد سبق ان عرضناها عرضا سريعا عند معالجة التعبيرات ، اذ هنـاك فارق بين التغير المفاجيء السريع الذي يطرأ على سلوك شخص ما فـي لحظة زمنية معينة ــ مثل التعبير عن الغضب الذي يمر سريعا على وجه

شخص ما — ومن التعبيرات الأخرى الثابتة نسبيا والناتجة عن نشاط محدد يهدف الى التعبير عن شيء ما • وليست هناك نتيجة نهائية في هذا الصدد ، فاذا قطبت جبيني فلن يبقى شيء بعد أن يعود الجبين الى حالته الطبيعية • أما اذا عبرت عن رأيي في رسالة الى صديق ، فان هذا تعبير عن احساس يمكن أن يظل قائما ، وبالتالي نستطيع الاحالة اليه • فالكتاب قد يعبر عن وجهة نظر شخص ما ، ومن ثم يعد تعبيرا فلسفيا ، والمراكز الاجتماعية ، والصور ، والروايات ، والمقالات العلمية هي تعبيرات من هذا النوع • وطالما ان كافة الافعال تعد تعبيرات ، فان نتائج هذه الأفعال أيا كان نوعها هي أيضا تعبيرات دائمة ، فالكاتدرائية ، والحديقة المزينة ، والقانون أو الدستور هي بهذا المعنى تعبيرات دائمة ، ومن ثم كانت قابلة للفهم ، تلك جميعا أمور هامة حينما نحدد نطاق الدراسات الانسانية •

وثمة مبدأ رابع للتصنيف تتضمنه المناقشات السابقة ، وهو واضح تماما لا يحتاج منا سوى الى اشارة عابرة • فقد يكون التعبير بسيطا نسبيا (كالكلمة ، والايماءة ، والعض على النواجز) وقد يكون مركبا (مثل قصيدة الشعر ، أو تتابع سلسلة من الأفعال ، أو المقال) • وهكذا فاننا قد نصف بناءا مركبا من تعبيرات عديدة من وجهة نظر معينة ولهدف خاص — نصفه كتعبير وحيد •

وأخيرا ، قد نصنف التعبيرات على أساس التفرقة بين التعبير والاحالة • فقد نجمع في فئة واحدة كافة التعبيرات ذات الاحالة ، باعتبار الاحالة وظيفتها الرئيسية ، فاشارة المرور التي تكشف عن وجود منحنى في الطريق هي تعبير من هذا النوع ، وكذلك العبارة التي تقول « هناك كرسي مريح في حجرة الرسم » ، ومحاضر الجلسات ، وكتب التاريخ

الطبيعي ، والكتب التي ترشد البحث العلمي كلها تنتمي الى هذه الفئة •

والفئة الثانية تتضمن كافة التعبيرات التي ليست لها وظيفة أخرى سوى وظيفة التعبير فقط ، رغم أنها أيضا تشير الى شيء ما ، فالنفخ وتجفيف جبين المرء ، هو تعبير من هذا النوع ، والابتسامات والدموع، والبهجة واللعنة ، والشعر الهجائي والغنائي هي أمثلة مميزة لتعبيرات من هذا النوع •

والفئة الثالثة تشمل الأفعال التي تحقق غاية أخرى غير الاتصال ، ومن ثم فهي تعبر عن هدف أو اتجاه • فالقائد العسكري يقود فرقته كي يكسب المعركة ، كما يستخدم النجار أدواته في صنع المنضدة ، واللص يتحرك بطريقة مريبة لكي يختلس الهروب • في كل حالة من هذه الحالات يفصح القصد عن نفسه في الفعل ، وهو قابل للفهم اذا ما توافرت بعض الشروط •

٣ ـ المضامين المنهجية لتصنيف التعبيرات •

من الواضح أن التصنيف السابق متداخل ، ويمكن أن يستخدم في تمييز كافة جوانب التعبير بصورة أوضح • فقد يكون التعبير بسيطا أو طبيعيا ، أو عابرا ، أو غير مقصود أو نظري وثمة تعبيرات أخرى قد تكون مركبة ، أو اصطلاحية ، أو دائمة ، أو مقصودة ، أو تشير الى واقعة محددة ، ويحدث ذلك من خلال كافة التركيبات الممكنة • والهدف الرئيسي من هذا التصنيف هدف مزدوج ، فهو يحدد نطاق مصطلح التعبير كما نستخدمه في هذا الكتاب بعد تحديد كافة الصور التي يتخذها ، كما أنه قد يوجه أيضا المدخل المنهجي • والخاصية المميزة لكل

نمط من أنماط التعبير تطرح مشكلات متباينة ، وتتطلب مناهج بحث مختلفة ، غير أن البحوث التي تتناول كل أنماط التعبير يكمل بعضها بعضا •

ان التعبيرات الطبيعية عادة ما تكون تعبيرات جزئية ، غير منظمة ، وغير محددة ونادرة نسبيا ، ومن العسير غالبا أن نحدد مدى اصالتها ، وحتى بالنسبة للابتسامات والدموع قد تكون كما رأينا تعبيرات اصطلاحية • ومع ذلك فهي بالغة الأهمية بوصفها دلائل أساسية حينما لا يوجد اعتقاد عام يجعل الاتصال العادي ممكنا • فالغريب في مجتمع لا يفهم لغة سكانه ، كما قد يعتمد الانثربولوجي الذي يصل الى قبيلة بدائية على الابتسامات والايماءات ، وهو يستطيع أن يفهم نظرة الخوف وحالة الشبع ، ثم يتلمس طريقه رويدا رويدا في لغة غريبة عليه ، وربما تكون هذه هي نفس الطريقة التي يتعلم بها الاطفال اللغة •

والتعبيرات غير المقصودة قد تكون مقتضبة وغامضة ، اذ لا يستطيع سوى أبطال القصص البوليسية تشخيص نظرة الرعب • وفي الممارسة يصعب علينا أن نحدد هل احمرار الوجه يعبر عن احساس بالسعادة أم الارتباك • غير أن مثل هذه التعبيرات ضرورية للفهم ، انها تمكننا من التغلب على الخداع ، ومن اليسير أن نكذب في الكلمات لكن ليس يسيرا أن تتجنب رعشة يديك • تلك تعبيرات ، تكشف لك عن شيء ما بالنسبة أن تتجنب رعشة يديك • تلك تعبيرا ، تكشف لك عن شيء ما بالنسبة لشخص قد يجد نفسه عاجزا عن التعبير اللغوي لأنه ببساطة لا يعرف على وجه الدقة ما يريد التعبير عنه • فحينما نصادف شخصا قلقا غير مستقر نقول له « انك غير سعيد في عملك » وتكون اجابته : حقا انني لم أدرك ذلك الا بعد أن أشرت لي •

ومن الاسهامات الكبرى لفرويد معالجته للقلق والاحلام وهفوات اللسان وأخطاء الذاكرة والسلوك القهري بوصفها تعبيرات تكشف شيئا عن المنطقة اللاشعورية من العقل ، ولقد أقام مناهجه على هذا الأساس . وادرك كثير من الاجتماعيين أهمية هذا الاتجاه ، فهناك تحذيرات عديدة من مسوح الرأي العام الساذجة ، وبحوث السوق التي لا يدرك فيها الباحث مدى الخداع الذي يلون استجابات المبحوثين لأسئلة الاستبيان أو اجاباتهم على أسئلة المقابلات .

ان دراسة الأفعال السريعة العابرة والتعبيرات ، لها جوانبها الايجابية وجوانبها السلبية . فنحن نواجه التأثير المباشر لشخص ما ، اننا لا نسمع فقط الكلمات ونبرات الصوت ، ولكننا نلمح تعبير الوجه . ان كلامنا قد استشعر عدم الجرأة على أن يكتب في رسالة ما قد لا يتردد في قوله شخصيا ، كما أننا لا نجرؤ ان نقول عبر التليفون ما يمكن أن تتحدث به مواجهة خوفا من سوء الفهم . ففي المواجهة المباشرة استطيع أن أوضح أنني أمزح ، لكن كلماتي حين تكتب على الورق أو تذكر عبر التليفون قد تأخذ على أنها سباب .

ومع ذلك ، فهناك صعوبات كبيرة فيما يتعلق باستخدام تلك التعبيرات السريعة ، فحينما ينتهي التعبير لا أستطيع التأكد من قدرتي على تخفيف حدة الكلمات ؟ وواضح هنا أنه ليست هناك وسيلة للتحقق من ذلك . والباحث أيضا لا يستطيع دائما أن يكون ماثلا في الموقف . فحينما يهرب الناس من الانفجار، لا يحب الباحث أن يتواجد بآلة التصوير في الموقع ، وانما يعتمد على ما سجله شاهدوا العيان ، وعلى خطاباتهم، ووثائقهم الشخصية ، والتقارير الرسمية ، وربما على جمع تعليقاتهم .

وهكذا بدأت تظهر بعض فوائد التعبيرات الدائمة ، كما اتضحت

أيضا المشكلات المترتبة عليها ، فالتعبيرات قد تكون قديمة ومجردة ، وقد تقتطع من السياق الذي يلقي مزيدا من الضوء عليها ، ومن مهمة أخرى يمكن ادراكها وفحصها ودراستها ومناقشتها من جديد .

وعلينا الآن ان نوضح كيف نقارن بين التعبيرات في ضوء مدى قدرتها على الايضاح حينما نصنفها كمعلومات واقعية ، وكأفعال وتعبيرات نظرية .

ان الاتصال في المعلومات الموضوعية يتم عن طريق أشياء مثل اشارات المرور ، والصحف ، والجداول الاحصائية والكتب وغيرها ، وحينما نتعرف على الاصطلاحات يكون الاتصال سهلا ومحددا . ويمكننا التحقق من تلك المعلومات اما عن طريق الاحالة الى الوقائع أو المقارنة بين التصنيفات . وهذا النوع من المعلومات هام في الدراسات الانسانية، اذ لو أردنا فهم الناس علينا أن نعرف الموقف الذي يجدون أنفسهم فيه ، وما قد يعرفوه ، أو يعتقدون أنهم يعرفونه عن هذا الموقف .

ومع ذلك ، فان الركام الهائل من التعبير عن المعلومات الواقعية لا يسلمنا سوى الى القليل من الاستبصار في دراسة الشؤون الانسانية. فالكثير منها يتعلق بظواهر مثل حالة المرور ، وصلابة المعادن ، والمناخ ، والزراعة ، والمملكة الحيوانية ، ومن ثم فهي قليلة الأهمية بالنسبة للدراسات الانسانية اذا لم تعبر هي الأخرى عن شيء له دلالته عند المؤلف . وهذا النمط من التعبير غالبا ما ينطوي على قدر محدود من الاحالة الى ظواهر انسانية . فالعبارة الواقعية تحمل نفس المعنى ، لكن طريقة نطقها ومحتواها قد تلقي بعض الضوء على الكاتب . والكتاب الذي يدرس حياة الحشرات لا يحدثنا عن مؤلفه الا في أضيق نطاق ، انه يدلنا فقط على أنه مهتم بالحشرات ، كما قد نعرف أيضا انه دقيق وذكي وليس اكثر من ذلك .

والامر مختلف تماما بصدد التعبيرات النظرية التي تكشف عن طبيعة المؤلف • كما أن بعض نماذج التعبير قد تكون خادعة ـ راجع التصنيف السابق الذي ميزنا فيه بين مختلف انماط التعبير ـ • فقد يتظاهر الناس بالأسف أو التعاطف ، وقد يبتسمون ولكنهم يكمنون الشر ، وقد تمثل دموعهم دموع التماسيح ، وفي هذه الحالة علينا أن نعتمد على تعبيرات أخرى لكي نستخلص الحقيقة • واذا استطعنا التعرف على أن التعبير الذاتي غير مقصود تخلصنا من فكرة الخداع ، كما يمكننا أيضا الاعتماد على التعبيرات الفنية الأصيلة ، فهي لا تحقق أي غرض عملي يواجهنا في حياتنا اليومية ، انها تنبع عن الرغبة الشخصية في التعبير عن الذات والفكر والمشاعر •

ويهتم المؤرخون وعلماء الاجتماع وعلماء النفس والانثربولوجيون اهتماما خاصا بالالأفعال • والأفعال ليست مجرد حركات جسمية ، انها مفعمة بالأهداف ،وموجهة بالفكر ، ومستندة الى تفسير الواقع • وهي تكشف بدورها عن هذه الأهداف والأفكار والتفسيرات • والأفعال تذكر لنا أشياء أكثر مما تذكره لنا الكلمات ، ومن ثم فنحن نصنفها كتعبيرات برغم أنها قد لا تكون مقصودة هي الأخرى ، فحينما نلاحظ شخصا يرفع فأسه نفهم أنه يقصد انتزاع شجرة ، لكن الموقف عنده ينطوي على معنى محدد ، فقد تحجب الشجرة عنه الرؤية ، أو قد يسعى الى بيعها •

ويحتاج فهم الأفعال ـ كما هو شأن النماذج الأخرى للتعبير ـ الى تكامل منهجي يحقق المطالب الابستمولوجية التي أشرنا اليها في الفصل السابق • ففهم الملامح الرئيسية للطبيعة البشرية ، ومعرفة الاصطلاحات والتقاليد التي تحدد صورة الفعل وتعين سياقه ، مسائل هامة لتحليل الأفعال تحليلا مثمرا •

والمطلب الأخير له أهمية خاصة في حالة الأفعال ، لانها محددة وموجهة نحو المواقف بدرجة لا تتحقق في التعبيرات الأخرى • فقائد المعركة الحربية تحكمه طبيعة الأرض ، والقوى السائدة ، ومبلغ قوة العدو • وهذا بدوره يحدد لنا الأفعال التي يمكن أن تدلنا على طبيعة القائمين بها ، فالرواية تكشف عن جوانب عديدة من شخصية مؤلفها ومزاجه ، وعزلته ، واحساسه بالمخاطرة ، اذ هي تمنحه فرصة حرية التعبير عن ذاته • لكن الافعال لا تكشف سوى عن القدرات الانسانية الملائمة لموقف ما ، فقد يكون القائد جريئا ومخاطرا ، لكن الموقف لا يسمح له سوى بفعل دفاعي • فاذا أردنا أن نفهمه بغض النظر عن المعركة التي يخوضها ، علينا أن نتخطى سلوكه العسكري ، فندرس رسائله وتاريخه الشخصي ، ومحادثاته المسجلة ، وما يحلم به ، وما يجب أن يفعله ، فتلك أمور هامة تعادل في أهميتها أهمية أفعاله •

وفضلا عن ذلك لا تكشف الأفعال عن الدوافع التي تحركها مثلما تكشف عن المقاصد • فرؤية شخص يرفع فأسه تعلمنا أنه يريد أن يسقط الشجرة • لكننا يمكن أن نستنتج أيضا معاني أخرى في هذا الموقف كأن يكون مثلا قد فهم أن ازالة هذه الشجرة سوف تترتب عليها مجموعة من النتائج (قد يبدو هذا المثال بسيطا ، لكن ذلك راجع الى أن الموقف مألوف لدينا) • ومع ذلك فنحن لا نستطيع أن نقف على كل دوافعه في هذا الموقف • هل هو يقطع الشجرة لأنها تحجب عنه الرؤية ؟ أم يريد من ذلك ان يقنع زوجته بمبلغ قوته ؟ أم انه يريد ازعاج جيرانه ومضايقتهم ؟ وهل هو يريد ان يجعل الرياح تمر دون عائق ؟ لكي نجيب على هذه التساؤلات علينا أن نفحص مختلف الشواهد ، كتعبيرات وجهه، وتصرفاته التلقائية • وقد يكون فهم المقاصد كافيا بالنسبة لكثير من البحوث ، الا أنه في بعض الحالات يتعين علينا أن ندخل الى مجال

الدوافع • غير أن ذلك ليس أمرا ضروريا دائما ، والا كان مصيرنا هو الوقوع في الشك والريبة، ذلك أن الدافع الحقيقي خفي دائما عند الفاعل نفسه ، فكيف يتأكد الباحث من اكتشافه ؟

هكذا ، يواجه الباحث في الدراسات الانسانية بطائفة متنوعة من التعبيرات ، وكل نمط منها له مشكلاته الخاصة ، ويفتح آفاقا محددة للبحث ، اذ أن كلا منها يكشف عن جوانب خاصة للمواقف ذات المعنى، وكذلك فان فهم مختلف نماذج التعبير يعبر عن عمليات يعتمد بعضها على بعض ، ويكمل بعضها بعضا •

الفصل السادس

الفهم والمنهج العلمى

١ ـ المنهج العلمي في الدراسات الانسانية .

٢ ـ وقائع الدراسات الانسانية .

٣ ـ العلاقات القائمة بين الوقائع العقلية (العلل والاسباب) .

٤ ـ الموضوعية والذاتية .

١ ـ المنهج العلمي في الدراسات الانسانية ٠

علم المناهج هو العلم الذي يدرس المناهج التي نكتسب المعرفة من خلالها ، بينما الابستمولوجيا فهي تلك التي تدرس الشروط الرئيسية اللازمة للحصول على المعرفة ٠٠ ويعالج علم المناهج العمليات المعرفية التي تفرض على البحث مشاكل تنبعث من طبيعة موضوعاته ٠ أما المنهج فهو تجمع نسقي من عمليات معرفية ترتبط بتقنيات نوعية أو باجراءات خاصة ٠

ان عمليات مثل التصنيف والتصور والتجريد والحكم والملاحظة والتجربة والتعميم والاستقراء والاستنباط وغيرها عمليات معرفية ، والفهم أيضا يمكن أن نضعه ضمن ذلك التصنيف لأن الفهم ليس منهجا ٠ ويجب أن نذكر هنا أنه لا واحد من تلك العمليات يتصف بأنه له موضوع واحد ينطبق عليه أو بمعنى آخر ليس ثمة تطبيق خاص وبحت لأي عملية من تلك العمليات ، انها جميعا تستخدم في التوجيه العملي لكافة الدراسات والعلوم ، رغم أن لكل منها حدودها الخاصة التي لا تتخطاها ، وعلى سبيل المثال فالتجربة قد تكون مستحيلة في علم الفلك ، كما أن الفهم يجب أن يكون محددا باطار السياق الانساني ٠ لقد تمت مناقشة معظم هذه العمليات في الكتب المنطقية ، ولكننا يجب أن نقول شيئا عن الفهم اذ يبدو أن هذه الكتب لم تذكر الكثير عنه ، وفي هذا الصدد يجب أن نشير الى أن التأكيد على دور الفهم لا يتضمن أن ليس ثمة أدوار للعمليات الأخرى في مناهج الدراسات الانسانية ، فليس هناك من يدعو بشكل جدي الى تعضيد مثل هذا الرأي الذي يمكن تفنيده ودحضه بسهولة كبيرة ٠ ففي حقل الدراسات الانسانية يلاحظ الانثربولوجيون ويصنفون، ويجرب علماء النفس ويعممون ، ويتصور المؤرخون ويستنبطون ٠

أما التقنيات فهي اجراءات خاصة تتوافق مع فحص المشاكل الجزئية، وترتكز غالبا على بعض الافتراضات المنهجية : فالتداعي الحر المستخدم في علم النفس هو تكنيك ، كما أنه يرتكز على افتراضات تتعلق بما يكشفه • وبعض التقنيات تكون بالغة التخصص وبعضها يكون متوافقا مع عدة أبحاث وأغراض • وعلى الرغم من أن هذه التقنيات تكون جزءا من المنهج ، فانها انما تحكم حين استخدامها بالاعتبارات المنهجية ، بل وقد تفتح في بعض الأحيان المجال أمام امكانيات منهجية جديدة •

ولقد ناقشنا في الفصل السابق طبيعة احدى العمليات المعرفية وأقصد بها الفهم ، وذهبنا في هذا الصدد الى أن الفهم يرتبط بالدراسات الانسانية على وجه خاص ، الا أنه ينبغي حين النظر في منهج أو مناهج الدراسات الانسانية أن تنظر أيضا في كيفية قيام العلاقة بين الفهم وبين سائر العمليات الأخرى •

ولما كان الفكر الانساني منتظما بطرق متفاوتة ، ومطبقا على دوائر كثيرة ومتنوعة ، فيجب أن تكون هناك مناهج مختلفة ينبغي أن نميزها عن بعضها البعض ، فالتأمل الفلسفي يتضمن تركيبات متميزة من العمليات الفكرية ، أي يتضمن منهجا خاصا في البحث ، ونفس الشيء ينطبق على التأمل الأخلاقي ، وعلى التقدير الجمالي • وبالطبع فان مثل هذه المناهج ليست هي المناهج المستخدمة في دائرة العلوم الطبيعية ، التي تستخدم بدورها مناهج أخرى تمكن العالم من الحصول على معرفة نسقية دقيقة بالوقائع الموضوعية • من أجل ذلك نحن نقول أن كلا من العلم والدراسات الانسانية يستخدم المنهج العلمي ، لكن النسق العلمي يختلف عن نسق الدراسات الانسانية فقط فيما يتناولانه ، فيتناول الأول الوقائع الموضوعية ، ويكيف الثاني المنهج لبعض المتطلبات أو

المسائل الخاصة • وها هنا يقع الاختلاف بين العلوم وبين الدراسات الانسانية •

ان ماهية المنهج العلمي تتمثل في تلك العلاقة الحميمة والنسقية والقائمة بين التنظير والخبرة • وغالبا ما تستخدم الملاحظة والتجربة تقنيات دقيقة ، تمكنهما من امداد التعميمات والفروض العلمية بالمواد اللازمة لهما ، لكن هذه التعميمات وتلك الفروض تصبح بعد ذلك عرضة للاختبار أي عرضة للتحقق من صدقهما أو كذبهما ، فاذا ثبت التعميم أو الفرض العلمي أمام الاختبار أصبح قانونا علميا ، واذا كان الأمر عكس ذلك بحثنا عن تعميمات أخرى أو فروض علمية أخرى ، هذا ونحن نتأكد من صحة التعميمات أو الفروض بملاحظات وتجارب أخرى • ان هذا الوصف المبسط للمنهج العلمي في اطار العلوم الطبيعية مثلا يكفينا هنا طبقا لأغراض هذا البحث• وبالتالي فليس من الضروري أن ندخل في مناقشات تجري الآن حول الأهمية النسبية لكل خطوة من خطوات المنهج التجريبي، وحول النظام الذي تحدث وفقه ، أو يجب أن تحدث وفقه •

ان القول بأن الدراسات الانسانية تستخدم المنهج العلمي كما حددناه ، هو قول لا جدال فيه، فنحن لا نجد أمامنا أي رأي حول الطبيعة المحددة للدراسات الانسانية يتناقض مع هذا القول • لكن يحدث أحيانا أننا نبقي كلمة « علمي » للبحث المرتكز على القياس والتحكيم الفيزيقيين، فاذا حدث هذا ، أمكن لنا أن نصف الدراسات الانسانية بأنها « لا علمية » • لكن مثل هذا الرأي الأخير يمثل تصورا تعسفيا وضيقا لطبيعة المنهج العلمي ، بحيث اذا استطعنا أن نحدد ذلك المنهج تحديدا أوسع وأكثر شمولية ، فاننا سوف نلمس ان باستطاعتنا استخدام المنهج العلمي في حقل الدراسات الانسانية استخداما كبيرا • واذا تم ذلك

فسوف نجد في صميم الدراسات الانسانية توضيحات غزيرة للادلة التي تم جمعها بدقة ، وتعميمات لتجارب ماهرة وذكية ، وصياغات لاطارات تم وضعها بعناية ، واختبارات تتحقق من صدق الفروض أو كذبها •

وبعد أن شيدنا المنهج العام للدراسات الانسانية تشييدا يتصف بأنه علمي ، فان علينا أن نبحث في دور الفهم خلال هذا المنهج • لقد أكدنا سابقا على أن العملية المعرفية أو العملية العقلية ، التي هي الفهم ، ليست منهجا ، وهي من ثم ليست بديلا للمنهج العلمي ، لكن التحليل العميق يرينا بوضوح ان هذا لا يمثل الا نصف الحقيقة ، وها هنا ندرك صعوبة اقامة تمييز حاسم ، ذلك لأن العمليات العقلية يتضمن بعضها البعض الآخر ، فالتصنيف يتضمن التجريد وغيره من عمليات عقلية أخرى بحيث يبدو الأمر على أن التصنيف تجمع من العمليات (التي هي جزء من تعريف المنهج) وبحيث يصبح التمييز بين العملية العقلية وبين المنهج راجعا الى الاختلاف بينهما في درجة النسقية ليس الا • أن ما ينطبق على العلم التجريبي هنا ينطبق أيضا على الفهم ، فحينما نفكر على سبيل المثال في حالة فهمنا لقصيدة شعرية فاننا ندرك مباشرة أن ثمة تجمعا كبيرا من العمليات العقلية تتشارك في فهمنا هذا ، أو بمعنى آخر ، نرى عمليات عقلية كثيرة متضمنة في ذلك الفهم •

لكن هذا الأمر ليس دقيقا تماما ، ذلك لأن الفهم لا يمكن معالجته باعتباره عملية عقلية واحدة لها مكانها المحدد الذي لا تتعداه بالنسبة الى العمليات الأخرى وبالنسبة الى المنهج المتبع في الدراسات الانسانية • ان الفهم ليس شيئا نلجأ اليه في مرحلة معينة محددة من مراحل البحث • ان القول بأننا نبدأ بجمع المادة ثم نمارس الفهم (أي فهم المادة) ثم نصيغ الفروض ونخضعها لاختبار يبين صحتها أو كذبها ثم نصل الى القانون

فالنظرية هو قول لا دليل عليه • كما أن الرأي القائل بأن الفهم لا يشكل الا حيلة أو وسيلة تستخدم في صياغة الفروض التـي يجب أن تخضـع لاختبار له اجراءات لا تمت للفهم بصلة هـو رأي مرفوض • ان الفهـم متضمن في كل العمليات العقلية المستخدمة في حقل الدراسات الانسانية، انه يحور العمليات أو يعدلها ، وهو بهذه السمات يميز مناهج الدراسات الانسانية عن مناهج العلوم •

ويمكن أن نوضح ما ذكرناه في الفقرة السابقة توضيحا أكبر بذكر مثال نستقيه من حياتنا اليومية العادية حيث يعمل الفهم فيها بطريقة مألوفة لدينا ، لكننا ــ وكما سيتضح من هذا المثال سنلمس أن دور الفهم فـي حياتنا اليومية يتطابق تماما مع دوره في البحث العلمي • وهاكم المثال : اذا سألني صديق بأن أراه بعض الوقت ، فكيف أتمكن من أن أعـرف أنه قد وجه لي الدعوة لزيارته ؟ قد يمكنني معرفة ذلك عـن طريق فهم كلماته ونواياه معا، ولكن لكي أكون قادرا على فهم ذلك فيجب أن تكون لدى معرفة باللغة التي تحدث بها ، وبما توافق عليه الناس في مجتمعنا ، وبملامح شخصية الصديق ، ومثل هذه المعارف تتضمن فهما ــ لـكن لنفرض أن الشك قد تسرب الى نفسي ، وأحسست لحظة بأن كلمـاته ونواياه يمكن ألا تعني أنه يدعوني الى زيارته فماذا أفعل ؟ ها هنا يمكن لي أن أقوم باختبار فهمي ، أي أن أتحقق من صحة أو كـذب فرضي ، وهذا لا يمكن أن يتم الا باستخدام أفعال فهم أكثر ، فاذا اعتقدت بأنني أسأت فهم كلماته فيمكنني أن أسأله اعادة دعوته أو اعادة صياغة كلماته حتى أفهمها • واذا شككت في نواياه أو مقاصده فانني استطيع أن أذهب الى منزله وأرى تعبيراته المفاجئة • وأن أحكم حينئذ بما اذا كان سعيـدا بلقياي أو غير سعيد •

هذا المثال يتضمن عمليات مختلفة ، اذ يجب عليّ وفقه أن ألاحظ

التعبيرات وأصنفها ، وأن أصيغ الفروض واختبرها ، وان اتحقق بالتجربة من صحة الفروض أو كذبها • والفهم متضمن في كل تلك العمليات • انني لا أستطيع أن أفكر في أية وقائع موضوعية تؤيد أو تهدم نتائجي وتكون غير متضمنة للفهم •

ومثل هـذا ينطبق علـى اجراءات Procedures الـدراسات الانسانية • ويمكننا القول بأن الوقائع التي تؤلف موضوع بحث مـا ، اذا ما أردنا أن نتحقق من صحتها تجريبيا ، فاننا سنجدها وهي متضمنة للفهم ، وحينما ينحت المعماري قبرا أو يقيم بناءا فانه يجب أن يتحقـق من بعض الوقائع الصعبة : فيقيس الاشكال والأحجام ويحصي اكتشافاته، ومع ذلك فهو في خلال هذا الوقت كله يحتفظ بمقياس الفهم أي يحتفظ بالوعي بأنه يعالج شيئا يخدم الأهداف الانسانية • ان خطواته المثاليــة لا تقوم الا بتصحيح وتعميق فهمه فقط • كما أن المؤرخ الذي تكون مصادره المادية بعض الخطابات ، وبعض أوصاف شاهد عيان، والسجلات الادارية، والوثائق الشرعية يجب أن يكون الفهم حاضرا لديه باستمرار • كما أن السيكولوجي لا يراقب الموضوعـات فقط ، أو يستمع الـى الأصوات وحسب ، انه يستمع لما يقوله الناس له ، ويـدرس أفعـالهم القصدية ، ويراقب استجاباتهم لاختباراته • وحينما يـلاحظ عالم الانثربولوجيـا الرقص الشعائري فانه لا يرى مجرد حركات راقصة وحسب، بل انه يدرك أفعالا ذات معنى بحيث اذا نتجت نفس الحركات السابقة من نوبة صرع فانه لا يهتم بها •

ان كـل هؤلاء العلمـاء يبدأون الفهم حـين يبدأون الملاحظـة ، وحينما يتابعون خطوات أخرى غير خطوة الملاحظة هذه ، فان الفهم يكون متضمنا أيضا في تلك الخطوات ، فتصنيف المقابر ، وايجاد علاقـة بـين

الوثائق وبين حوادث معينة ، والرقص المعبر عن الطقوس أو المؤدي الى الخصب والانماء ، والاستجابات السيكولوجية واعتبارها أعراض عصبية أو غير عصبية ، كلها تتضمن عملية الفهم •

ان صياغة الفروض المرتكز على الاستدلال من تلك الوقائع ذاتها يمثل مغامرة جديدة لفهم لم تكتمل صورته تماما أي لم تتحقق بعد من صحته أو كذبه • فترتيب المقابر يفترض الاعتقاد ببعث الأجساد ، والرقص الشعائري تعبير عن الخوف من قوى تفوق الطبيعة، والمرض العصبي ينتج عن احباطات جنسية • هذه أنماط من الفروض التي يمكن ان تتوصل اليها والتي يمكن أن تخضع للاختبار، واختبارها أي التحقق من صحتها أو كذبها يعتمد على أدلة وبراهين أكثر ، لكن هذه الأدلة أو تلك البراهين يجب أن تكون مستقاة من نفس النوع الذي بزغ عنه الفرض أساسا •

سأذكر الآن ـ بدلا من هذه التوضيحات التي تشير الى خطة ـ مثالا منبعثا من ابحاث واقعية سوف أعود اليه مرارا لتحقيق عدة أغراض ، والمثال مقتطف من كتاب يسمى «الشخصية التسلطية» The Authoritorian Personaliiy • ويدور هذا البحث حول فكرة التعصب العنصري Racial Prejudice وبالطبع فلا بد من أن يكون لدينا فهم أولي بما يعنيه الباحث بالتعصب العنصري ، ومن أجل هذا نجده يحدد معناه قبل أن يقدم على بحثه حتى نكون على دراية ـ بادىء ذي بدء ـ بالمتعصبين عنصريا • أما الخطوة الثانية فتتمثل في ايجاد أمثلة على هذا التعصب من خلال التراث الجاري ، وذلك من أجل استخدامها في تصميم استبيانات• ان الاجابات على هذه الاستبيانات ونتائج المقابلات والاختبارات الأخرى تمدنا بمادة ذات معنى • وهذه الأخيرة هي التي نفهمها • اننا حينئذ فقط تمكن من تقييم النتائج احصائيا • لكن لنتوقف هنا عند الفهم قليلا ،

ان دوره الآن أصبح يتمثل في ادراك لماذا كانت اجابات بعض الاسئلة قادرة بصورة أفضل من الأخرى على تمييز ما هو متعصب عنصريا عن ما هو ليس بذلك ، وأي الأسئلة كان أقدر من الأخرى على توضيح هذا التمييز . والنتائج التي تتوصل اليها الدراسة هي أيضا موضوع فهم لأنها تتبلور في قضية تقرر بأن التعصب العنصري تعبير عن بنيان شخصي معين .

ومن ثم يتضح لنا أن المنهج العلمي المستخدم في الدراسة الانسانية يتضمن الفهم على كل مستوى ، ان الوقائع التي قد تكتشف يجب أن تفهم الى مدى محدد في البداية ولكن التقدم في البحث يعمق الفهم ويصححه .

٢ ـ وقائع الدراسات الانسانية .

لما كان الفهم متضمنا على هذا النحو الذي ذكرناه في كل العمليات، لذا فيجب أن تتطلب الواقعة الموضوعية معنى محددا في الدراسات الانسانية . نحن عادة ما نعتقد بأن الوقائع الموضوعية كالحوادث الفيزيقية وما يماثلها من حالات هي وقائع يمكن أن تلاحظ بالحواس ، ويتثبت الآخرون منها عن طريق الحواس أيضا . لذا فاننا حينما نقول بأن وقائع الدراسات الانسانية لا تنكشف لنا قط الا عن طريق الفهم ، فاننا انما ننكر مثول تلك الوقائع أمام حواسنا . لكن الحقيقة هي أننا نرى شيئا ، ومع ذلك فهذا الذي نراه ليس موضوع بحثنا في الدراسات الانسانية ، بمعنى أنه ليس واقعة من وقائع تلك الدراسات : نحن نرى حفرة في الأرض ، ولكننا لا نرى مكانا معدا لجسد ينتظر أن يبعث بعد الموت ، ونحن نرى رجلا بدائيا يهز أطرافه ، ولكننا لا نرى فعل التكفير

الشعائري عن ذنب ما • ونحن نرى علامات على الورقة ، ولكننا لا نرى رسالة تنم عن ذكاء ، وبعد فهذه أمثلة على وقائع الدراسات الانسانية : « بعض القدماء يعتقدون بالبعث بعد الموت » و « طموح رجل السياسة » و « تخاف القبائل من غضب الأرواح » • بمعنى آخر ، تتمثل وقائع الدراسات الانسانية في الأفكار والمشاعر والنوايا ، وهي تلك التي يعبر عنها الناس بأفعال فيزيقية • ان هذه الوقائع تتميز دائما بكونها ذاتية، لأنها تكون على الدوام أحوالا للذات •• اننا نبحث هنا عن ما يشعر به الانسان ، وكيف يخبر موقفه ، وكيف يرى العالم • (لا تعنى الذات هنا بالضرورة شخصا فرديا ، بل يمكن أن تشير الى مجموعة من الناس • اذ يمكننا أن نتحدث عن الذات باعتبارها مشيرة الى مشاعر الاسرة أو اتجاه نقابة) •

ان فهمنا لتعبيرات تلك الأحوال الذاتية يجعل وقائعنا المعطاة قصيدة لا مجرد علامات على ورقة ، وعبادة لا مجرد حركات • ويمكننا أن نكرر فعل الفهم ، وأن نقارنه بفهم ملاحظين آخرين ، ومن ثم فان أحوالا مثل X يحب Y أو Z ينظر الى العالم بمنظار أسود تحتل موضع الوقائع الموضوعية ، ومع ذلك فيجب أن تتذكر دائما أن كل واقعة موضوعية من هذا النوع تحتفظ بالحالة الذاتية التي تختلف تماما عن الواقعة الموضوعية حسب مجرى الحديث العادي • ومن أجل الاختصار سوف أطلق على هذه الوقائع الموضوعية اسم الوقائع العقلية •

ونظرا لأهمية تلك الفكرة فسوف أعيد صياغتها بكلمات جديدة • اذا أردنا معالجة تفسير الواقع ، فلن نجد أمامنا الا الوقائع وطبيعتها ، لكن هذا التفسير كثيرا ما يشير الى وقائع ذات نظام آخر تكون خارج دائرة الدراسات الانسانية • ومن ثم فانه على الرغم من أن الواقعة

الموضوعية تتمثل في الدراسات الانسانية طبقا لوقائعها ووفقا لطبيعة هذه الوقائع ، فان هناك دائما ــ حين نفسرها ــ تطلع نحو عدم الالتزام بهذه الوقائع وحدها واللجوء الى وقائع من دائرة أخرى قد تخرج عن دائرة الدراسات الانسانية ذاتها.فثمة واقعة موضوعية تهتم بها الدراسات الانسانية وهي واقعة اعتقاد الاس بوجود اله ، وتأثير هذا الاعتقاد على أفعالهم . لكن تفسير هذا قد لا يرتبط بهذا وحده ، ويقودنا نحو السؤال « هل الله موجود أو غير موجود » ، ان الاجابة على السؤال الأخير تندرج في دائرة غير تلك التي ننظر فيها . ومن هنا يجب علينا أن نميز بين الاعتقاد وبين صحته ، كما نميز بين الاعتقاد بكون قرن الحيوان وحيد القرن مثيرا جنسيا وبين صحة هذا الاعتقاد .

هناك علاقة واضحة بين هذه الأنماط من الوقائع المرتبطة بالدراسات الانسانية ، الا أننا يجب أن نعلم بأن الاعتقاد هو حكم مسبق قد يخطيء فيه الفرد أو يضلل أو يخدع أو يكون غارقا في الخيال ، وهذه تتضح بجلاء حين مقارنتها بالوقائع الفيزيقية . ومع ذلك فيجب أن نؤكد على هذا التمييز لأن الأحوال الذاتية (فيما يتعلق بوقائع الدراسات الانسانية) تكون واقعية سواء أكانت مرتكزة على سوء فهم أو غير ذلك . ويمكن أن يتضح هذا في سياق أو آخر ، وسنضرب على ذلك مثالين : فحينما طور فرويد مناهجه في الرجوع الى ذكريات الطفولة عند المرضى العصابيين، وجد نفسه مواجها بطائفة هائلة من الظواهر مثل الزنا بالمحارم والاغتصاب الجنسي ، لقد صدم أول الأمر بظواهر الفسق والفساد الشائعة بين أفراد الطبقات الوسطى في فينا ، لكنه أدرك مؤخرا انه انما يعالج خيالات ولا يعالج أحداثا تقع بالفعل . ان هذا الخطأ قد حدث لأن الخيالات هنا قد تم ادراكها وكأنها ذكريات لحوادث واقعية وفعلية .. انها تلعب نفس

الدور في الحياة العقلية للفرد كما لو أنها كانت قد حدثت بالفعل .. انها ذاتية ولكنها فعلية .. انها خبرات تنتج أعراضا عقلية سواء أكانت تلك الخبرات مرتكزة على وقائع أم لا .. ان علاج مثل هـذه الاعراض لا يتأثر في قليل أو كثير بما اذا كانت تلك الخبرات قد نتجت عـن تجارب واقعية أو فعلية أو كانت محض خيال . بل اننا كثيرا ما نرى أن الخيـال قد ينتج عنه ما هو أقوى من الحقيقة وأعمق أثرا من الواقع ، فالاغتصاب الجنسي أو الواقعي قد يحدث دون أن يترك انطباعات عاطفية عميقـة ، وفي هذه الحالة يكون أقل واقعية وتأثيرا في العقل الانساني من الاغتصاب الجنسي الذي صوره الخيال . ان المثال السابق يرتكز بقوة على مذهـب التحليل النفسي لكن ينبغي أن نعطي مثالا مشابها آخر وان كان مستمدا من حياتنا اليومية ، هذه طفلة صغيرة عليها أن تخرج لمهمة أثناء الليل ، وتوهمت أنها رأت قردا وحشيا يمد يديه نحوها ، فاتخذت لها ركنـا ، وأخذت في الصراخ ، وصدمت صدمة كبيرة ، لكنها تحققت بعد لحظـة من أن ما رأته ليس الا ظلالا لشجرة، وأن هذه الظلال ليست موضوعا للخوف . لكن ورغم هذا من الممكن أن تستمر معاناتها من تلك الصدمة « عن رؤية قرد وحشي » .

هناك أفكار مألوفة في الدراسات الانسانية كالفقر والحرمان والثراء وعضوية الطبقة والجريمة ، وهي ان كانـت جميعا لها سمة أنها يمكـن التحقق منها موضوعيا الا أنها في نفس الوقت ذات جذور ذاتية . وحينما نحدد الفقر والثراء في ضوء غياب وحضور سلع معينة أو أشياء محددة ، وحينما نحدد الجريمة بأنها انتهاك لبعض القوانين ، أو حينما نحدد المهنة أو آداب السلوك ، فاننا نكون في الواقع في حالة معالجة للتفسيرات التي صنعها عصر معين ومجتمع محدد. ومع ذلك فلقد لاحظ السوسيولوجيون اننا حينما نقترب عن كثب من البحث الواقعي فاننا نجد هذه الأفكـار

وقد فسرت بتفسيرات عديدة ومتنوعة من قبل الأفراد والجماعات الفرعية، فتصبح من ثمة ذات طبيعة ذاتية بأقصى ما تحمله كلمة ذاتية من معاني . لنذكر الآن مثالا يقر بنا من هذه الفكرة : ان السيدة / سميث تقطن في منزل نظيف شبه مستقل ، وتمتلك مذياعا ، ومعطفا شتويا ثقيلا ، وتتناول وجبات منتظمة . ان حالتها من ثم تعتبر حالة من حالات الثراء بالنسبة الى الملايين من الآسيويين والأفارقة ، وهي تعتبر في حالة رخاء بالنسبة الى جيرانها ومواطنيها . لكن بسبب أنها لم تستطع ارتداء ثياب من أحدث طراز ، وانها لم تتمكن من ارسال ابنتها الى مدرسة داخلية ، وأنها وجدت أن من الصعب عليها ماليا أن تقتني تليفزيونا ، فانها تعتقد في نفسها أنها فقيرة وأنها تعاني من الفقر مثل الآخرين . وهناك أيضا أناس آخرون ربما كانوا أحسن منها حالا ، الا أنهم يشعرون في قرارة أنفسهم بأنهم فقراء . ضف الى ذلك أن انسانا ما يمكن أن يعتقد بأنه أحسن حالا من غيره لأنه يكسب أكثر قليلا من انسان آخر يؤدي نفس العمل الذي يؤديه وذلك رغم أنه يعلم تماما بأن دخله ، زهيد نادر بالنسبة الى متوسط الدخل القومي وأنه يمثل جزءا قليلا جدا مما يكسبه الآخرون .

ان الوقائع التي أشرت اليها هي وقائع بسيطة ومألوفة بحيث يصعب على أي واحد ألا يلاحظها . لكننا يجب أن نشير هنا الى أن التفسيرات الاجتماعية كثيرا ما تتعرض للخطأ حين تفشل في تمييز تقديرات الناس بواسطة معيار نظري محدد عن التقديرات الذاتية للافراد ، فاذا نظرنا مثلا الى عضوية الطبقة في مجتمعنا فيمكن أن نختار مجموعة من المعايير مثل عمق التعليم ، ومستوى الدخل ، وما شابه ذلك ، ثم نقوم بتمييز الناس طبقا لهذه المعايير ، ويمكن أيضا أن نستخدم تحديد المرء بنفسه لوضعه في طبقة أو أخرى كمعيار ، ولكننا ينبغي ألا نندهش اذا وجدنا أن

النتائج جد متفاوتة ، ووجدنا مثلا امرأة سوداء تنتمي الى مجموعة محدودي الدخل ، وتعتبر نفسها عضوا في الطبقة المتوسطة .

ونفس الأمر ينطبق أيضا على السلوك الاجرامي ، اذ أن الانتهاكات المختلفة للقانون انما يتم تقييمها بصور مختلفة تماما عند كل من فئات المجتمع . ويحتاج المرء هنا فقط أن يفكر في جرائم المرور والتهرب من آداء ضريبة الدخل، حيث تأخذ هذه تقييمات تتفاوت بتفاوت أفراد المجتمع وفئاته . لقد روى وايت Whyte هذه الحكاية : أعطيت لمجموعة من نزلاء السجون استبيانا يتضمن هذا السؤال : « هل حدثت بينكم وبين رجال البوليس أية متاعب ؟ » ولدهشتي فلقد أجاب عدد غفير منهم على هذا السؤال بالنفي . وحينئذ وجهت لهم السؤال التالي : « كيف أتيتم اذن الى السجن اذا لم تكن هناك ثمة متاعب قد قامت بينكم وبين رجال البوليس ؟ » وتمثلت الاجابة في دهشتهم من عدم انتباههم لمثل هذه المتاعب ، أو ربما اعتقدوا أن هذه ليست متاعب على الاطلاق اذ كانت الاجابة بالحرف الواحد « لقد اعتقدنا أنك تقصد متاعب » . ان هذه القضية يجب أن تكون موضع اهتمام كبير من كل مصمم ومستخدم للاستبيان .

٣ ــ العلاقات القائمة بين الوقائع العقلية (العلل والاسباب) .

سننتقل هنا من النظر في طبيعة الوقائع الى النظر في العلاقات القائمة بينها . ان الطريقة التي تبعث فيها الوقائع العقلية وقائع أخرى ، أو تؤدي اليها ، أو تغيرها ، لها أهمية خاصة في مجال الدراسات الانسانية ، ومن ثم فيجب أن نناقشها هنا بشيء من الاسهاب . وقبل أن نقوم بذلك علينا أن ننظر باختصار في العلاقات القائمة بين الوقائع

الفيزيقية وبين الوقائع العقلية • اننا نستخدم الوقائع الفيزيقية لكي نعبر بها عن أفكارنا ، ولكي تنفذ بها مقاصدنا (فنحن نعبر عن أفكارنا بكلمات مدونة على أوراق ، ونتحدث بواسطة تحريك لساننا) كما أننا نتأثر بالوقائع الفيزيقية عن وعي بوجودها (كما نخاف من رؤية الدب) ، وتتكون لدينا أفكار ومشاعر تجاهها • لا تحتاج الدراسات الانسانية في بعض الأحوال الى الاهتمام بطبيعة الوقائع الفيزيقية ، وفي بعضها الآخر تحتاج اليها : في الحالة الأولى يمكن أن نفهم أفكار انسان ما بدون أن نهتم بلون الحبر الذي استخدمه ، أو بكيفية تحريكه للسانه كي يعبر عنها ، أننا نستطيع أيضا أن نفهم قلقه بدون أن نحاول البحث عما يقلقه ، كما نستطيع أن نبحث عن الخوف الانساني لفرد ما دون أن نعرف على سبيل اليقين ما اذا كان قد رأى دبا أم لا • وفي الحالة الثانية تكون الوقائع الفيزيقية ماثلة أمامنا ، أو تفرض وجودها علينا حتى ننظر في طبيعتها ، فطريقة تنفيذ الفكرة في تمثال مثلا تتأثر بمدى صلابة الحجارة. وما يعبر به الشخص في قالب لغوي عن أفكاره قد يتأثر بما يعوقه (عيب في اللسان مثلا ، أو عيب في اليد ، أو القلم) • ان التمييز بين الرؤية الخيالية لدب وبين الرؤية الواقعية له يكون له مغزى كبيرا فيما يتعلق بالفهم • وطبقا لتعريفنا فان بحث الوقائع الفيزيقية يقع خارج دائرة البحث في الدراسات الانسانية ، لكن النتائج التي يتوصل اليها المتخصصون بدءا من تلك الوقائع الفيزيقية هي ما تمثل نقطة الاهتمام في الدراسات الانسانية •

وحينما نعالج العلاقات القائمة بين الوقائع العقلية ، فيجب أن ننظر في العلاقة التي تقوم فوق كل هذه العلاقات ، وأعني بها تلك التي تعادل الارتباطات العلية في المجال الفيزيقي • ان الواقعة العقلية التي تؤدي الى ظهور واقعة أخرى سوف نطلق عليها هنا مصطلح «السبب » (وذلك لكي

تبقى مصطلح « العلة » للوقائع الفيزيقية التي قد تنتج وقائع فيزيقية أو عقلية) . ومن أجل الوضوح فسوف أقيم تمييزا حاسما بين هذين المصطلحين على الرغم من أننا نستخدمهما في لغتنا العادية وكأن لا تمييز بينهما . ومن هذا المنطلق تكون الضوضاء علة اهتمامي بها . وحينما يؤدي الأهتمام بالضوضاء الى أن أغلق أذني ، فانني اسمي ذلك أو أعده سببا لا علة .

ان الأسباب بهذا المعنى تمثل دائرة الاهتمام الخاصة بالدراسات الانسانية ، وكل معاني المصطلح « سبب » توضح أنماطا مختلفة من الوقائع العقلية التي تؤدي الى المشاعر والأفكار والأفعال . في بعض الأحيان يكون السبب متمثلا في الوعي أو الاهتمام بالموقف الخارجي . وفي بعضها الآخر يثير انفعالا أو شعورا (حينما نخاف أو نثأر على سبيل المثال) . ان السبب هو هدف أو غرض أو قصد أو غاية أو نهاية ، اما في ذاته ، واما باعتباره وسيلة لأغراض وأهداف أخرى . ونحن نهتم بهذا النوع من السبب حين نقول : « سأحصل على عطلة كي استعيد صحتي » ، أو حين نقول « سآخذ هذا القطار لأنه الوحيد الموصل الى برمنجهام في الوقت الذي يناسبني » .

ان محاولة تفسير كل أنواع الحادثات في ضوء الأهداف أو الغايات (أي في ضوء « العلة الغائية » كما يحلو للبعض أن يسميها بذلك) لها تاريخ طويل يمتد من أفلاطون وأرسطو الى ما بعدهما ، الا أنه بنمو الروح العلمية في القرنين السابع عشر والثامن عشر رفض الناس فكرة امكان تفسير الأشياء في ضوء الغايات . ويمكن للمرء أن يفكر هنا وعلى سبيل المثال في مناقشته اسبينوزا العميقة حول هذه النقطة كما جاءت في تعقيبه على الجزء الأول من كتابه « الأخلاق » ، ففي هذا

الموضع بالذات وفي مواضع متفرقة أخرى يعبر اسبينوزا عن الروح العلمية الجديدة هذه ، بحيث نجد في صلب أو في أساس تلك الحركة العلمية فكرة عالم آلي يعمل وفقا للقوانين العلية والرياضية . لقد أدت هذه الفكرة الى انقسامات كبيرة بين المفكرين سواء على مستوى النتائج النظرية أو على المستوى العملي التطبيقي . ان مفكرين من أمثال اسبينوزا وهوبز كانوا تواقين الى تطبيق تلك المبادىء التفسيرية وتوسيعها بحيث تشمل الانسان نفسه ، وكانت أسباب ذلك واضحة لديهم تماما . لقد كانوا يحاربون الغموض القاتم المحصن وراء فكرة الغيرية الشاملة للعقل الانساني ، كانوا يحاربون غيبيات الفكر ، ويحاولون فك طلاسمه وأسراره ، كانوا يهاجمون فكرة « أيادي الروح » باعتبارها تأملا سريا لصورة الالهية التي تستمد منبعها من الله . ان هذه المعركة التي حاربت فيها القرون الطوال انتهت الآن بانتصار العقلية العلمية ، اللهم الا القليل النادر من المعارك الذي لا يزال يدور الجدل حولها ولكن بطريقة هينة غير قاسية . ومع ذلك فبينما استوعب مفكر مثل اسبينوزا وبدقة واقع الموقف الانساني ، وملاءمة الاهداف والتقييمات لهذا الواقع ، فان محاولة الوضعين في التوحيد بين المناهج العلمية كانت محاولة متطرفة ومبالغ فيها .

ويمكن للعلوم الطبيعية أن تتخلص من فكرة الغائية هذه ، وبالفعل فانها قد قامت بذلك على نطاق واسع . حقا لقد بقيت فكرة الغائية بصورة غامضة في علم البيولوجيا ، فأفكار مثل الغريزة والتطور استمرت في تواجدها بصورة غامضة في البيولوجيا ، وبدت كما لو أنها تعني شيئا مثل غاية أو غرض الطبيعة . ومع أنني لا أعتقد بأن الأصوات العالية لباحثي العلوم الفيزيقية والتي تنادي بالتخلص من فكرة الغائية قد أثرت في الممارسة الفعلية أو التطبيق الفعلي للبيولوجي فان هناك في الواقع

اتجاها نحو حذف أو استبعاد تصورات مثل « الغريزة » التي مثلت فجوة في نظرية المعرفة، وعلى العكس من ذلك تماما فان فكرة الغائية تمثل فكرة لازمة ولا غنى عنها في حقل الدراسات الانسانية . طبعا نحن نتمكن من تفسير جزء من السلوك الانساني في ضوء مصطلحات علية طالما أن الانطباعات تؤثر في خلايا المخ، وخلايا المخ تؤثر في الأعصاب، والأعصاب تؤدي الى تحرك العضلات ، وحركة العضلات تؤدي الى أن تزاول المطرقة عملها ، والمطرقة تؤدي الى ولوج المسمار في الحائط . هذا أمر ممكن في ضوء العلية ، ولكنه مع ذلك ليس وصفا كاملا ، انه وصف ناقص يغفل نقطة محورية حاسمة ، وهي أننا كائنات تحتاج الى أن تفهم ، وفي هذه الحالة لا نجد صعوبة في أن نفهم بأن انسانا ما يستخدم المطرقة في تثبيت مسمار في حائط كي يضع علية صورة .

هناك طائفة أخرى من الأسباب تتكون من تشييد قواعد عامة سواء أكانت تلك القواعد قواعد لغة أو قوانين داخلية محلية. نحن نجد أنفسنا هنا أمام تمييز حاسم وواضح بين العلوم الفيزيقية وبين الدراسات الانسانية. اذ بينما تعكس قوانين العلوم الفيزيقية الانتظامات الموجودة بين الاشياء على النحو الذي توجد عليه في الطبيعة كقانون الجاذبية مثلا فهو يعكس الواقع ولكنه لا يجعل الأحجار تسقط الى أسفل ـ نقول اذ بينما تعكس قوانين العلوم الفيزيقية هذا ـ نجد قوانين الدراسات الانسانية وهي متطابقة مع القواعد التي صنعها الانسان ، ان المبادىء الأخلاقية التي تعكس تقييماتنا والتي يتم في ضوئها صنع القرارات هي أيضا قواعد من هذا النوع . وحينما نقول « سأذهب لكي أدلي بصوتي الانتخابي لأن هذا من واجبي كمواطن » و « X »لا يؤيد الاعدام لأنه يعتقد

بقدسية الحياة الانسانية ، فان مثل هذه الأسباب تكشف عن اهتمام الدراسات الانسانية بالقيم والمبادىء والمعايير على عكس العلوم الفيزيقية •

ان التمييز الذي أقمناه بين العلل والأسباب يلقي ضوءا على مشكلة الحرية ، والواقع ان مشكلة حرية الانسان أو عدم حريته قد مثلت مشكلة فلسفية معقدة ثار الجدل العنيف حولها خلال العصور ، ولن تتمكن هنا من عرضها عرضا تفصيليا ، وانما سنكتفي بتناولها من زاوية تخدم موضوعنا • ومع أننا نصر على أن الانسان يفعل طبقا لأسباب ، أي أنه يكون محددا بمسائل وبواعث وغايات ومبادىء تعطي معنى أو مغزى كبيرا لفكرة الحرية ، فاننا نفكر في ضوء العلل ، وتتخيل أنفسنا بأننا محتمون بفسيولوجيا الجسم • وبتأثير بيئتنا الفيزيقية علينا فان الحرية هنا لا يكون لها أي معنى • وعلى عكس ذلك فاذا تحدثنا عن أناس يفعلون طبقا لأسباب ويتتبعون الغايات ويلتزمون بالمبادىء فاننا نتحدث عن أناس أحرار • ان قبول الأسباب يتضمن الاختيار ، ومن ثم فاننا ننتقل من قرار الى قرار بدلا من أن نكون خاضعين لسلسلة من العلل والمعلومات • أن الحرية بهذا المعنى تصبح واحدة من المعلومات المميزة للعالم الانساني ، كما أن التأكيد بأن الأفعال تنتج من فعل الاختيار الحر لا يغلق أبواب المسألة • نحن لا نتحدث هنا عن الأفعال التي لا مبرر لها ، ولكننا نتحدث عن الأفعال المحددة بأسباب • ان تبني سببا دون سبب آخر انما ينبع من خاصية الفرد المختارة ، ان فكرة أناس يفعلون طبقا لخواصهم أي طبقا لما يكونون عليه لا تتناقض مع الحرية •

ويجب أن يكون واضحا أن الأسباب كما شرحتها هنا تمثل ارتباطات يمكن فهمها هي الأخرى ومن ثم ندرك أننا يمكن أن ننتقل من الفهم بالمراحل الأولية الى الفهم بالمراحل المركبة •• من فهم الوقائع البسيطة

نسبيا الى فهم الوقائع المركبة • وحينما نستمر في بحثنا عن الأسباب فاننا نصل الى الغايات والقواعد التي تتمكن من خلالها من فهم مجتمعنا كله •

٤ الموضوعية والذاتية •

يجب أن نوجه نظرنا الآن الى تلك المشكلة الخاصة ، والتي نجمت عن تحديدنا للوقائع وما يقوم بينها من ارتباطات • لقد ذكرنا أن الوقائع كلها ذاتية بمعنى أنها تكون أحوالا لعقل انسان ما ، أو طريقة خاصة للنظر في الأشياء ، أو تفسير ذاتي • وينطبق ذلك أيضا على الأسباب ، انها دائما أسباب شخص ما ، ان سبب غضبك مثلا قد لا يكون هو نفس سبب غضبي • لكننا ذكرنا أيضا أننا يمكن أن نعالج الوقائع وارتباطاتها باعتبارها موضوعية كما يؤكد ذلك ملاحظون مستقلون • فبواسطة ميل الأفعال المختلفة للفهم الى الالتقاء في نقطة واحدة أو الى التقارب فاننا قد نجد أن X يكون غضبانا لأنه لم ينل الترقية المناسبة، وأن القبيلة تقيم طقوس التكفير لأنها تخاف غضب الله • لكن الأفعال المختلفة للفهم ذاتية بطبيعتها في نظرها الى الأشياء وفي تفسيراتها • أين اذن تكون موضوعيتنا ؟

نحن نعالج دائما تفسير شخص ما لتفسير شخص آخر • لكن هل يمكن أن نحذف تصورات الباحث وأفكاره وآرائه ونظرياته وتقييماته الأخلاقية من أجل تحقيق الموضوعية ؟ لقد أنكرت دوائر كثيرة امكان حدوث هذا انكارا قويا • فالماركسية وهي مألوفة لدينا رأت أن نظريات المادة الاجتماعية عبارة عن اهتمامات طبقة معينة• كما ذهب برلين I. Berlin الى نفس هذا الرأي حين قرر في كتابه « ما لا يمكن تجنبه تاريخيا » Historical inevitability أن « ليس ثمة كمية أو مقدار للبناء

لذاتي الواعي أو للطمس الذاتي يمكن أن تستبعد أو أن تحذف رواسب الحكم الأخلاقي ، تلك التي تصبغ اختيارنا للمادة التاريخية ، بل تكــون جزءا من تلك المادة ، وتصبغ وتكون جزءا من تأكيدنــا علــى أن بعض الحوادث والأفراد يكونون أهم وأكثر اثارة أو متميزين عن سائر الحوادث والأفراد العاديين بصورة أكبر من غيرهم » ثم تساءل بعد ذلك « أليس ذلك واضحا جدا •• أليست المقولات الأخلاقية الواضحة كأفكار الخير والشر والصواب والخطأ كما تتضح في تقييمنا للمجتمع والأفراد والخواص والأفعال السياسية ، وحالات العقل ، تكون مختلفة كليا ومن حيث المبدأ عن مقولات القيم اللا أخلاقية والتي لا غنى عنها مثل (مهم) و (بسيط) و (مغزي) الى آخره ؟ وعلى الرغم مــن أن برلــين ذهب الى أن هــذه « الأهمية » يمكن أن تؤسس تجريبيا في ضوء المدى الذي يؤثر به الفعل أو الفرد في أشياء أخرى ، الا أن المسألة أصبحت غامضة عنده حينمــا اقترح امكان تطبيق نفس الحالة على الأحكام الأخلاقية •

ويبدو لي أنه اذا قتل شخص ما رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، وقتل آخر سائق شاحنة ، فان الأول سوف يؤثر بفعلته تلك على حيــاة أفراد عديدين ، ومن ثم تحقق فعلا له أهمية أكبر من فعل الآخر • لكن ومع ذلك ، فاذا كان الدافع الى القتل واحدا ـــ كأن يكون الانتقام مثلا ـــ فان درجة الفساد الأخلاقي في الحالتين تكون واحدة أيضا • ويجــب أن يكون واضحا أن مسألة الاختيار وفــق الأهمية تتميــز عــن مسألة التقييم الأخلاقي •

لننظر أولا في مسألة تقرير ما هو « الأهم » والذي يجعل الأفراد يختارون موادهم وفقه • لقد تباينت وجهات النظر في تناول هذه المسألة، ذلك لأننا نستطيع أن نميز بين الاختيارات الذاتية وبين القرارات التــي

تدعي الموضوعية : فقد أفضل الاقتصاد على التاريخ السياسي ، وقد أوجه اتباهي نحو تاريخ غطاء الرأس لأن ذلك له أهمية عندي .. انني أختار ما أدرسه لأسباب قد تكون شخصية تماما دون اعتبار للاهمية الجوهرية لموضوع الدراسة ، ان الموضوع الذي اختار دراسته قد يكون تافهـا ولكنه قد يؤثر في مهنتي ولا يكون له تأثير على منحني الدراسية . ان مسألة الموضوعية تطبق فقط على الطريقة التي أنفذ بها عملي واضعا في اعتباري الأدلة المتاحة . ولكن وعلى العكس من ذلك اذا ادعيت بأن التـاريخ الاقتصادي هو أكثر أهمية موضوعيا من التاريخ السياسي ، فان هـذا التأكيد يمكن أن يؤخذ بعدة معان ، وكل معنى منها يتضمن معايير مختلفة لتحقيق صدقها الموضوعي .

وقد أعني بذلك أن تحليل كل أو معظم المواقف التاريخية تريـنا أن العوامل الاقتصادية لها نتائج أكثر من العوامل السياسية ، والدليل علـى أن الاقتصاد يثير استجابات انسانية أكثر من السياسة هو ما أدى الـى قرار اختياري له . وهذا يتوافق مع المعيار الذي وضعه الأستاذ برلـين عن الأهمية .

وقد أعني بذلك أيضا أن الناس في كل العصور ، أو على الأقـل في عصري هذا ، فسروا بأنفسهم مواقفهم بمصطلحات اقتصادية أكثـر منها سياسية . ان تعبيرات هؤلاء الناس وأفعالهم وكتاباتهم تمدني بالدليل على ذلك . ان هذه الحالة تتميز عن الحالة الأولى في أنني هنا أستـرد التفسيرات من الناس بينما كنت هناك (في الحالة الأولى) أفسر الارتباطات وحسب .

وأخيرا فانني قد أعني بذلك أن المعاصرين لي ، ومجموعة الباحثين

من أصدقائي يتفقون معي على أهمية هذا السياق الجزئي أو ذاك ، أو أنهم يشاركوني الاهتمام به . انه سياق مهم يسبب ظروفنا التاريخية . ان أفعال وكتابة هؤلاء المعاصرين تشهد بالطبع بهذه النتيجة .

نحن نعالج في كل هذه الحالات الأحوال الذاتية في مرحلة معينة أو أخرى ، ان عدم قدرة الدراسات الانسانية على التخلي عن الذاتية بمعانيها المختلفة تمثل ميزة تتميز بها هذه الدراسات عن غيرها من العلوم الطبيعية . ومع ذلك فاننا نستطيع أن نتحدث عن الموضوعية في مجال الدراسات الانسانية ، لكن الحديث عن الموضوعية هنا يتخذ له معنى خاصا يختلف عن مثيله في العلوم الطبيعية ، اذ الموضوعية تشير في مجال الدراسات الانسانية الى قدرتنا على ايجاد علاقة تربط نتيجة كل حالة فردية بهيكل كلي من الأدلة يكون في نهاية الأمر معرفة ذاتية أو أنساقا ذاتية تتمكن بها من استبعاد الذاتية الفردية التي قد تفسد جزءا من البحث العلمي ، ان الوقائع التي يعالجها عالم التاريخ أو عالم الاجتماع هي تلك التي أسميناها بالتفسيرات ، وتتمثل الموضوعية في ترك أمثال هؤلاء العلماء يتحدثون بأنفسهم وفق النتيجة التي تنتهي اليها أبحاثهم لا وفق ميولهم وأهوائهم . ولنضرب على ذلك المثال التالي : افرض أنني طبقت استبيانا على مائة فرد ، وحرصت على أن تكون اسئلتي واضحة ومتقنة ، وخلصت بعد ذلك الى النتيجة التالية وهي أن « شرب البيرة يمثل أهمية لهم جميعا » ان هذه النتيجة تعتبر نتيجة موضوعية يمكن أن أتحقق من صحتها بعدة طرق ، لكن أفرض انني أنا الذي أجريت البحث « أمقت شرب البيرة » واعتبر شربها لا يمثل أهمية بالنسبة الى الحياة الانسانية، واحتفظت مع ذلك بالنتيجة الى توصل اليها الاستبيان ، ولم أصبغ تلك

النتيجة برأيي الشخصي فانني أكون هنا ملتزمـا بأكبر درجات الالتزام بالموضوعية • وبنفس النتيجة يتصف بصفة الموضوعية ذلك المؤرخ الملحد الذي يدرس كتابات العصر الماضي والذي يصل الى نتيجة مؤداهـا أن الدين مهم فـي فهم ذلك العصر •

لكن ماذا عن التقييمات الأخلاقية ؟ لقد اعتبرها برلين I. Berlin كجزء ملازم لتأملنا في الحقل الانساني نضم اليـه أحكامنا الأخلاقية ، تلك التي تعتبر بعض الناس خيرين والبعض الآخر أشرارا ، والتي تحكم على بعض الأفعال بأنهاكريهة وعلى بعضها الآخر بأنـه يستحق الفخر • وعلى الرغم من صحة رأي برلين هنا ، وعلى الرغم من أننا دائما ما نكون متضمنين بصورة لا يمكن تحاشيها في الاختيارات والأحكام الأخلاقيـة، فلا يجب أن يتبع هذا أن ذلك يصبغ بالضرورة أحكامنا العقلية • ان على الدائرة الأخلاقية أن تحدد بدقة ، أو أن تحاط بخطوط تفصلها تماما عن الدوائر الأخرى ، وهذه الدائرة الأخلاقية يمكن تحديدهـا فـي ضوء الاختيارات والأحكام الأخلاقية التي يمكن أن يقوم بها الشخص ، وخارج تلك الدائرة يصبح الحديث عن الاختيارات والأحكام الأخلاقية من قبيل النفاق أو الأفعال التي لا مبرر لها • ولما كانت الأخلاق لا تمثل موضوعي الرئيسي ، خصوصا وأنها تتعرض لنوع من الجدل الطويل ، لا أقف على تفاصيله ، فانني سأضع الأمر هنا بصورة قطعية دجماطيقية معتقدا بأنهـا تتفق مع الرأي النقدي لهذه النقطة •

لست محتاجا لأن أقول بأن دائرة الفعل لا يجب أن تحدد بحيـث تصبح ضيقة جدا ، فالأمر لا يتعلق فقط بالفعل وبمبادرة الفعل وحسب في توافقه مع بعض المبادىء فثمة أمور أخرى تدخل معه في تلك الدائرة•

اذا مدحت هنا الأشكال التاريخية الماضية مدحا أخلاقيا فانني انما أبعث في نفسي وفي نفوس الآخرين روح المنافسة . واذا حكمت على الآخرين فانني أؤثر بذلك الحكم على أفعالهم أو أؤثر على أفعال أولئك الذين يقلدونهم أو يتداخلون معهم بصورة أو اخرى . ان الأحكام الأخلاقية هنا تكون ملائمة ، لكنني كباحث في الدراسات الانسانية يجب أن أجعل ذاتي مستقلة عن دائرة الفعل ، وأجعل فهمي أو وصفي غير محتاج لما يجعله مفتقرا للانضباط والدقة . بمعنى أنني أجعل نفسي خارج دائرة البحث، فلا أصدر حكما أخلاقيا ولا أقيم فعلا . ولكي نميز بين هذين الموقفين ، أي بين موقف يكون الباحث فيه داخل دائرة البحث ويصبغه بأحكام أخلاقية وبين موقف يكون الباحث فيه خارج تلك الدائرة تقدم المثال التالي : افرض أننا تناول الآن هتلر بالدراسة ، فان من المناسب أن ندينه أخلاقيا أو نهاجم أفعاله وتصرفاته ، ونصدر حكما أخلاقيا عليه يقرر اتهامه أو اداناته ، اذا كنا نريد تحذير الناس من تقليده أو التعاطف مع موقفه . هذا صحيح اذا كنا في نطاق الموقف الأول ، لكن افرض انني مؤرخ أقوم بتأريخ حياة هتلر ، ألا يضيف ذلك شيئا من عندي ، حينما أرفق اداناته الاخلاقية بوصفي لأفعاله ؟ انني يجب هنا أن أقف الموقف الثاني واكتفي بوصف أفعاله دون أن أصدر عليه حكما أخلاقيا .

لكن المؤرخ هو قبل كل شيء انسان مثله في ذلك مثل عالم الاجتماع ، وهو باعتباره انسانا لا يمكنه أن يتحاشى رغبته في استخدام أبحاثه من أجل التحذير من الشر ، والدعوة الى تبني كل ما يكون قريبا من قلبه . وهذا ينطبق على المؤرخ وغيره ، فنحن كديمقراطيين نكون شغوفين ببيان أن التاريخ يكشف عن شرور الطغيان ، ونحن كمحافظين نكون بحاجة الى بيان أن النتائج الأخلاقية الغير مرغوب فيها تنتج عن الطفرات الراديكالية المفاجئة .

طبعا أنه لمن الصحيح بالنسبة لأي انسان ، وهذا يتضمن المؤرخ بطبيعة الحال ، أن يعبر عن اعتقاداتنا الأخلاقية . لكننا ــ رغم ذلك ــ نحتاج أيضا الى عدم صبغ ابحاثنا باعتقاداتنا الأخلاقية ، بل ويجب أن يكون الأمر كذلك . اذا استطاع المؤرخ أن يجعل اعتقاداته واضحة فهذا لكي يستبعد تأثيرها عن بحثه ، أو لكي يسمح لقارئيه بأن يسقطوها من حسابهم عند قراءته . لكن المؤرخ كباحث يستطيع بل ويجب أن يميز بين واجب الوصف والتفسير المفروض عليه من الوقائع ذاتها وبين مسئولية الحكم على الأشياء الذي يصدر منه باعتباره انسانا . ان الممارسة العلمية في اطار العلم يجب أن تساعد على تدعيم الانفصال بين ما هو ذاتي وبين ما هو موضوعي ، وبالتالي تدعيم الاتجاه الموضوعي الذي يميز الباحث المدقق عن كاتب الكتيبات Pamphleteer

ولأن هناك احتمالا للغموض والخلط ، فيجب أن نميز بين النقطة التي بحثناها منذ هنيهة وبين تأكيدنا الأول عن أهمية فهم دور التقييمات الأخلاقية في الحياة الانسانية . لقد أكدت منذ لحظة على الغرض من جعل البحث مستقلا وموضوعيا ــ وغير مصبوغ بصبغة أخلاقية ، فليس من واجب الدراسات الانسانية أن تعلن الأحكام الأخلاقية ، ولكن ذلك من واجب الأفراد الذين يواجهون بالاختيار وبالحاجة الى الفعل .

وليس من واجب الدراسات الانسانية أيضا أن تنظر في أسس قبول المبادىء الأخلاقية ، ولا أن تسأل عما اذا كانت الأحكام الأخلاقية صادقة صدقا موضوعيا أم لا ، فهذا هو واجب الفلسفة وواجب الأخلاق بوجه خاص . ان الدراسات الانسانية مثلها في ذلك مثل العلوم الطبيعية تهتم بالوقائع ، وذلك رغم أن وقائع الدراسات الانسانية هي من نوع خاص يختلف عن نوع الوقائع الموجودة في علوم الطبيعة ، لكن الواقعة

بالمعنى الذي تستخدمه الدراسات الانسانية واقعة ينتجها كائن انساني ينتج أيضا أحكاما أخلاقية تؤثر في الأفعال الانسانية ، وله معايير وقواعد تعاقب الخارج على القواعد وتكافىء ما يتوافق معها ، علما بأن مسألة ما هي تلك المبادىء والمعايير هي أيضا مسألة واقعية • ان هذا المعنى هو المعنى الذي تدخل به المسألة الأخلاقية دائرة الدراسات الانسانية •

دعوني الآن أعطي مثالا يوضح هذه النقطة : يعتقد عدد غفير من مواطني بريطانيا العظمى بأن استخدام الأسلحة النووية ينطوي على خطأ أخلاقي ، ويؤثر هذا الاعتقاد على أفعالهم ، فينظمون المسيرات ، ويكتبون المقالات ، ويتفوهون بنداءات وعبارات ، تؤثر بدورها في الرأي العام ، وفي حزب العمل ، وفي التجنيد في القوات المسلحة • ويعتبر هذا كله هاما جدا بالنسبة الى المؤرخ أو عالم الاجتماع ، وحين يدرس المؤرخ أو عالم الاجتماع تشعب هذه الظاهرة فانه لا يتمكن من اغفال الأسباب الأخلاقية التي تقف وراء تلك الأفعال ، وعليه من ثم أن يبحث في الطبيعة الدقيقة لتلك الأسباب ، لكن ورغم هذا كله فليس عليه أن يقرر الميزة الأخلاقية لهذه الظاهرة ، لأنه اذا تحيز الى جانب أخلاقي معين ، أو اذا أصدر حكما أخلاقيا معينا ، فان ذلك سوف يلقي بذور الشك في بحثه كله •

ويمكن أن أضيف الى هذا أن مسائل مثل : نزع السلاح النووي ، والاشتراكية ، والغاء عقوبة الاعدام ، تتساوى كلها في أنها لا ترتكز على مبادىء أخلاقية •• انها مسائل تتدعم بتعزيزات واقعية وبافتراضات مبنية على وقائع مثل أن « أنواع السلاح تقود دائما الى الحرب » ومثل « أن قادة الكرملين يتميزون بالتعقل ، ويحبون السلام ، ويودون باستمرار الوصول الى حالة من التوازن مع الغرب » ومثل « ان الشيوعية

في بريطانيا العظمى سوف لا يتم قمعها كما هو الحال في ألمانيا الغربية » .
ان مثل هذه الأقوال أو الافتراضات يمكن بل ويجب أن تخضع لنقد تمحيصي دقيق في ضوء الشواهد المتاحة وبواسطة مناهج الدراسات الانسانية . وها هنا يستطيع عالم الاجتماع أن يتقدم باسهام ما عن كيفية تحديد هذه المسألة أو تلك . وأود أن أضيف الى ذلك أيضا أن عددا من المسائل التي هي الآن موضوع مناقشات سياسية حامية ، يجب أن تنتقل من ساحة المناقشات السياسية ريثما تبين الوقائع الملائمة التي تفحص بعناية من قبل علماء اجتماع ما اذا كانت مثل هذه الموضوعات سياسية فعلا أو أنها تندرج تحت علم آخر .

يجب علينا أن نفهم وقائع الحياة الأخلاقية اذا كان علينا أن نفهم العالم الانساني كما عرفه المؤرخون والانثربولوجيون وعلماء النفس والسوسيولوجيون . ان الأبحاث المتعددة التي وجهت الانتباه الى العوامل الأخلاقية أو اكتفت حتى بالتركيز عليها يمكن حصرها ، ولكننا سنكتفي هنا بذكر بعضها على سبيل المثال ، فكتاب فيبر المسمى بالأخلاق البروتستانتية Protestant Ethic . يمكن تمييزه بوضوح عن أي محاولة لنقد الأحكام الأخلاقية . وقد كتب الاستاذ جنزبرج بوضوح غير متوقع يقول « ان الأخلاق اذن لا تطابق الدراسة المقارنة للقواعد الأخلاقية أو التحليل السيكولوجي للالتزام ... فمثل هذه الدراسات لا يمكن أن تكون أخلاقا خالصة ، كما نقول بأن تاريخ سيكولوجية الأفكار ليس هو المنطق » ويضيف جنزبرج بعد ذلك أن دراسة القيم في علم الاجتماع هي « دراسة لنماذج معينة من الوقائع وهي بكل تأكيد ليست كذلك في الفلسفة الاجتماعية» .

ان أهمية بلورة هذه النقطة تصبح واضحة حينما نجد أن هذا المؤلف الممتاز قد أوقع نفسه في الخلط والتناقض ، كما تبين من الفقرة التالية : لقد كتب الاستاذ جنزبرج يقول « يبدو واضحا للوهلة الأولى

أن هناك تمييزا بين العلوم الاجتماعية وبين الأنساق الفلسفية، لقد قامت جهود كبيرة في الأبحاث المعاصرة للعلوم الاجتماعية تبين أهمية احتفاظ العلم بحريته وعدم ارتباطه بمشكلة التقييم • والواقع أن الاصرار على الحياد الأخلاقي انما يرجع في جزء منه الى تلك الرغبة الملهمة والجيدة في الاحتفاظ باستقلال العلم عن الموضوعات التي تتضمن أية انفعالات أو تحيز أو أحكام مسبقة • كما يرجع في جزء آخر الى ذلك الاقتراح المعقول الذي يذهب الى أن أحكام القيمة طالما أنها تتصف بالذاتية فلا يمكن أن تخضع لأي اختبار يجري بواسطة الاجراءات والأدوات العادية للعلم • ويمكن أن نبحث هذه المشكلة من وجهتي النظر التاليتين : فقد نسأل في المحل الأول عما اذا كانت الأخلاق ليست قطعا فرعا من علم الاجتماع ، أليس علم الاجتماع هو الدراسة التي تتناول الطرق التي أصبح وفقها الكائن الانساني عضوا في المجتمع يؤيد ضروبا معينة من الأفعال ويستهجن ضروبا أخرى ؟ ألا يهتم علم الاجتماع بدراسة الأحوال السيكولوجية والاجتماعية التي تنمو وفقها الاعتقادات والممارسات الأخلاقية ؟ وقد نسأل في المحل الثاني عما اذا كانت معالجتنا للوقائع الاجتماعية يمكن أن تستبعد من اعتبارنا كل اشارة الى الأغراض الانسانية والمثل والآمال ، أفليست الغايات والكفاح من أجلها تمثل مادة غنية تقع خارج الأفعال الاجتماعية ؟ ألا تعتبر جزءا من مشكلتنا أن نحدد ما اذا كانت الأغراض والغايات يتم وضعها في الحسبان اذا كنا أمام عملية الحضارة أم لا ؟ أليس واضحا ، بمعنى ما من المعاني أنه يجب أن تكون الغايات والقيم جزءا من العلم الاجتماعي ، وأن يكون التمييز عندئذ بين الفلسفة الاجتماعية وعلم الاجتماع غير متطابق تماما مع تمييزنا لدراسة الوقائع عن دراسة القيم ؟ » •

ان الصعوبة التي وجدها الأستاذ جنزبرج في التمييز بين علم

الاجتماع وبين النسق الفلسفي يبدو أنها كانت سبب فشله في الالتزام بتعريفاته الخاصة . ان القول بأن علم الاجتماع يهتم بالطرق التي يضع الناس الأحكام الأخلاقية من خلالها لا يعبر عن الأخلاق تماما كما أن ـ ونستعيد هنا كلمات جنزبرج نفسه ـ « تاريخ سيكولوجية الأفكار ليس هو تماما المنطق » . ومن هنا نفهم أن جنزبرج قد وقع في التناقض حينما اعتبر الأخلاق جزءاً من علم الاجتماع هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يبدو لنا صحيحاً أننا لا نستطيع أن نترك الأغراض والمثل والآمال وتأثير ذلك على الحضارة خارج اعتبارنا ونحن نتناول الوقائع الاجتماعية بالدراسة . لكن أليس جنزبرج نفسه هو القائل بأن دراسة القيم والغايات بهذا المعنى هي دراسة أنماط معينة من الوقائع » ؟ ليس ثمة صعوبة اذن في الربط بين التمييز بين الفلسفة الاجتماعية وعلم الاجتماع وبين دراسة القيم ودراسة الوقائع . ويجب أن تتذكر هنا التمييز الواضح بين اثبات القيم التي تهتم بها الأخلاق أو الفلسفة الاجتماعية ، وبين اثبات وقائع مثل أن الناس يسلمون بقيم معينة ويعملون وفقها ، فهذه الأخيرة هي موضوع الدراسات الانسانية .

ولكي نلخص هذا كله نقول : ان الدراسات الانسانية تستخدم المنهج العلمي ، أي أنها تتشارك مع العلوم الطبيعية في الطرق النسقية العامة التي تربط العمليات المعرفية في سعي حثيث نحو المعرفة . ومع أن الفهم يكون متضمنا في كل العمليات ، ويغير العمليات المعرفية ، لأن الوقائع التي نتحقق منها ونفسرها هي أفكار ومشاعر وآمال ، فان ذلك كله يظهر في التعبيرات . ولقد ثارت بعض المشاكل عن الموضوعية في الدراسات الانسانية وعن استقلالية الأخلاق وانفصالها عن دوائر العلم الطبيعي ، وقد نجمت مثل هذه المشاكل عن طبيعة عمل الباحث الذي يعالج هنا أحوالا ذاتية تتعلق برأيه الخاص حين يواجه باتجاه أو بتفسير أو بتقييم . لكن ثمة اتجاها نقديا واهتماما دائما بأن تكون عمليات

الاختيار والفهم متميزة بالضرورة عـن التقييمات الأخلاقيـة التي تشوه الشواهد .

ولقد لاحظنا أيضا أن الوقائع (الصعبة) وهي تلك التي تكـون موضوع العلوم الطبيعية تلائم وقائع الدراسات الانسانية . ولعل هـذا هو ما أثار مسألة التخصص والعلاقة بين العلوم وهي التي سنتناولها فـي الفصل القادم .

الفصل السابع

التخصص وملاءمة العلوم الطبيعية للدراسات الانسانية

١ ـ أساس التخصص والعلاقة بين العلوم .

٢ ـ ملاءمة الوقائع الطبيعية للدراسات الانسانية

التخصص وملاءمة العلوم الطبيعية للدراسات الانسانية

١ ـ أساس التخصص والعلاقة بين العلوم .

يهدف هذا الكتاب من محاولته تأكيد الفروق المنطقية والمعرفية بين مختلف العمليات المعرفية الى تحديد الخصائص المميزة للعلوم التي تختص بدراسة الانسانية . والتعريفات الواضحة بوسعها أن تكشف عن الفروق الجوهرية بين مختلف الدراسات الانسانية ، وتلك بالطبع مسألة تحليل نظري وليست وصف ما يقوم بـه مختلف المتخصصون . والواقـع أن الارتباط بين خبرات الباحثين في مختلف المجالات ارتباط ضعيف فـي أغلب الأحيان ، فمجالات الدراسة عند علماء النفس والمؤرخين متباعدة ، كما أن كلا منهم يستخدم طرقا مختلفة للبحث . وليس القصد من صياغة اطار للتصنيف هو اقامة عوائق أمام التخصص العنيف (وتلك مشكلة لا تهم علماء النفس) ، فلقد بات واضحا أن عبور الحدود الفاصلة بـين العلوم ، والاستعانة بمداخل ذات نظام مترابط أمر حقق نتائج هائلة ، كما أن النظرية الملائمة هي التي تتبدى فيها تلك المداخل بوضوح ، اذ لكـي يكتمل الاطار النظري يتعين تدعيم تصنيف العلوم بتصور عـن كيفيـة الارتباط بينها والتداخل بين كل منها .

ولسوف أعالج ، بعد أن أعرض لكيفية تعريف علم معين ، العلاقات

بين الدراسات الانسانية والعلوم الطبيعية ، أما الارتباط بين الدراسات الانسانية ذاتها فستتناوله فيما بعد •

وترجع الحاجة الى التخصص في العلوم المحددة تحديدا واضحا، وحتى في بعض ميادين هذه العلوم الى نمو المعرفة ، وذيوع تقنيات البحوث وتعدد المشاكل من جهة ، ثم حدود الطبيعة البشرية من جهة أخرى • ومن غير المنطقي حتما أن تتوقع من خبير احصائي أن يكون عالما في نقد المصادر التاريخية ، كما لا نطالب عالم النفس التجريبي بأن تكون لديه معرفة واسعة بالايديولوجيات السياسية • اننا ننظر شذرا الى من يدعي العلم بكل شيء ذلك لأن اتساع نطاق المعرفة كثيرا ما يكون على حساب نقص التعمق والتحديد •

ويصور بناء جامعاتنا ومعاهد البحوث والمكتبات الاعتماد على التخصص بوضوح ، اذ من المقنع أن تكون الجامعات منظمة في أقسام ، وأن تصنف الكتب وفقا لموضوعاتها • ومن العسير بالطبع أن تتصور كافة المسائل ، لكننا نعترض على تصور وجود حدود قاطعة بين العلوم ، فاذا ما أصبحت موضوعات الدراسة الأكاديمية حصونا مستقلة البناء والتكوين لكل منها اهتمامه الثابت فلسوف يغلق ذلك أبواب الاكتشاف المثمر • ان علينا أن نرحب بكل علم جديد يعتمد في تحديد مجاله على مدخل النظام المترابط في دراسة مشكلة ما أو مجموعة مشكلات ، والأمثلة على ذلك علم الجريمة ، ودراسة الاتصال ، والدراسات الأوروبية •

ان ما نحتاج اليه هو اطار نظري يبرر التخصص دون أن يخلق حواجز لا يمكن عبورها بين العلوم ، وهذا يدعونا الى فحص الافتراض القائل بأن العلوم تتمايز عن بعضها وفقا لموضوعات الدراسة فيها • ولقد ذهبت الى أن العلوم الطبيعية تدرس العالم الطبيعي بينما تتناول الدراسات

الانسانية « عالم العقل » كموضوع لها، وناقشت في الفصل السابق بعض خصائص ما نعنيه بالعالم الطبيعي • ومع ذلك ، فاذا كان علينا أن نعالج العلاقة بين مجموعتي العلوم يتعين أن ننعم النظر أكثر في طبيعة هذين العالمين •

ولست أريد بالحديث عن هذين العالمين صياغة نظرية ميتافيزيقية حول انتظام الواقع ، اذ الواقع الذي نخبره واقع معقد ، وكذلك الأمر بالنسبة للمواقف الفردية ، ومن ثم كان استيعابهما ، أو حتى دراستهما بحاجة الى اصطناع التجريد • فنحن ننتقي ملامح معينة بوصفها ذوات أهمية ونتتبع الارتباط بينها ، وذلك وفقا لحاجاتنا العملية ، ووجهة نظرنا واهتمامنا بمشكلة خاصة • وانتقاء الخبرات على أساس التجريد يتبدى في حياتنا اليومية ويكون هذا الانتقاء مسئولا عن تصورنا للعالم كما تجسده اللغة والذوق العام ، مثال ذلك أن البستاني يدور تفكيره حول الزهور والاعشاب ، على حين أن عالم النبات لا يفعل ذلك • ولقد نشأت العلوم المختلفة باعتبارها تنظيما يقوم على هذه التجريدات الأصيلة ، مع أنها أحيانا تتخطى حدود الذوق العام ، فهي اذن بمثابة استكشاف للواقع تبرره القدرة على القاء الضوء على الخبرة ، وتناول الواقع وفقا لحاجاتنا•

ومن اليسير توضيح التداخل والارتباط بين العلوم المختلفة في موقف واحد • دعنا تتأمل محاضرة تلقى في قاعة للدرس ، فلسوف يلاحظ عالم الطبيعة أن القاعة تتألف من بناءات ذرية وموجات ضوئية وصوتية •• وهكذا • أما البيولوجي فسيجد ان هناك كائنات حية تتكون من مادة عضوية تؤدي وظائف فسيولوجية ، كأن نستخدم أعضاءها في الكلام والاستماع • وقد يجد عالم الصوتيات أمامة نموذجا للجدل والمناقشة ، كما يدرس عالم النفس مظاهر الملل ، أما عالم الاجتماع فسيعثر على نموذج للتفاعل الاجتماعي • اننا هنا أمام موقف مألوف لنا

تماما ، وليس موقفا معقدا ، ومثل هذا الموقف يمكن أن يشكل موضوعا لعدد من العلوم ، واذا ما أخذنا كل جانب من جوانب هذا الموقف لاتضح لنا أن كل علم من تلك العلوم يمكنه أن يوضح هذا الجانب المتخصص فيه • وكذلك اذا قلنا اننا نستطيع أن نرى السماء ذات النجوم من النافذة فسيجد علم الفلك مجالا له ، وسيعثر البكتريولوجي على موضوع يدرسه اذا سلمنا بأن البكتريا منتشرة في الهواء •

على أن الزعم بأن العلوم المختلفة تتمايز على أساس موضوع الدراسة فيها ، لا يعني أن كلا منها ينفرد بجانب من الواقع يصوره بطريقته الخاصة • ان تصورنا للحدود الثابتة بين العلوم لا يتحقق الا اذا اعتبرنا أن جانبا من الواقع ينتهي عند حد معين ويبدأ جانب آخر ، وهذا تصور مضلل لأن صورة الواقع منتشرة أمامنا تماما كما ينبسط الريف الانجليزي على مدى البصر ، وتنطوي هذه الصورة على العديد من الموضوعات التي تصلح للدراسة في مختلف العلوم ، أما كون هذه الموضوعات تمثل مقاطعات منعزلة فهذه فكرة مرفوضة ، هذه هي خريطة العلوم التي ستكشف لنا عن تجاور الفيزياء والبيولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع تماما كما تتجاور مدينتي يوركشاير ولانكشاير ، ومثل هذه الخريطة تحجب عنا ادراك مسائل منهجية هامة • وهذا التشبيه المضلل لخريطة المعرفة يصور أخطار فهم كل علم من هذه العلوم فهما مستقلا • فقد يهتم عالم الفيزياء وعالم الكيمياء بدراسة موضوع واحد ، وقد يعثر المؤرخون، والمتخصصون في النقد الادبي وعلماء الاجتماع على وثيقة نصية واحدة تصلح لبحوثهم جميعا ، وقد يهتم العالم بنوعية الورق والمداد الذي كتبت به هذه الوثيقة • كما قد يشترك الانثربولوجيون الاجتماعيون ، وعلماء النفس والاقتصاديون ، وعلماء الفسيولوجيا في دراسة قبيلة واحدة •

واذا جاز لنا تطبيق فكرة خريطة المعرفة هذه ، فانها تنطبق على تقسيم العمل داخل كل علم ، وبين الباحثين الذين يشتركون في اجراء بحث واحد ، كأن يعكف كيميائي على تحليل عينة من مادة معينة ، ويقوم زميله بتحليل عينة أخرى من نفس المادة ، ويبدأ الانثربولوجي بدراسة قبيلة في الوقت الذي يقوم فيه زميله بدراسة جيران هذه القبيلة ، ويجري سيكولوجي مقابلة مع سجين بينما تقوم زميلة بالقاء نفس الاسئلة على سجين آخر . هنا يمكن أن توضع النتائج جنبا الى جنب كما لو كانت على خريطة ، ولدينا المبرر لأن يعكف كل باحث على دراسة جانب مختلف لواقع واحد .

ان موضوعات العلوم تتاح لمختلف عمليات التجريد ، وكل علم يتميز ببعض الافتراضات المسبقة التي تحدد وحدات الدراسة فيه ، تلك التي تعتبرها معطيات أو بيانات يتم على أساسها التحليل . وتعريف هذا العلم للبيانات يحدد المناهج والاجراءات المستخدمة فيه ، كما يتحدد هو أيضا من خلالها . فتحليل « المادة » مثلا على أساس الأبنية الذرية الفزعية يقتضي استخدام عدة اجراءات تبدأ من تحليل الجزيئيات . ولقد تطورت العلوم كاستجابة لمختلف التساؤلات ، سواء كانت نظرية أم تطبيقية ، التي تطرح حول العالم . ونحن لا نريد أن نعرف فورا كل شيء عن موقف ما ، كما ليست هناك حاجة الى جمع معالجات مختلف العلوم لموقف بعينه ، فملاءمة علم معين لموقف ما تعتمد على طبيعة التساؤل المطروح . وكل تفسير لكي يكون ملائما يجب أن يرتبط بشيء نفترض أنه غير مألوف في موقف معين ويستحق المعرفة ، ففي مثال المحاضرة الذي أشرنا اليه قد نميل الى معرفة أسباب ملل الطلاب أكثر من ميلنا الى معرفة النجوم كما تبدو لنا من النافذة .

وبامكاننا أن تكون محددين أكثر من ذلك ، فالسؤال الواحد حين

ينشأ عن سياقات مختلفة يحتاج الى اجابات جد مختلفة . فـاذا تساءل طالب يتردد في اذنه صوت محاضرين آخرين في قاعة الدرس التي يتلقى فيها محاضرة بالذات لماذا لا أستطيع سماع المحاضرة جيدا ؟ فقد يكـون الغرض من سؤاله هو معرفة الخطأ في صوت المحاضر . وقد يطرح طالب آخر في نفس هذه القاعة السؤال بطريقة مختلفة كأن يقول : ما الخطـأ في الأجهزة الصوتية ؟ ان كلا منهما يحتاج الى اجابة يقدمها علم مختلف. وبالمثل هناك عدة اجابات يتطلبها التساؤل التالي : لماذا كانت محاضرة (X) عن أدلة ديكارت على وجود الله ؟ واذا كان يسأل حقيقة لماذا اختار هذه الأدلة ؟ فعلينا في هذه الحالة أن نقدم اجابة فلسفية . أما اذا كان السؤال هو لماذا الحديث عن ديكارت بالذات ؟ فعلينا أن نوضح القيمة التعليمية لهذا الموضوع . أما اذا كان يريد أن يعرف لماذا يقوم هذا الشخص الذي تعود حياة الفراغ بالقاء محاضرة في الفلسفة ؟ فقد يكون علينا حينئـذ أن نقدم اجابة اقتصادية (كان يكون في حاجة الـى المال) أو اجابـة سيكولوجية (أو أنه يعاني من الملل) .

وهكذا ، يمكن أن نصف موقف واحد بطرق مختلفة ، فقد يستخدم (X) أعضاء الكلام عنده في أحداث موجات صوتية ، وهو قد يستخدمها في اقامة حياته ، وفي أداء عمله بالجامعة ، أو في القيام بمهمة شخصية ، وفي الدعوة الى ديكارت وتهيئة تلاميذه للاختبار . وكل جانب من هـذه الجوانب يمكن أن يصبح موضوعا لعلم مختلف . وأحيانا نحتاج الـى أكثر من علم كي نصل الى التفسير الذي نريده .

غير أن الأمر لايقف عند هذا الحد ، فثمة علاقات منتظمة بـين العلوم يمكن تتبعها ، وتتضح أهمية هذه العلاقات حينما نعرف الى أي

مدى تكون مهمة علم معين ملائمة لعلم آخر • لقد سبق أن ذكـرت أن موضوع العلم يتحدد بعملية التجريد التي يتم مـن خلالها عـزل بعض الملامح من موقف مركب • أما المستوى الأعلى للتجريد فهو يختار الملامح التي تشترك فيها كل المواقف ، والتي تعد بالتالي أكثر ملامح الواقـع عمومية ، وهذا هو موضوع الفيزياء • وفي المستوى الأقل للتجريد نختار الملامح الاضافية التي تشترك فيها بعض المواقف فقط ، وهنا نصل الـى موضوع علم الحياة ، وأخيرا الى الدراسات الانسانية ، فالتيار الكهربائي ، والفأر ، والانسان — مثلا — بينهم بعض الملامح المشتركة التي تهتم بهـا الفيزياء ، كما يشترك الفأر والانسان فـي بعض الخصائص البيولوجية ، لكن هذه الخصائص لا تصلح موضوعا للدراسات الانسانية •

وبامكاننا صياغة المبادىء التالية في ضوء تلك العلاقات :

مبدأ الاستقلال الذاتي Principle of Autonomy

يعالج كل علم موضوعه من خلال مفاهيم ونظريات مستقلة عن تلك الخاصة بالعلوم الأخرى • والواقعة التي يتناولها علم معين لا تفسر تفسيرا ملائما بعلم آخر ، لأن كل علم قد قام بتجريد بعض الملامح مـن الواقع (فقد نفسر التفكير في ضوء عمليات عقلية لا عمليات دماغية ، لأن مفهوم التفكير لا مكان له في الفسيولوجيا) •

مبدأ الاعتماد المتبادل Principle of Interdependence •

لكل موقف خصائصه النوعية وخصائصه العامة أيضا (حينما يحدث تفاعل اجتماعي تظهر أيضا ملامح فيزيقية وبيولوجية) • وتنشأ علاقات مختلفة بين هذه الخصائص العامة ونحن نعرفها من الخبرة أو نفترضهـا

في البحث . وقد نطلق على بعض هذه العلاقات ما يلي :

(أ) انها مرتبطة لأنها متفاعلة (مثل تأثر الانسان بالتيار الكهربائي) وقد تكون العلاقة موضوعا لاكثر من علم واحد (مثل الفيزياء وعلم النفس) .

(ب) قد يرجع الارتباط لأن العمليات المؤثرة في الخصائص العامة للموقف تبطن تلك العمليات النوعية وتعد شروطا ضرورية لها . (فالتفكير يتضمن توظيف المخ وهو لا يحدث بدون ذلك) .

وحينما تكون هذه الشروط ثابتة يمكن اهمالها عند التفسير ، ولكنها قد تتداخل مع عمليات نوعية أخرى ومن ثم تصبح ملائمة ، وهكذا ينتج عن هذه النقطة المبدأ التالي :

مبدأ التدخل Principle of Interference

وهو يصف مبدأ الاستقلال الذاتي ، فحينما لا نستطيع أن نفسر حادثة معينة في اطار العلم الذي ننتمي اليه علينا أن نأخذ في اعتبارنا امكانية تدخل بعض العمليات العامة، مثال ذلك اذا كانت عملية الاستدلال يسيرة وفقا لقوانين الفكر فلسنا بحاجة الى عمليات المخ ، ولكن اذا انقطع التفكير فجأة ، فقد تكون اصابة المخ هي التفسير الملائم الوحيد .

٢ ــ ملاءمة الوقائع الطبيعية للدراسات الانسانية

في الممارسة أشرت الى العلاقات التي حاولت أن أحددها فلسفيا بقولي ان عالم العقل له جذوره في العالم الطبيعي . ولكن قد يكون من المقنع لأغراض معينة أن تتحدث عن عالم العقل كمنطقة مستقلة تتضمن اللغة ،

والدين ، والتقاليد ، والادب ، والفكر ، والمشاعر ، والأهداف وهي المنطقة التي يستطيع الفهم وحده أن يدخل اليها • ونحن نفترض واقعية تلك المنطقة حين نقول عبارات مثل « لقد غير الدين من حياتي » ، « ان الادب يعني شيئا عندي »، أو « ان المعتقدات السائدة فيهذا المجتمع تقيد ممارسة الخيال » • غير أن هذا العالم لا ينفصل انفصالا تاما عن العالم الطبيعي مثلما تنفصل افريقيا عن أمريكا • ان عالم العقل لا يوجد بذاته ، انه دائما يتجسد في واقع فيزيقي • فجسمي هو موضوع فيزيقي تحدث له عمليات فيزيقية ، وهو متأثر بالموضوعات الفيزيقية الأخرى ومؤثر فيها، وكل خبراتي ومعارفي انما تعني أن العمليات العقلية تكون في الوظائف التي يقوم بها هذا الجسم ، فأنا أرى بعيناي ، وأسمع بأذناي ، ولا أستطيع التفكير بدون المخ • (لست أريد أن أناقش هنا مسألة وجود الروح بالمعنى اللاهوتي للكلمة ، ومسألة وجود حياة لعقل غير متجسد بعد الموت فهذه التساؤلات لا تهم عالم النفس أو عالم الاجتماع حين يمارس دراسته ، وليس هنا مجال مناقشة الشواهد المحدودة جدا التي نلجأ اليها لاثبات وجود الأرواح) • وأفعالنا يحكم وقوعها اطار يستند الى الظواهر الطبيعية • كما أن كل تعبيراتنا هي ظواهر طبيعية ، وحينما نؤكد أن الفهم هو فهم التعبيرات نرفض أية فكرة تخضعنا بشكل مباشر وغامض لعالم نظري للعقل •

وهكذا ، هناك ثلاثة مجالات لا يكون فيها بحث الوقائع الطبيعية (العلوم الطبيعية) ملائما للدراسات الانسانية • لدينا المظاهر الفيزيقية للتعبيرات ، والظروف الفيزيقية التي تشير اليها التعبيرات (أو التي تتأثر بها) والميكانيزمات التي تحدث من خلالها •

فلكي تفهم تعبيرا علينا أن ننظر أولا الى خصائصه الفيزيقية •

وأحيانا نحتاج الى درجة عالية من التحديد • فعملية التحقيق الصحيح لوثيقة قديمة تتطلب انتباها شديدا للتفاصيل ، اذ قد تحمل الكلمات المتشابهة معاني مختلفة تماما • وقد يكون اللون هاما ، فاذا لم نرى أن الصليب لونه أحمر فلن تتمكن حينئذ من ادراك دلالته المتميزة • لكن ليست كل التفاصيل الفيزيقية لها نفس الدلالة • فليس هناك فارق عادة بين أن يكتب خطاب بمداد أزرق أو أسود ، برغم أن ذلك قد يدلنا على مدى قدم الخطاب ، وعمن كتبه ، ان السياق هو الذي سيحدد ذلك كله•

وقبل أن يدرك المؤرخ تعبيرا مفهوما عليه أن يعتمد الى حد بعيد على أعمال الطبيعى ، فنحن نحتاج لكي نجعل لوحا من الصاج مستقيما، ولكي نزيل الصدأ الذي علق به وننظفه ، ولكي نعرف عمره الى اختبارات نستخدم فيها وسائل كيميائية • كذلك يعتمد عالم النفس أيضا على العلم ، فلدراسة تعبيرات الأطفال أثناء اللعب قد نلجأ الى استخدام مرآة ذات عدة جوانب ، أو قد نستعين بالأفلام • وثمة مثال آخر هو استخدام ما يعرف بجهاز كشف الكذب ، اذ يطلب الى الشخص أن يذكر المعاني التي تتداعى عنده حين تذكر له كلمة معينة ، أو أن يجيب على بعض التساؤلات أثناء قياس ضغط الدم والتنفس ، وهذه القياسات تدخل في نطاق الفسيولوجيا ، ولكن اذا كشفت الفروق في معدلات ضغط الدم والتنفس عن اضطرابات عاطفية ، وعن توتر وكف ، ففي هذه الحالة تعالج كتعبيرات • وقد يهتم عالم الاجتماع بالطريقة التي يعبر بها الناس عن مراكزهم الاجتماعية وقد تكون هي الممتلكات ، وقوة سياراتهم ، وحجم منازلهم ، بل قد تنطوى نوعية المجوهرات التي يمتلكونها على أهمية في هذا الصدد •

واذا انتقلنا الى الظروف الفيزيقية المرتبطة بالتعبيرات ، سنرى مباشرة أنها ملائمة في فهم انسان يتسم جسمه بالنحافة ، أو شخص

مستلىء ، أو معمر ، يعيش في منطقة متخلفة في مدينة صناعية ويعاني من سوء الهضم . ولا تعد أية واقعة من هذه الوقائع تعبيرا ، ولا هي وفقا لتعريفنا تدخل في موضوع الدراسات الانسانية . ويمكن تقدير حجم الانسان ووزنه بنفس الدقة والتحديد اللتان يظهران عند قياس صخرة ، كما يستطيع الفسيولوجي أن يستخدم نفس الطرق التي يتبعها في دراسة الفئران عند دراسة عمليات الهضم والشيخوخة ، ويمكن أيضا دراسة التوافق ، والضوضاء ، والرطوبة ، والحجم بنفس الطرق التي ندرس بها جزيرة أو كهف .

وترجع ملاءمة هذه الوقائع الفيزيقية الى أن الانسان يكون على وعي بتكوينه الذي قد يكون هو سبب خجله أو عدوانيته ، تماما مثلما قد تؤدي هذه الوقائع الى فشل الحب ، أو عدم القدرة على النجاح الاجتماعي ، فحالة الهضم عنده قد تجعله سريع الغضب . كما تجعله الشيخوخة قلقا أو بطيء الحركة . وتحدد ظروف الحياة أنشطة الأنسان (حين لايستطيع زيارة أصدقائه في المنزل) أو تؤثر في صحته، وهذا بدوره قد يؤثر في اتجاهه أو في مهنته . وبعبارة أخرى ، فان هذه الوقائع وغيرها نخبرها كحدود وتحديات ، أو كغرض تظهر المشاعر والأفكار والأفعال وتعدلها . ان الظروف الفيزيقية تمثل خلفية ضرورية لفهم هذه الاستجابات .

ولهذه النقطة أهميتها في التاريخ ، وعلم الاجتماع ، والجغرافيا البشرية ، والاقتصاد . فالمناخ ، وتكوين التربة ، ووجود أنهار صالحة للملاحة ، ووجود موانيء طبيعية ، وتوافر مياه صالحة للشرب هي عوامل مؤثرة في توطين المدن ونمو الحضارات ، فهي تؤثر في طريقة حياة الناس ، وفي توافر الطعام والمأوى . وفي بعض الحالات لا نستطيع أن نفهم معركة بين جيشين متحاربين ، أو اسلوب القتال بينهما ، دون أن

نعرف أن الأرض منحدرة عند طريق معين ، أو أنها مبتلة في منطقة أخرى، أو أن الضباب يغطي جانبا منها •

ان أفعالنا لها نتائج فيزيقيـــة بعضها مقصود وبعضها الآخـــر غير مقصود ، وهذه بدورها تصبح شروطا لأفعال أو اتجاهات أخرى • وهكذا تتشابك الظروف الفيزيقية تشابكا واضحا مع العلم الانساني ، فالبرنامج الشامل لبناء السفن حينما تصنع مـــن الخشب سوف يستنفذ الغابـــات التي تغطي منطقة معينة ، لكن النتيجة المصاحبة لبنائها من الخشب تجعل تلال هذه المنطقة عارية من الأشجار ، ومع ذلك فهـــي تؤثر فـــي ظروف الزراعة ويصبح لزاما على المزارعين أن يتوافقوا مع الظروف الجديـــدة • والتصنيع نتيجة لجهد مقصود ، ولكن من نتائجه العرضية تلويث الهواء بعادم الاحتراق ، مما يزيد من حالات التهاب الحنجرة ، وعنـــد مرحلـــة معينة تصبح هذه مشكلات اجتماعية ، ومن ثم تعود مرة أخرى الى المجال المتخصص للدراسات الانسانية • كيف يؤثر ازالة الغابات فـــي توافـــر تقاوى البذور ، وكيف يؤثر العادم في رئة الانسان ، تلك مسائل يبحثها العلم ، لكن نتائجها ذات أهمية فـــي علم الاقتصاد وعلم الاجتماع أو التاريـــخ •

وتنطبق هذه النقاط ذاتها على علم النفس مثال ذلك أن علم النفس الصناعي قد كشف عن تأثر أداء العمال بشدة الاضاءة وموضعها ، وبألوان الجدران ، وبدرجـــة الحرارة والرطوبـــة • وتلـــك الظروف والنتائـــج الفسيولوجية يمكن دراستها علمياً ثم نربطها بالاستجابات الانسانية التي تؤثر فيهـــا •

وأخيرا ، دعنا ننتقل الى ما أسميه الميكانيزمات التي تنتج التعبيرات. فطالما أن كافة التعبيرات هي مظاهر فيزيقية فهي تحدث من خلال العمليات الفيزيقية ، فالكلام والكتابة هما نتاج عمليات فسيولوجية ، كما أن هذه العمليات تؤثر في النسخ على الآلة الناسخة ، أو في استخدام القلم في الكتابة . والمعارك الحربية هي الأخرى لا يتحقق فيها النصر الا بالاعتماد على خطط استراتيجية ، الا أنه من الضروري أيضا حفر الخنادق ، واستخدام الأسلحة النارية . ان البشر يعبرون عن أفكارهم ، ويحققون غاياتهم ببناء المنازل ، وحرث الحقول ، ورسم اللوحات ، والسير في المواكب الدينية .

ونحن في الدراسات الانسانية نهتم بما يقوله الناس ، أو ما يسعون تحقيقه في أفعالهم . غير أن اللغة والأفعال لا يظهرون بدون سلسلة من الأحداث الفيزيقية . واذا أخذنا في الاعتبار كيف تتحدث ، أو نحرث الحقل ، فسنصل الى مفهوم « الميكانيزم » الذي يعبر عن نسق مكون من أجزاء متداخلة تؤدي وظائفها على أساس القوانين السببية ، وترتب عليها نتائج محددة . وأعضاء الكلام ، والجهاز العصبي هي ميكانيزمات من هذا النوع ، مثل الآلات الناسخة ، والكومبيوتر وأنظمة السكك الحديدية . وبناء هذه الميكانيزمات هو موضوع عدد من العلوم مثل البيولوجيا والهندسة ، ولكن طبيعة الدور الذي تلعبه هذه العلوم في تحقيق الغايات الانسانية هي التي تجعلها ملائمة للدراسات الانسانية .

وعلى الرغم من أننا نفكر أساسا في الميكانيزم بوصفه يتألف من أجزاء فيزيقية ، فان المفهوم يستخدم استخداما عاما للاشارة الى أي نسق يتألف من عوامل سببية مترابطة . فالاقتصادي ــ مثلا ــ يتحدث عن ميكانيزم الثمن حينما يكون مهتما بالعلاقة السببية بين العرض والطلب ،

مع أن العلاقة الأخيرة ليست واقعة فيزيقية (انني لا أذهب الى أن معالجة الميكانيزمات يجب أن تكون على نحو ما يفعل الاقتصاديون ، اذ لو كان الأمر كذلك لما كان الاقتصاد دراسة انسانية ، وهذا ما سأناقشه فيما بعد) •

وقد لا نحتاج في بعض الحالات الى الاهتمام بالميكانيزمات ، فسواء كتب الخطاب الذي تلقيته من والدتي بقلم سائل أم بقلم جاف ، أو نسخ على الآلة الناسخة فذلك كله لن يؤثر في شيء • وحينما استمع الى قصة شخص ما لست بحاجة الى معرفة وظيفة أعضاء الكلام • وحينما أدرس معركة كناى Canae قد أهتم باستراتيجية الهانيبال Hannibale أكثر من اهتمامي بأنواع الاسلحة المختلفة ، أو بعدد الفرسان في المعركة•

وفي حالات أخرى يكون اهتمامنا بالميكانيزمات مسألة مفروضة علينا ، فخطاب والدتي تغطيه بقع الحبر ، فهل كان القلم الذي تكتب به يسرب حبرا ، أم أن ذلك تعبير عن حالة اهتزاز غير عادية اصابت يدها ؟ وقد أسمع شخصا يتلعثم ، وقد أريد أن أعرف هل هذا هو نتيجة لعائق جسمي أم أنه تعبير عن القلق ! وفي دراسة بعض المعارك الحربية يكون الاستعداد المتفوق لجيش معين أكثر أهمية من القيادة في الجيش الآخر •

وهناك العديد من المبادىء التي نحتكم اليها في تحديد ملاءمة دراسة الميكانيزمات بالنسبة للدراسات الانسانية • المبدأ الأول هو مبدأ التدخل الذي أشرت اليه من قبل ، فالاضطراب ، والتغير ، أو عدم الانتظام مثل التلعثم أو بقع الحبر على الخطاب قد ترجع الى سوء وظيفة الميكانيزم • وثمة مبدأ آخر اقترح تسميته بالوسائلية Insturumenrality يوصف بأنه استخدام ميكانيزمات مثل الآلية ، والطباعة والاذاعة ، وتطويرها كوسائل لتحقيق غايات معينة • واستخدام هذه الميكانيزمات يؤثر في

الاتجاهات ، فاستخدام تقنيات الانتاج الفني على نطاق واسع يساعد في تقديم أعمال فنية تؤثر في تقييمنا للفن ، وقد يؤدي ذلك الى تعديل الأهداف أو تطوير أهداف جديدة .

وباستخدام مثل هذه المبادىء يمكن تنظيم العلاقة المتبادلة بين العلوم الطبيعية والدراسات الانسانية والتعاون بينهما .

وعند الممارسة ، نجد أن علوما مثل علم النفس ، والاقتصاد ، والجغرافيا ، والتاريخ تحسب حسابا لهذا الموقف حين تنطوي بداخلها على دراسة علمية للميكانيزمات والشروط والمظاهر الفيزيقية للتعبير . وأحيانا ما تدرس هذه المسائل كفروع من الجغرافيا الطبيعية ، والانثربولوجيا الفيزيقية ، وعلم النفس الفسيولوجي . وسواء حددنا دراساتنا بهذه الطريقة ، أو كما حددتها كدراسات انسانية ذات صلات منظمة بمختلف البحوث الطبيعية ، فهذه مجرد مسألة مصطلحات ، وغاية ما في الأمر هو أنه يجب أن يتكون لدينا تصور واضح للفروق الملائمة والعلاقات المتبادلة بين هذه الدراسات وتلك العلوم .

الفصل الثامن

سياق التعبير

١ ـ السياقات المختلفة للتعبيرات وكيف تميز بين العلوم .

٢ ـ كيف تتكون السياقات .

سياق التعبير

١ ـ السياقات المختلفة للتعبيرات وكيف تميز بين العلوم

اذا كانت هناك علاقات ذات اعتماد متبادل بين الدراسات الانسانية وبين العلوم الطبيعية ، بحيث يمكن أن توصف وصفا نسقيا ، فمن الأحرى أن تكون هناك أيضا علاقات ذات اعتماد متبادل بين بعض اجزاء الدراسات الانسانية وبين بعضها الآخر • والواقع أنه توجد لدينا شواهد عديدة مستقاة من حقل الأبحاث المعاصرة تدل على أن تداخل العلوم وتعاونها هو أمر مثمر ، وأن عدم توافر مثل هذا التداخل وذلك التعاون يؤدي الى نظرية واحدية الجانب ، والى نتائج خاطئة • ولكي يكون هذا التداخل وذاك التعاون مقبولين ، فيجب أن تمدنا النظرية في الدراسات الانسانية باطارات نظرية تكشف لنا عن الكيفية التي تتكامل وفقها العلوم المختلفة بحيث يكمل بعضها البعض الآخر •

ولتحديد ذلك فسوف نكشف عن كيفية اختلاف العلوم فيما بينها وفقا للموضوع وطبقا للمدخل ، فنحن جميعا نعلم ما هو علم النفس ، وما هو علم التاريخ ، وما هو علم الاجتماع ، اذ لدينا تعريفات عديدة تبين لنا ذلك • ومع أن البعض يلجأ الى تحديد ضيق ودقيق لموضوع كل علم ، كأن يعرف علم النفس مثلا بأنه دراسة السلوك الانساني ، ويوجه

الاتباه الى الخواص التي يتشارك فيها الانسان مع الفأر ، على حساب الاختلافات الهائلة بينهما ، وكأن يستخدم البعض في تعريفاته عبارات قد ينشأ عنها مشاكل فلسفية خطيرة فيعرف علم النفس مثلا بأنه دراسة العقل ، ويعرف التاريخ بأنه دراسة الماضي ، ويعرف علم الاجتماع بأنه دراسة الأنساق الاجتماعية والمجتمع أو البناء الاجتماعي ، فان مثل هذه التعريفات تؤدي في أحسن أحوالها الى الغموض ، وتؤدي في أسوأ أحوالها الى التضليل • ضف الى ذلك ، ذلك الغموض الذي واكب مسألة العلاقات القائمة بين العلوم ، والذي يرجع في صميمه الى نسبة موضوعات مختلفة الى بعضها البعض رغم التفاوت الكبير بينها • سنحاول هنا اعادة تعريف بعض العلوم الرئيسية في ضوء تطابقها مع سياقات تعبيراتها ، وهي محاولة اعتقد أنها ستقودنا الى الدقة والوضوح • ويجب أن يكون واضحا لدينا ونحن نقوم بهذه المحاولة ، أن يكون للمصطلحات الرئيسية المستخدمة معنى محددا تماما ، وأن تكون تلك المصطلحات متوافقة مع المدخل المتبع ، وأن تكون على نفس النحو في تعريفات العلوم المختلفة • ان التعريفات من هذا النوع سوف تمكننا من تمهيد المناخ الملائم لمناقشة العلاقات المتبادلة بين العلوم •

لقد كررنا التأكيد في هذا الكتاب على أن الموضوع المشترك والعام لكل الدراسات الانسانية هو التعبيرات ، فهل يمكن أن نميز العلوم المختلفة طبقا لاختلاف مجموعات التعبيرات التي تعالجها ؟ ان هذا الرأي يبدو معقولا وشديد الاحتمال ، اذ التعبيرات الوجهية تؤلف موضوع عالم النفس لكنها ليست موضوع المؤرخ أو عالم الاقتصاد ، والمؤرخ قد يجد اهتماما مهنيا في تسجيل معاهدة سلام ، ولا يشاركه في ذلك عالم الاجتماع أو عالم الانثربولوجيا الاجتماعية • لكن هذا المدخل ــ رغم ذلك ــ قد يؤدي على المدى البعيد الى الغموض والتضليل أكثر مما

يؤدي الى المساعدة ، وذلك لأن التعبيرات التي لا حصر لها قد تمثل اهتمامات لعدد من العلوم المتفاوتة فالجريمة مثلا يمكن أن تكون موضوع اهتمام عالم النفس وعالم الاجتماع والمؤرخ وعالم الاقتصاد • ان التعبيرات يجب أن تفهم من خلال سياقاتها ، ولهذا فانني اقترح هنا أن يتم تحديد العلوم المختلفة في ضوء سياقات تعبيراتها . فكل علم يختص بسياقات تعبير تختلف عن سياقات تعبير علم آخر •

وسياق التعبير هو شبكة من التعبيرات المترابطة التي تقع فيه ، وتساهم معه ، وتفهم من خلاله، فالشعر وتاريخ حياة الفرد ونادي الجولف هي تعبيرات من هذا النوع ، كما أن أنماط السياقات المختلفة يمكن تمييزها • وسوف أقدم تعريفات لهذه التي تبدو مناسبة • ان السياق يكون :

من حيث الموضوع Thematic اذا ربط بين تعبيرات تتميز بأنها ذات محتوى عام مشترك • ان كل ملخصات الكتب وكل رسوم مادونا Madonna (وهي صورة العذراء مع السيد المسيح) هي من هذا النوع •

تصنيفيا Classificatory اذا ترابطت التعبيرات فيه على أساس التشابه ، ومثال ذلك « كل التعبيرات الموسيقية » أو « كل الكتب المساعدة » •

وظيفيا Functional اذا كانت التعبيرات فيه ذات علاقة ببعضها البعض في بناء يخدم أغراضا معينة ، ويمكن فهم كل منها في ضوء دوره الذي يقوم به • ان الشعر أو الجامعة هي من الامثلة على ذلك •

تاريخيا Historical حينما يتكون من سلسلة زمنية من التعبيرات يؤثر فيها السابق على اللاحق تأثيرا كبيرا • ان تاريخ الفلسفة خير مثال على ذلك •

وجوديا Existential اذا تكوّن من تعبيرات ذات موضوع واحد، أو كيان يدوم في زمان• ان كل ما يقوله الانسان أو يفعله ويكوّن جزءا من حياته يكون سياقا من هذا النوع •

ويجب أن نضيف الى تلك التعريفات بعض التعقيبات التفسيرية منها أن السياقات لا يجب أن يستبعد بعضها البعض الآخر ، فعلى سبيل المثال يكون للكتاب سياقا وظيفيا حيث تخدم فيه كل فقرة وكل فصل فكرة معينة يكون لها دورها الوظيفي بالنسبة للكتاب ككل • لكن بما أن هذا الكتاب نفسه يتحدث عن موضوع جزئي معين فيلزم أن يكون له أيضا سياق يتصل بالموضوع •

ان التعبير دائما ما يحدث في سياق ، أو يتعلق بسياق أو عدد من السياقات ، لأن من طبيعته أن يشير الى ما ورائه • وهذه الاشارة نفسها عبارة عن علاقة • ونحن لا يمكن أن نتصور التعبيرات على أنها وقائع ذرية تتقوم بذاتها ويمكن ادراكها وهي منعزلة عن بعضها البعض كما ذهب الى ذلك فتجنشتين ، فالأمر عكس ذلك تماما ، اذ التعبيرات كلها يكون لها سياقات تصنيفية وأخرى وجودية ، ومعظمها يتضمن بعضها البعض الآخر • كما أن كل تعبير وان كان ناتجا عن فرد ما الا أنه يشبه ذاته عند الآخرين ، بالاضافة الى أن الكثير من التعبيرات الحالية تتأثر بتعبيرات سابقة تساهم معها ومع تعبيرات أخرى في تحقيق غرض ما•

ان هذا لا يعني فقط تحديد السياق العيني من وجهات نظر متعددة،

بل يمكن أن يعني أيضا أن نفس التعبير قد يكون له مكانا في سياقات مختلفة عديدة في نفس الوقت ، ومن ثم فيمكن أن نعتبره بمثابة نقطة تداخل هذه السياقات ، ان التعبيرات في سياقاتها ليست كقطع الرخام التي يمكن أن توضع في صندوق واحد في نفس الوقت اذا لم يكن الصندوق الكلي موضوعا في صندوق آخر ، انك اذا أخذت تعبيرا من سياقه فانه لا يبقى كما هو ، كما تبقى قطعة الرخام على ما هي عليه اذا أخرجتها من صندوقها • فاذا كنت ألعب الجولف ، فان الدائرتين تلتقيان في نقطة واحدة ، فاذا تحرك واحد من هذين السياقين ، فان التعبير تتغير طبيعته •

ان معظم التعريفات التي أعطيناها للسياقات هي تعريفات مستقيمة وواضحة ، وسوف يتضح لنا كيف يمكن لهذه التعريفات أن تميز بين العلوم ، حيث يعالج الاقتصاد التعبيرات الاقتصادية، ويعالج الدين المقارن التعبيرات الدينية ، لكن ألا تمثل التعبيرات الاقتصادية والدينية موضوعا للتاريخ ؟ ان سياقات الموضوع تلعب نفس الدور أيضا ، فالسياق الذي يتكون مثلا من كل تعبيرات الوطنيين الانجليز هو موضوع علم السياسة في المحل الأول ، لكنه أيضا قد يكون موضوع اهتمام المؤرخ وعالم الاجتماع وعالم النفس • كما أن دراسة بعض السياقات الوظيفية مثل « عمل المصنع » قد تدخل كموضوع دراسة لعدد من العلوم ، ضف الى ذلك أن السياقات التاريخية وان كانت الموضوع الواضح لعلم التاريخ الا أنها يمكن أن تستخدم أيضا في دراسة تاريخ الحالة بالنسبة لعلم النفس ولعلم الجريمة • وأخيرا فان السياقات الوجودية تلعب دورا هاما في العلوم المتمايزة بواسطة تحديدها للكيانات التي تكون محل دراسة •

ان النقطة الأخيرة تحتاج الى تفسير أكثر ، فاذا أردت حين الحديث عن السياقات الوجودية أن أقول بأن التعبيرات جزء من حياة الأفراد وحسب ، فانني أكون مذنبا لو عبرت عن نفسي بطريقة مجردة غير

ضرورية • انني أرغب في أن أدعو أيضا الكيانات ــ وهي ليست ناسا ــ بالسياقات الوجودية لأنها تؤلف موضوعات علوم عدة ، ولأنها تستخدم في تعريف أو في تحديد تلك العلوم • ان المجتمع والأمة والطبقة والثقافة والعمر والحضارة والدولة هي كيانات من هذا النوع • نعم قد يعترض على هذا ويقال أن هذه لا يجب أن تكون كيانات ، فهي في نهاية الأمر لا توجد بنفس المعنى الذي توجد به الأشياء الفردية وأفراد الناس ، كما أنها لا تمتلك حياة عقلية تستخدمها في التعبير عن ذواتها ، اذ كل التعبيرات نتاج أفراد ، أي نتاج كيانات لها وجود فيزيقي مستقل ، ووجود مستمر في الزمان ، وحياة عقلية تكون تعبيراتها هي الشاهد الخارجي الوحيد عليها • ان المجتمعات والدول ••• الخ ليست الا أسماء لتجمعات من الأفراد ، وللعلاقات القائمة بين بعضهم البعض ، ولنشاطاتهم العامة ، كما أن التعبيرات الجمعية كالألعاب وترنيمات الجوقة والرعب الجماعي ليست الا تجمعا أو نسقا من التعبيرات الفردية ، واذن فحينما تتحدث عن ارادة الأمة أو أفعال الدولة ، فيجب ألا ننسى أن الأفراد فقط هم وحدهم الحاصلون حقيقة وبالمعنى الدقيق للكلمة على الارادة والفعل •

كل هذا حقيقي ، ولم يكن في نيتي أن أقدم نظرية ميتافيزيقية تناقض وجود الكيانات ، فعلى الرغم من أن الاعتراض على دعوة الأمم والدول والمجتمعات بأنها كيانات تكون سياقا وجوديا ، يمكن أن يصبح اعتراضا مسيطرا وسائدا اذا عرفنا هذه الكيانات بطريقة معينة تبين كيفية معرفتها وفهمها تجريبيا ، فلقد حددت تلك الكيانات بأنها سياقات ثابتة نسبيا ، وتدوم زمانيا ، ويمكن أن تشير اليها بعض التعبيرات كأمر اصطلاحي ومنهجي • ان تجمع أمثال التعبيرات الأخيرة يكون الدليل أو الشاهد التجريبي على وجود تلك الكيانات •

والواقع أن هناك شواهد وأدلة غزيرة على وجود تلك الكيانات ، ونحن غالبا ما نجد ذلك حينما نسأل عن تلك التعبيرات التي تعبر عن شيء أكثر من ، أو عن شيء آخر غير أفكار ومشاعر ومقاصد الشخص الذي ينتجها ، فشراء الزوجة لاحتياجاتها من السوق ، ومحادثات رجل السياسة ، ومبادرة رئيس الوزراء قد تعبر عن قرار عائلي ، أو برنامج حزبي ، أو سياسة قومية • ليس ثمة غموض في هذا ، فلأن الناس يتأثرون بالعادات والاصطلاحات ، ويتفاعلون مع بعضهم البعض ، ويتوصلون الى حلول وسط ، ويلتزمون بقرارات الأغلبية ، ويفكرون في ضوء الاهتمامات الجماعية ، فاننا يمكن أن نتحدث عن مشاعر الأسرة، أو عن برنامج الحزب ، أو عن أهداف النادي ، أو عن ارادة الأمة • ان الأفراد يعبرون عن كل من الاتجاهات الشخصية والاتجاهات الجماعية ؛ وربما يكون هناك نوع من الصراع بين هذين النوعين من الاتجاهات ، فانني كمواطن يمكن أن أحسّن ضريبة الدخل القومي ، وان أوجه لوما لرئيس الوزراء ، ولكنني كفرد أو شخص فانني أكره دفع الضرائب ، وأكون غير مكترث بالفئات التي تعاني من فرد ما لا أعرفه •

وخلال تلك التعبيرات نستطيع أن نفهم المجتمعات والأمم والأعمار والنظم ، وألا يقتصر فهمنا على الأفراد وحسب • وهذا يعني أننا نستطيع أن نفهم الأفكار والمشاعر التي يتفق عليها أو يتشارك فيها عدد من الأفراد، وأن نفهم أيضا الأفكار أو الأهداف التي تجسّد المؤسسات أو النظم العديدة ، رغم أن المؤسسات أو النظم أو الأمم •• الخ لا تفكر ولا تشعر ولا تتمتع بمقاصد أو نوايا • ولكن لما كانت السلسلة الكلية لأفعال الفهم لها موضوع عام مشترك يدوم في الزمان فاننا نستطيع أن نتحدث عن كيان يمدنا بسياق وجودي • ان هذه الشروط يمكن أن تتحقق بشدة أقل أو أكثر في حالات مختلفة ، بحيث يصبح ما ندعوه بالكيان أمرا تجريبيا • وفي بعض الحالات قد نجد

التعبيرات نادرا ما تصف كيانا مثل الغمر ، ومن هنا تعوق استخدام العمر على أنه كيان •

ان المغزى الابستمولوجي للنقاش السابق يكمن في رفضه للمذهب الفردي المنهجي Methodologcial individualism الذي ارتبط أحيانا بنظريـات الفهم • لقد تعارف الناس على أن الفهم اذا كان مهتما بالمحتوى العقلي الفردي الذي تكشفه التعبيرات ، فان المدخل السيكولوجي سوف يكون المدخل الرئيسي لكل الدراسات الانسانية ، وأن علينا ـ أيا مـا كانت دراستنا ـ ان نركز على النشاطات العقلية المتضمنة فـي الفـرد الانساني • ان مثل هذا التصور فاسد وخاطيء ، ذلـك لأن الاستيعاب الواضح لما تكون عليه التعبيرات ، وكيفية تعامل الفهم معها ، يبـين أن الفهم يمكن أن يكشف عن المحتوى العقلي دون أن يشير الى عمليـات عقلية خاصة بالأفراد ، فنحن يمكن أن نفهم النظام الانجليزي في ضـوء أفكار وقيم وأهداف متجسدة فيه بدون الاشارة الى سيكولوجية الأفراد• ان السياق الوجودي يتمثل هنا في حياة الأمة • ولعله يكون أمرا يستحق التكرار هنا وهو أن هذا النقاش لا يتعلق بمسألة ميتافيزيقية ، ولكـن يتعلق بمسألة ابستمولوجية • نعم يمكن أن يكون النظام الانجليزي نتاج عمليات سيكولوجية فردية لا حصر لها ، ولكن هذا ليست له أية قيمـة ابستمولوجية ، خصوصا اذا علمنا أن باستطاعتنا فهم هذا النظام دون أن نفهم تلك العمليات السيكولوجية الفردية (فنحن لا نستطيع أن نصل أو نحقق هذا النوع من الفهم الأعمق) •



٢ ـ كيف تتكون السياقات .

يجب أن نفحص الآن طبيعة السياقات على نحو أكثر عمقا وأن نتساءل عن ماهية العلاقات التي تربط التعبيرات في سياقات وكيف تتكون هذه الأخيرة ؟ ان اجابتي على هذا السؤال هي ان التعبيرات أو المحتويات العقلية على نحو أدق انما تترابط بواسطة وجودها في الوعي ، ومن أجل الوعي ذاته ، وأن السياقات تتكون ثمتئذ بالأفعال العقلية. (ان التعبيرات تكون أيضا ذات علاقات زمانية، باعتبارها كيانات فيزيقية لها أماكن حسية. ولكن هذه لا تؤلف سياقات .. انها تكون في أغلب الأحوال شواهد على السياقات) .

ان مصطلحات : الوعي ، والمحتوى العقلي ، والفعل العقلي ، التي استخدمتها في اجابتي السابقة ، لا يمكن أن يحدد معناها بدقة ، لذا فيمكن فقط أن نلجأ الى ما هو مألوف أو أن نستخدم مصطلحات مرادفة، ان المحتويات العقلية هي ما تعبر عنها التعبيرات ، والأفعال العقلية هي ما تنتج التعبيرات ، والوعي هو الاهتمام بالمحتويات والأفعال العقلية معا.

ومع ذلك ففي استطاعتنا أن نستخدم هذه المصطلحات لكي نبين بها كيف تتكون السياقات المختلفة ، فحينما تكون السياقات الوجودية أفرادا ، فان هذه السياقات تتكون بواسطة وحدة الوعي (حيث ترتبط المحتويات العقلية حتى وان لم يكن بينها علاقات ، لأنها تخص شخصا واحدا) ، أما السياقات التصنيفية فانها تتكون عن طريق التعرف على التشابه القائم بين التعبيرات المختلفة ، وتتكون سياقات الموضوع من تكرار الاهتمام بموضوع واحد أو بنمط معين من الموضوعات مثل الزيارات المختلفة لرؤية صورة معينة ، وقراءة عدة كتب عن نابليون ،

وتتكون السياقات الوظيفية من الخبرة بالعلاقات الداخلية القائمة بين العمليات العقلية المختلفة في استجابتها لموقف واحد ، ومثال ذلك اذا رأينا شيئا وتعرفنا عليه ، فان الذكريات توقظ المشاعر ، والمقاصد تقود الى الحل وتؤدي اليه ، وتختار الوسائل لتحقيق الغاية • (ان مثل هذه العمليات وما شابهها متضمنة في الفعل العقلي) •

ومن أجل الدقة والضبط يجب أن نذكر أن حديثنا السابق يرتبط بنوع واحد من السياقات هي تلك التي توجد فقط في فهم شخص ما يعاين دائرة من التعبيرات • والواقع أن هناك نوعا آخر من السياقات وهو ذلك المتعلق باستيعاب أو استنتاج تعبيرات لا بواسطة شخص واحد ولكن بواسطة أشخاص مختلفين يتشاركون في اهتمام محدد أو في هدف معين ، هاهنا قد تجد الواحد منهم يقوم بجمع المعلومات الضرورية ، والثاني يقرر الأولويات ،والثالث ينفذ الأفعال المطلوبة • ان مثل هذا يعتبر سياقا وظيفيا (حيث يقوم فيه كل فرد بدور معين يؤدي مع مجموعة الأدوار الأخرى الى تحقيق هدف ما)• ان السياقات الوجوديةوالتصنيفية تتكون بنفس الطريقة •

ان كل العلاقات التي تكوّن السياقات تخبر فعليا ، ويتم استيعاب معناها في ضوء المقولات التي ذكرتها في الفصل الثاني (مقولات الكل والجزء ، والغايات والوسائل ، والقيمة والقوة) كما تتبدى أهميتها الابستمولوجية في تمييزها لموضوع الدراسات الانسانية عن موضوع العلوم الطبيعية ، فنحن نخبر النتائج ، ونتحد بحوادث الطبيعة ، ونصيغ الفروض حول طبيعة الصلات القائمة بين تلك الحوادث •• نحن نخبر ذلك الذي يسقط لا كيف تسقطه الجاذبية الأرضية • ان خبرتنا المباشرة تتمثل في كيف يحفزنا الغضب الى الفعل •

ان أعظم العمليات العقلية أهمية في تكوين السياقات هـو عمـل الذاكرة • والذاكرة تتصل مباشرة بالسياقات التاريخية ، لكن السياقات الوجودية ، لما كانت مهتمة بالكيانات السابقة ، فلا يمكن أن تتصور أيضا بدون عمل الذاكرة هذا• كما أن السياقات التصنيفية وسياقات الموضوع، لما كانت متضمنة للمعرفة ، فانها لا بد وأن تتضمن الذاكرة أيضا •

ويمكن أن ينقسم عمل الذاكرة هذا الى الحفظ Retention واعادة التجميع Recollection • ان الحفظ هـو الوعي بمـا يسبق الحاضر مباشرة ، انه يخلق حاضرا ممتدا هو وحدة واقعية مـن الخبرة ، وبدون الحفظ سوف لا توجد أية خبرة ذات معنى ، فنحن لا نستطيع أن نأخذ أية كلمة ، وأية عبارة ، أو أية نغمة دون أن نربط ما يحدث بما حدث توا في فعل واع واحد • ان هذه هي الحالة النموذجية المثلى للسياق التاريخي كما حددته • أما اعادة التجميع ، أو الذاكرة كما تستخدم عادة ، فهي الوعي بصورة أو بتصور عن خبرة مبكرة •

ان الطريقة التي تعمل بها الذاكرة تحتوي على ملامح ذات أهميـة كبرى من الناحية الابستمولوجية • ومن الخطأ أن نعتقد بأن الذاكرة هي مجرد « ألبوم » من الصور تم التقاطها في الماضي بصورة عشوائية• وعلى الرغم من أنها قد تقوم بهذا الدور حينما تنغمس في أحلام اليقظة ، فانها تلعب أيضا دورا مختلفا وأكثر أهمية في حياتنا العقلية • هاهنا تواجهنا الذاكرة بعنصر الانتقاء أو الاختيار المتأثر بأنماط ماضية ذات معنى ودلالة، وبعمليات عقلية تتكون خلالها كل المعاني • لكن وعلى الرغم من تلـك العمليات العقلية ، فاننا يجب ألا نعد نشاط الذاكرة نوعا مـن النشـاط النظري كصياغة الفروض ، واستنباط تطبيقات من النظريات •• ان نشاط الذاكرة تلقائي بنفس المعنى الذي تكون فيه رؤيتنا للموضوعات المرئيـة

تلقائية ، وذلك رغم احتواء الذاكرة على عمليات عقلية .

ان حياة الشخص الناضج عادة ما تنتظم حول عدد من النقــاط المحورية : كالعمل والزوجة والأسـرة والأصدقـاء والهوايـات وبعض الاعتقادات حول الأخلاق والسياسة والدين ، وكل واحدة من هذه تلعب دورا في حياته خلال مجموعة من الحوادث التـي كونت أنماطـا ذات معنى . دعونا الآن نركز على واحدة من هذه ولتكن « العمل » ، ولنسلم معا بأن هذا الرجل يعمل في « السياسة » ، فاذا ما اقتربنا منه عن كثب لوجدنا أن ثمة أنواعا معينة من الحوادث الهامة تسكن ذاكرته : فهـو حينما كان طفلا ، كان يشتعل حماسا حينما كان يقرأ قصصا سياسية ، وكان اعجابه بعمه رجل السياسة الناجح ، اعجابا لا حد له ، وفي الجامعة كان تمرسه بالاقتصاد والسياسة ، ثم أصبح بعد ذلـك رئيسا للنـادي السياسي ، وأعد بحثا عن الأحزاب السياسية ، وتقدم بنجاح في فهـم النظام البرلماني ، وأصبـح سكرتيرا برلمانيا وهلم جـرا مـن المناصب السياسية . ان هذه الحوادث مثلت حجر الرحى في الطريق الذي تأدى به لا محالة الى مركزه الحاضر . نحن هنا أمام نمط لهمعنى .. فيه كشف للهدف وتحقق ناجح ، وهذا هو النحو الذي تبدو فيه حياتنا لنا .

يمكن أن نحكي قصصا مشابهة عن طريقة لقاء هذا الرجل (السياسي) بزوجته وزواجه منها . ان مثل هذه الأنماط هي بوضوح نتاج النظرة التاريخية التي تميز المدخل التاريخي . الا أن هذا الاختيـار (العمـل السياسي في هذا المثال) كثيرا مـا يتعرض للانحراف أو التشتيـت ، فالشواهد المسجلة المتعاقبة في الزمان لا تصنع بوضوح هـذا الاختيار الخاص ، فخيال رجل السياسة حينما كان طفلا يمكن أن يكون قد اشتعل حماسا بقصص المآثر الملاحية ، كما أنه يمكن أن يكون قد أعجب أيضـا

بأقربائه من المحامين ورجال الآثار ، وهو قد تعلم أيضا الفلسفة الى جانب الاقتصاد والسياسة وكان عضوا بارزا في جمعيات خارى غير النادي السياسي ، وقد كان عليه أن يقوم بأبحاث أخرى غير أبحاث العمل السياسي لكن ظروفا خارجة عن ارادته جعلته يفشل في تلك الأبحاث ، ومن هنا نعلم بأن الخبرات التي قادت طريقه الى وضعه الحالي أو عمله الحالي قد وقفت الى جانب خبرات أخرى لها نفس الأهمية ، وندرك أن ليس ثمة طريق حتمي يمكن أن نميزه ، ولا هدفا واحدي الاتجاه يمكن أن نكتشفه • نحن لا نستطيع أن نتنبأ كيف ستختار الصدفة أو الظروف المتفاوتة امكانية محددة من بين امكانيات لا حصر لها ، وأن تنتج نتائج معينة • وفي الأغلب فان التنبؤات الأولية لدائرة التطورات الممكنة قد تكون ممكنة وغير مستحيلة • يمكن أن نقول « ان هذا الشخص لا يمكن أن يكون موسيقارا ، يمكنه أن يكون سياسيا ناجحا » لكن معنى قولنا هذا يصبح واضحا اذا نظرنا لا الى الامام ولكن الى الخلف •• الى الزمان الماضي •• حيث يمكننا رؤية مجموعة الحوادث المؤدية الى مجموعة من الظروف التي تكوّن نمطا له معنى •

ولعل هذا يفسر لنا قيامما يمكن أن نسميه بالخداع البصري للمذهب الحتمي الذي يذهب الى أننا حينما نتعقب سوابق حادثة ، فان الحادثة لا يمكن لها الا أن تحدث • لكن يبدو أن الأمر ليس على هذا النحو فيما يتعلق بما يقع قبل الحادثة ، فالظاهر أننا نواجه باحتمالات مفتوحة يمكن أن نختار من بينها احتمالا معينا • ان الصراع بين الحتمية وبين الحرية ــ على الأقل ــ بالنسبة لهذا الكتاب هو صراع أوضح من الواقع نفسه ، أنه يتعلق هنا ، بالنظر الى العمليات من منظورات مختلفة •

ان الأنماط لا تثبت مرة واحدة والى الأبد ، فان تغير ظروف

الشخص قد يقوده الى اعادة الترتيب الكلي للنمط ، فاذا توقف (رجل السياسة) عن العمل السياسي وأصبح محاضرا في الاقتصاد فان اتجاهات مختلفة من ماضيه في العمل السياسي سوف تظهر مباشرة في عقله ، وتكون واسطة أو سلما لعمله الحالي ، كما أن عمله السابق سيكون له معنى جديدا ، اذ سيصبح بالنسبة اليه كهواية ، أو ربما يضمحل ، أو ربما اعتبره كمجرد اعداد عملي لعمله الجديد . ان الذاكرة دائما ما تعيد ترتيب نمط الماضي وهي بازاء أي منظور جديد متميز . ولما كان الجديد يتأثر بفيض الماضي ، ولما كنا تتناول الماضي ونعالجه معالجات مختلفة ، فيبدو أن الماضي يحتاج باستمرار الى معنى جديد . وهكذا تمدنا خبرتنا بالعمل الانتقائي أو الاختياري للذاكرة والذي يتطلب الماضي من خلاله نمطا ، وتتبدى الحوادث فيه كمراحل من التطور أو كفصول لعقبة ــ تمدنا ــ ببعض الشروط الابستمولوجية اللازمة في تكوين السياقات .

ومن الطريق الذي تختار الذاكرة وترتب وفقه الخبرة السابقة في ضوء الحاضر ، دعونا نعود الى الطريق الآخر الذي تؤثر فيه عمليات الذاكرة في الحاضر : ان استجابتنا لأي خبرة يكون محتما دائما بالذكريات . فنحن نتعرف ونصنف ما نواجهه ، أو نفشل في ذلك، ونشعر بأن هذا مألوف أو غير مألوف ، وأن هذا هام أو غير هام في ضوء خبراتنا السابقة . أنا لا أحتاج الى أن أستعيد كل صور الذاكرة عن الكلاب لكي أتعرف على الحيوان الذي يقف أمامي ، ولكن اذا لم أعيد تجميع تلك الصور بطريقة تلسكوبية فانني لن أستطيع أن أتعرف على الكلب. واذا استنتجت أن ليس في مقدوري أن أتعرف على هذا الحيوان، فان هذا الاستنتاج انما قد أقيم على محاولة ــ وهي غير ناجحة في هذه الحالة ــ ربط الانطباع الحالي ببعض صور الذاكرة .

ان تأثير الذاكرة على الخبرة تأثير تراكمي ، واذا كان الأمر كذلك

فلن يكون ثمة تكرار في خبرتنا ، فاذا أسقطت حجرة مرتين ، فانها ستسلك نفس الطريق في الحالتين ، لكنني اذا أخذت طفلا الى باريس مرتين فانه لن يتصرف نفس التصرف في المرتين ، لأن الخبرة في المرة الثانية تختلف عنها في المرة الأولى •• يمكن أن آخذه لنفس الفنادق . وأن أجعله يزور نفس المتاحف ، لكن المرة الثانية تختلف عن المرة الأولى لأنها ببساطة خبرة تالية للخبرة الأولى • ان كل التعبيرات تقوم في سياقات تاريخية، لأن أي محتوى عقلي تعبر عنه انما يصبغ بوعي الخبرات السابقة •

ان العمليات التراكمية لا تخص الكائنات الانسانية وحدها ، ذلك لأن الموضوعات، بما فيها أجسامنا ، تتأثر بنفس الطريقة ، فالضرب المتراكم بالمطرقة قد ينتج تغيرا تراكميا في قطعة من المعدن ، يمكن أن تنكسر قطعة المعدن هذه أخيرا لا بسبب أن الطرقة الأخيرة كانت مختلفة عن الطرقات الأخرى بل لأنها كانت الطرقة العشرون• كما أن العملية التراكمية المشابهة لذاكرتنا يمكن أن تلاحظ في معظم ان لم نقل في كل الحيوانات (فالحيوان يتعلم من تراكم الضربات) •أما الاختلاف الجذري الذي يميز الانسان عما عداه فانه يرجع الى استخدامنا للتعبيرات • وبما أننا يمكن أن نفهم ضربات الآخرين ، فهي يمكن أن تؤثر فينا بالفعل كما لو كانت خبراتنا ، فالعملية التراكمية التي تشابه تلك التي تنتج عن عمل الذاكرة والتي لا ترتبط باعادة تجميع الخبرات الشخصية يمكن أن تحدث ، ومثال ذلك فقد أتعلم شيئا مما يحدثني أبي عنه من خبراته ، كما أن خبرتي بالحرب يمكن أن تأخذ نمطا وسطا من بين كل ما قرأته عن الحروب ومن ثم فهناك اتصال وتطور يعلوان على حدود الحياة الفردية •• هناك تقاليد وتاريخ للانسان وليس ذلك للكلاب •

ان العمليات الأخرى مثل اختيار ذاكرة الفرد لما يبدو هاما وله مغزى في ضوء الحاضر يمكن أن تحتل مكانا آخر في سياق تاريخي أكبر • ان كل جيل يواجه مشاكله التي تخصه وحده ، ويضع أهدافه الخاصة، ويختار ما يبدو له هاما من الماضي، ويعيد كتابة التاريخ ، ومن هنا تتكون السياقات التاريخية •

لقد استكملنا الآن الاعداد لتعريف العلوم المختلفة، ولقد رأينا آن التعبيرات توجد ضرورة في كل السياقات، وبينّا كيف تكون السياقات في الوعي من خلال أفعال عقلية مختلفة ، وخصوصا عمل الذاكرة • ان كل التعبيرات تقوم في سياق حياة الفرد وقد تأخذ مكانا في سياقات أخرى وجودية وتاريخية ووظيفية وتصنيفية وسياقات موضوع ، وهذه تؤلف شواهد أو أدلة على كيانات أخرى غير الأشخاص، وتمدنا بأساس فهم هذه الكيانات• ان بعض هذه الكيانات هي موضوع العادات أو التقاليد بالنسبة الي •

الفصل التاسع

التاريخ ، وعلم النفس ، وعلم الاجتماع

١ ــ المدخل التاريخي .

٢ ــ المدخل السيكولوجي .

٣ ــ المدخل الاجتماعي .

التاريخ ، وعلم النفس ، وعلم الاجتماع

١ ــ المدخل التاريخي •

سوف نحدد في هذا الفصل ونناقش ثلاثة علوم انسانية كبرى هي التاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع طبقا للمصطلحات التي وصفناها من قبل • وسوف نعالج هذه العلوم على أنها علوم انسانية ، وعلى أنها دراسات تهتم بالتعبيرات دون الاهتمام بالوقائع الطبيعية الصلبة • وسوف نركز الانتباه على الموضوع الخاص بكل علم منها ، وعلى مختلف سياقات التعبير والمناهج التي تستخدمها • وهذا سوف يمهد الطريق أمام مناقشة عن الاعتماد الداخلي القائم بينها •

ولقد اخترنا هذه الثلاثة لأنها توضح فيما بينها المداخل الرئيسية المختلفة المستخدمة في الدراسات الانسانية بحيث أن اضافة قائمة طويلة من العلوم لن يؤدي الا الى اعاقة النقاش دون الاسهام بشيء له مغزى • وهناك تضادان قائمان بين تلك المداخل الثلاثة : التضاد الأول يقوم بين المدخلين التاريخي والنسقي وهو ما يميز التاريخ عن العلمين الآخرين ، والتضاد الثاني يقوم بين دراسة الأفراد وبين دراسة الكيانات الأخرى وهو ما يميز علم النفس عن علم الاجتماع ، أما التاريخ فيتخذ لنفسه موقفا وسطا •

سوف ننظر في المدخل التاريخي أولا • والتاريخ بمعناه العريض هو دراسة سلسلة من الحادثات الزمانية الخاصة اللا مرتدة والتي يؤثر فيها السابق على اللاحق • وأقول (خاصية) لأن أي نظرية علية لا تهتم

بدراسة ما هو خاص وانما تركز اهتمامها على سلسلة حوادث باعتبارها أنماط • والواقع أن وصف الحوادث الثقافية التي يؤثر بعضها في البعض الآخر هو أمر هام ومن ثم فان قولنا بأن الشمس أشرقت بالأمس كما أشرقت اليوم لا يعطينا وصفا تاريخيا (اذ لا يؤثر اشراق الشمس بالأمس على اشراقها اليوم) •

ان التاريخ بمعناه العريض لا يكون دراسة انسانية وحسب ، اذ يمكننا من خلال هذا المعنى العريض أن نتحدث عن تاريخ الأرض وعن التاريخ الطبيعي • ولقد كانت هذه الفكرة متمثلة في عقل الاستاذ ناجل Nagel حين كتب في كتابه « منطق التحليل التاريخي » يقول « لا يوجد ثمة أساس — مع ذلك — للادعاء بأن الدراسة التاريخية تتجه الى تقييم الحادثات الانسانية ••• ذلك لأنه على الرغم من أن معظم المسائل التاريخية تهتم بلا شك بالحادثات من ذلك النوع (الانساني) فانه توجد لدينا أيضا أبحاث عديدة تطلق عليها أنها تاريخية وتكون من طبيعة أخرى غير هذه ، مثال ذلك الأبحاث المتعلقة بتطور النجوم والأنواع البيولوجية وغيرها كثير » •

ويذكر الأستاذ ناجل في هذا الصدد أن الاستخدام الضيق للتاريخ باعتباره دراسة للحادثات ذات القيمة التي لا يرقى اليها الشك مثل الشئون الانسانية هو استخدام غير تعسفي ، وأنه يمكن تبريره بالاختلافات المنهجية الهامة القائمة بين التاريخ الانساني وبين التاريخ الطبيعي ، كما أنه استخدام يحترمه الذوق العام •• أيستطيع أي انسان أن يفكر مثلا تفكيرا تلقائيا بأن الانسان الذي يوصف في البحث التاريخي هو عالم فلك ؟ لكن اذا اشرت الى الاستخدام العريض على أنه دراسة انسانية فانني لا أستطيع الدفاع عن هذا الاستخدام • ان المعنى

الضيق للتاريخ يجعله منصبا علـى دراسة سلسلة التعبيرات الخـاصة اللامرتدة التي يؤثر فيها السابق تراكميا على اللاحق • (ويجب أن تتذكر أن الاحداث أو الأفعال هي تعبيرات) •

وطبقا لهذا يتكون المدخل التاريخي مـن محاولة فهـم التعبيرات ورؤيتها في علاقاتها بسياقاتها التاريخية ، وفهم السياق الكلي بواسطـة الانتقال من تعبير الى آخر • ان عمليتي فهم التعبيرات في سياقاتها وفهم السياقات من خلال تلك التعبيرات عمليتان متداخلتان تعتمـد الواحدة منهما على الأخرى ، والباحث هو الذي يؤكد على واحدة منهما حسب اهتماماته ومعارفة •

ولما كنا نهتم بوجه خاص بالعلاقات الداخلية القائمة بين العلـوم فيجب أن نلاحظ نقطتين عن تلك العلوم فيما يتعلق بالمدخل التاريخي : النقطة الأولى ؟ هي أن المدخل التاريخي رغم أنه تاريخي أصلا ، الا أنه لا يتحدد في اطار التاريخ وحده ، انه مدخل يستخدم في كل العلـوم الانسانية (بالمعنى العريض لتلك العلوم) • فدراسة تاريخ الحالة لا غنى عنها بالنسبة الى دراسة الجناح في علم النفس ، كذا الصراع العائلـي أو المرض العقلي ، كما أن تاريخ حدوث هبوط الأسعار قد يكون مفيدا لعلم الاقتصاد ، علاوة على أن تقدم بعض النظم والأفكار يمكن أن يكون ملائما للبحث الاجتماعي ، ويكفينا هنا فقط أن نفكر في استخدام ماكس فيبر للشواهد التاريخية ، ضف الى ذلك أن تسجيل بعض التجارب العلمية قد يلعـب نفس الدور فـي الفيزيـاء أو الكيمياء • وهـكذا يطبـق المدخل التاريخي على موضوع خاص بعلم ما أحيانا كدراسة تاريخ الحالة في علم النفس ، وعلى النتائج الخاصة بالدراسات التاريخية والملائمـة لتاريخ الاقتصاد ولتاريخ النظريات الاجتماعية في أحيان أخرى •

ونظرا لأن الفهم يهتم أساسا بالتعبيرات الفردية ، وبالأفكار والأفعال الخاصة ، ونظرا لأن حياة الأفراد تمثل اهتماما ثابتا لنا ، فان التاريخ والشواهد التاريخية المستخدمة في العلوم المتفاوتة لهما أهمية خاصة في الدراسات الانسانية • ان تحليل فرويد لنفسه وما كتبه عن يوميات فتاة مراهقة يثير اهتمامنا حتى بعد تطور نظريات التحليل النفسي ، وحدث هذا بسبب المنظور التاريخي ، وبالمقارنة فان التجارب الخاصة بالعلوم الطبيعية تصبح غير مهمة فور أن يتم تأسيس النظرية • وعلى هذا يمكن أن نقول بأن الدراسات الانسانية ذات طابع تاريخي يميزها عن العلوم الطبيعية •

أما النقطة الثانية فهي ترتبط بما سبق أن لاحظناه من أن الارتباطات القائمة بين محتويات يمكن خبرتها ، وأن هذه الخبرة يمكن أن تسترجع بواسطة الفهم • لكن علينا أن نسأل كيف يحدث هذا ؟ اننا نعلم أن قيصر استلم رسالة من روما ، ومن ثم اجتاز (الروبيكون) ــ وهو نهير في شمال ايطاليا ــ كيف نفهم الارتباط بين هذين التعبيرين ؟ ان جزءا من الاجابة على هذا السؤال ترجع الى الفتنا بالطبيعة الانسانية لكن هذه لا تمثل الاجابة كلها والا لتوقفت معارفنا • نعم ان بعض الناس يمتلكون ما يمكن تسميته بالقدرة الحدسية ، لكنني أرفض أي تفسير لعمل الفهم في ضوء مثل هذه المواهب الخاصة ، ان الاجابة هي أنه لكي نفهم هذين التعبيرين ، فيجب أن نضعهما في سياقات أخرى غير تلك التي حدثت فيهما • نحن نعرف أن هذين التعبيرين من نمط معين لكننا يمكن أن نضعهما في سياق تصنيفي نستخدم فيه معرفة نسقية مطلوبة لعلوم أخرى ، وهذا يعني أننا نفهم الارتباطات القائمة بين التعبيرات الخاصة بالسياقات التاريخية بواسطة النتائج العامة للعلوم النسقية •

وباعتبار أن التاريـخ علم انساني فانه يرتبط أيضا ويعتمـد على الابحاث الطبيعية بنفس الطريقة التي ذكرناها توا ، فالوقائع الجغرافيـة واوجه التقدم التكنولوجي يتم توظيفهما كشروط وآليـات . كمـا أن الأفعال الانسانية يكون لها نتائج فيزيقية نحتاج الى ان نضعها موضع الاعتبار ، بل أن التعبيرات نفسها يمكن أن تفحص كوقائع فيزيقية .

ان النهج الواقعي للتاريخ يرتكز على افتراض عام يغلف كل أفكارنا عن العالم ، وبدون هذا الافتراض يبقى هذا النهج مربكـا أو محيرا . وهذا الافتراض هو أن الحاضر يكون نتاج الماضي ، وأن كل حالة مـن الحالات التي تحدث في لحظة خاصة تكون نتاج حالات سابقة عليها . وها هنا يقوم السؤال التالي : كيف يمكن أن نختار سوابـق أي موقف من وقائع الماضي التي لا حصر لهـا ؟ ان جزءا مـن الاجابة على هـذا السؤال يكمن في عمل الذاكرة الانتقائي وفي الاحكام التي نصنعهـا طبقا لمقولات المعنى ، كما أن الاهتمامات والمشاكل التي تواجه الباحث أو تواجه جيله يمكن أن تلعب دورهـا أيضا ، علاوة على أن العلـوم النسقية تمدنا بالدليل على أهمية ارتباطات معينة .

ان التاريخ يحاول أن يؤلف قصة ذات مغزى من سلسلة التعبيرات أو من تجمعاتها ، وكل تجمع من تجمعات التعبيرات تكون فريدة لأنهـا نتاج عملية تراكمية ، ومع ذلك فيمكن ايجاد تجمعات متشابهةمنها تكوّن سياقات تصنيفية (فكل حرب تختلف عن الأخرى ، ولكن يمكن أن يكون هناك شيئا مشتركا بين الحروب) . ان مغزى القصة لا يأتـي بواسطة اكتشاف نمط سبق انتظامه ، أو حركة هادفة نحو تحقيق غرض مفرد فهذا قد يكون مثار اهتمام الفيلسوف أو رجل الدين لكنه لا يهم المؤرخ . ان المؤرخ يجعل القصة ذات مغزى أولا عن طريق اعـادة استيعاب المعنـى

الذي حواه الناس في الماضي ووصفوا به موقفهم آنذاك ، وثانيا عـــن طريق ترتيب العناصر وفقا لأحكام المؤرخ الخاصة على ذلك المعنى الذي كان في الماضي .

ويجب أن يكون واضحا من كل ذلك أن التاريخ على الرغم مـــن أنه يختلف جذريا عن سائر العلوم الاخرى فانه يمكن أن يكون علميــا بمعنى أنه يستخدم الخطط العقليــة ، وينفذ نسقيا فــي بناء الدراسات الأخرى التي تتضمن الفيلولوجيا والاقتصاد وعلم النفس وعلم الاجتماع .

ولقد ثارت مشكلة ميتافيزيقية زائفة حول المسألة التاريخية ، ادعت بأن التاريخ يجد نفسه في حالة خاصة من الاهتمام بالماضي النهائي الذي يتعذر تغييره ، اذ لما كان الماضي ــ حسب تعريفه ــ لا يوجد الآن ، فان موضوع التاريخ يكون موضوعا غير واقعي ، وتكون قضاياه غير قابلة للتحقق من صحتها من حيث المبــدأ . لكن ألا تكــون تجارب العــالم الفيزيقي قد مضت أيضا ولا وجود لها بعد أن يكتب بحثه تماما كمــوت قيصر الذي يمنع المؤرخ من استعادته حين الكتابة عن أعماله ؟ الواقــع أن التجارب العلمية يمكن تكرارها ، كما أن التجارب المناسبة يجب أن تكون متضمنة في بحث عالم الفيزياء وهذا يمثل تحديا للعلماء الذيــن يرغبون في تغيير نتائج هذا البحث اذ عليهم أن يرجعوا عن مثل ذلــك التغيير بواسطة رجوعهم الى نفس التجارب مرة أخرى . أما في التاريخ فلا يمكن لأحد أن ينظر مرة أخرى في قيصر لكي يرى اجتيازه لنهيــر الروبيكون .

وحينما نستوضح بدقة تلك المسألة في ضوء التعبيرات ومحتوياتها فان المشكلة تتلاشى . ان التعريفات في ضوء التعبيرات والسياقات والمعنى

والفهم المعطاة سابقا في هذا الكتاب قد وضعت لكي تكشف سر المكانة الابستمولوجية لأبحاث الدراسات الانسانية • وسوف تبرهن تلك التعريفات على نفعها اذا مكنتنا من ازالة الصعوبة الحالية •

ان التاريخ مثله في ذلك مثل سائر الدراسات الانسانية يعالج لا محالة التعبيرات التي تكوّن الشواهد أو الأدلة على كل القضايا • وفي حالة التاريخ تكون التعبيرات تعبيرات باقية ، كالخطابات واليوميات ، وأوصاف شاهد العيان، والأوراق الرسمية، والتسجيلات الكنسية، والعملة، والمباني ، والمقابر • ونادرا ما يشاهد المؤرخ الحوادث التي يسجلها •• انه يعالج المرئيات أو الأصوات من خلال أوصاف غير مباشرة ، كالصور أو تقارير شاهد عيان •• انه يحاول أن يفهم تلك التعبيرات ، والمناهج التي يستخدمها من أجل هذا الفهم هي تلك المطلوبة بالنسبة الى كل فهم •• وينتج عن فهمه للتعبيرات فهمه لبعض المحتوى العقلي ، ولما كان الناس يفكرون فيه ، وما كانوا يرغبونه ، وفهمه أيضا للاسباب التي تأدت بهم الى القيام بالأفعال التي قاموا بها •

والمثال التالي سوف يبين لنا بالتأكيد عدم صحة ما يسمى بالماضي الميت Dead past : ان صديقي X يتحدث معي في حجرتي ، واستطيع أن أفهم حديثه وأحس بما يشعر به اذا تحققت شروط معينة ، لكن افرض انه بدلا من أن يراني أرسل الى خطابا ، فهل يمكن لهذا الفعل أن يخلق مشكلة جديدة ؟ بالطبع لا • نعم ان التعبير قد فقد حيويته لأنني لن أتمكن من سبر تغيير نبرات صوته من الخطاب ، لكن يمكنني بالطبع أن أدرس الخطاب بعناية ، وفي فسحة من الوقت ، وعلى أي حال يمكنني أن أفهم خطابه ، باختلاف بسيط تماما كما أفهم كلماته الملفوظة • لقد عملت من الخطاب بما كان يشعر به بالأمس ، ولكن ربما

تغيّر شعوره اليوم ، ومن ثم فانني أقوم بعملية فهم لشيء من ماضـي حياته العقلية ، ويبدو لي أنني أفهم هذا الماضي بنفس الطريقة التي فهمت بها كلماته الملفوظة • افرض أن صديقي مات خلال الليل بحيث يكون ما فهمته من الخطاب جزءا من حياة عقلية تنتمي الى الماضي •• انني أستطيع رغم ذلك أن أفهم معنى خطابه •

أأكون قـد قدمت مسألة ابستمولوجية جديدة اذا كـان الخطاب الذي قرأته قد كتبه قيصر أو نابليون ؟ انني لا أعتقد ذلك ، فمـن حيث المبدأ تكون مشكلة فهم التعبير هي كما هي عليه • لقد تعرفت على X منذ زمن طويل ، ومن ثم أصبحت لدي القدرة على فهمه وفهم خطابـه، لكن هذا لا ينطبق على فهمي لخطاب كتبه نابليون ، اذ لكي أفهم هـذا الخطاب الأخير فيجب أن أكون حاصلا على معرفة بالسياقات المناسبة ، ويجب أيضا أن أتمثل تعبيرات أخرى لكي ادرك حالة العصر ، والمسائل السائدة فيه ، والقيم الشائعة ، ولغة العصر ، كما يجب أن أعرف حياة نابليون واهتمامه وطموحاته من خطابات أخرى ومـن أوصاف شاهـد عيان ومن تقارير كتبت عن أفعاله• أن مثل هذه السياقات التي تؤدي الى فهم التعبيرات هو بالضبط واجب المؤرخ •

٢ ـ المدخل السيكولوجي •

اذا ما انتقلنا من المدخل التاريخي الى المدخل النسقي فيجب أن ننظر فيما يعنيه هذا العلم الانساني أو ذاك حين يهتم بما هو نمطي وعام، وحين يهدف الى الوصول الى التعميمات والقوانين وهذا لا يتناقض مع الحقيقة الأولى التي ذكرناها أولا وهي أن العلوم النسقية تهتم بالحالات والحادثات الفردية ، فالحوادث الجزئية في الفيزياء ، والتعبيرات الفردية في علم النفس ، تشكل الأساس الوحيد الذي تقوم عليه التعميمات ، كما أنها سبب تنوع تلك التعميمات أيضا • وفي اللحظة التي يوجد فيها هيكلا معرفيا فان هذا الهيكل انما يمكن استخدامه في تفسير حركة الموضوعات الجزئية أو سلوك أناس معينين • الا أنه يوجد ثمة اختلافات بين الدراسة الانسانية وبين العلوم الطبيعية فيما يتعلق بالعلاقة القائمة بين التعميمات وبين الحالات الجزئية ، لكن هذه الاختلافات لا تكون من حيث المبدأ بقدر ما تكون متعلقة باختلاف أوجه الاهتمام ، ومع ذلك فيوجد اختلاف آخر يضع حدودا من درجة دقيقة بين الدراسات النسقية وبين العلوم الطبيعية •

ويبدو أن النجاح الباهر للعلوم الطبيعية يرجع الى أنها تذهب الى ما وراء التعميمات الامبيريقية ، فنظرياتها المفسرة توضح في مصطلحات ناتجة عن تحليل الخبرة أو حتى عن البناء الفرضي مثل الالكترونات والموجات وما شابه ذلك • واذا حاولنا أن نحلل التعبيرات لأجزائها المكونة لها • فاننا لن نبقى على هذه التعبيرات اللهم الا اذا كان التعبير

المركب قابلا الى أن ينحل الى تعبيرات بسيطة . ولما كان فهمنا قاصرا على التعبيرات ، فاننا لا نستطيع أن نبقى أيضا على هـذا الفهم ، وستبعد خطواتنا عن دائرة الدراسات الانسانية وهذا يحدث اذا حللنا الكلمة الى حروفها ، فاذا تم ذلك فاننا نكون حينئذ بصدد تناول ما أسميه بالمذهب الآلي . والواقع أن دراسات من هذا النوع يمكن أن نجدها متضمنة في علم النفس أو علم الاجتماع ، لكنها لا تستطـع أن تمكث طويـلا باعتبارها دراسات انسانية بحتة تحتوي على تعميمات لأفعال الفهم . ان أفعال الفهم هذه عبارة عن تفسيرات تكون في متناول يدنا ولا يمكن أن تفسر أبعد من ذلك خلال العلوم .

ونظرا لأننا نستخدم عادة أسماء العلوم للدراسات المتعلقة بالتعبيرات وبالآليات في نفس الوقت ، فلقد نتج عن ذلك وجود نظريات تتضمـن تعميمات للفهم وتفسيرات آلية في الآن عينه . الا أن الفحص النقـدي لمثل هذه النظريات قد تمكن من التمييز بوضوح بـين علوم التعبيرات وعلام التفسير الآلي. ان نظريات فرويد تعطينا مثالا على علوم التعبيرات، فالأعراض الهستيرية كحلول للصراعات هي تعميم يرتكز على فهم تلـك الأعراض كتعميمات ، وعلى العكس من ذلك فان الادعاء بوجود مـوت بيولوجي يقف وراء كل تعبيرات الفناء هـو فرض آلـي . ولا يحتاج التأكيد على هذه الحقيقة الى اثارة اهتمامنا ، فما هو هام هو التأكيـد على أن النتائج تتفاوت بتفاوت العمليات المختلفة .

ان دراسة علمين نسقيين وهما علم النفس وعلم الاجتماع يمكن أن يبين التناقض بينهما ، فعلم النفس دراسة انسانية تعالـج التعبيرات ذات السياقات الوجودية التي تتكون عن وعي الأفراد بفهم التعبيرات وفهـم سياقاتها . ان العلاقة بين فهم السياق كله ، وبين فهم التعبيرات المؤلفة

له هي نفسها التي توجد في علم النفس وفي الدراسات الانسانية الأخرى ؛ فعلم النفس شأنه في ذلك شأن العلوم التعميمية أو النسقية الأخرى يعالج ما هو نمطي من السياقات الوجودية ، أي يعالج ما هو مشترك بين الأفراد ، ويجب ألا نخلط بين دراسة الأفراد وبين دراسة ما هو جزئي ، فعلم النفس يهتم بما هو جزئي بنفس الطريقة التي تتبعها العلوم الانسانية الأخرى حيث نجد أن التعبيرات الجزئية التي تقوم في سياقات حياة الأفراد الجزئية تكون الدليل على هذه التعميمات ، ثم أن هذه التعميمات بدورها يمكن أن تطبق على فهم مثل هذه التعبيرات الجزئية •

ان علاقة علم النفس بالعلوم الأخرى تشابه علاقة التاريخ بتلك العلوم ، فالمدخل السيكولوجي الذي حددناه بأنه فهم التعبيرات في ضوء السياق الوجودي لحياة الأفراد ــ أيا كان من طابعها النفسي ــ يشبه المدخل التاريخي في أنه كلي التطبيق •• فكل التعبيرات ينتجها الأفراد وتقوم في سياق حياة مؤلفها ، ولكي نفهمها يجب أن نربطها بتلك الحياة • ولبيان ملاءمة هذا المدخل يجب أن نعتمد على طبيعة التعبير، فمعرفة المؤلف تساهم قليلا في الفهم الدقيق للحالة الواقعية أو لحل معادلة رياضية ، وعلى الرغم من أن الشعر يحتل مكانه في العرف الشعري ، كما يحتل الفعل السياسي سياقا اجتماعيا ، فانهما يتوضحان اكثر للسياق العقلي الذي انبثقا عنه • ان أي دراسة انسانية في الوقت الحالي تستخدم المدخل السيكولوجي أو نتائج علم النفس قد تلائم الوصف التاريخي وكذا الأمر فيما يتعلق بالدوافع السياسية فان لها علاقة بالتاريخ كما تكون هناك علاقة بين الجشعين من الناس وبين علم الاقتصاد•

وتعتمد التفسيرات السيكولوجية ــ في مقابل هذا ــ على اسهامات

العلوم الأخرى ، فالتعبيرات الموجودة في السياقات الوجودية قد تتطلب سياقات مختلفة اذا كان لها أن تفهم تماما • كما أن التعبيرات الدينية التي تلعب دورا هاما في حياة أغلبية الناس قد تكون ذات أهمية خاصة في فهم أناس معنيين ، ومع ذلك فلكي نفهم محتوى مثل هذه الاستجابات فان علينا أن نلجأ الى التاريخ واللاهوت أو الدين المقارن •

والتعبيرات الجزئية أو أنماط التعبيرات ليست موضوع علوم جزئية ، ففعل الزواج مثلا يحتل مكانا سيكولوجيا واجتماعيا واقتصاديا وتشريعيا ، لكن وعلى الرغم من ذلك التداخل فان كل علم يعالج مرتبة متميزة من التعبيرات التي تم تحديدها بواسطة أهداف رئيسية له • ان التاريخ الذي يعالج سياقات زمانية واسعة يستخدم في أغلب الأحيان تعبيرات تدوم وتبقى لكي يقيم الدليل بها باستمرار ، والصعوبة هي أن علم النفس الذي يتناول الأفراد ويعالج أفعالهم المشتركة لا يمكن أن يعتمد على السجلات الدائمة، فأكثرية الناس لا يرسمون صورا أو يكتبون يوميات أو كتبا أو خطابات ، ومن ثم فان علم النفس يعتمد على تعبيرات متنقلة (غير باقية) طبيعية أو اصطلاحية تقوم كاستجابة للحياة اللحظية للافراد ، أو لعاداتهم النمطية ، كتعبيرات الوجه ، وطريقة الكلام ، والزي، والاستجابات الكلامية • ان علم النفس هو دراسة نسقية تهدف الى تأسيس تعميمات من حوادث جزئية ، والتجارب المعملية ، والعديد من الاختبارات التي تدور حول اختبارات الذكاء ، واختبارات ادراك الموضوع ، واختبارات الذاكرة ، واختبارات الموقف الاجتماعي مثل السيكو دراما تعطينا أمثلة ممتازة عن التعبيرات المضبوطة ، وهذه يمكن أن نبحث فيها •

ان النظرية السيكولوجية قد أدت الى زيادة اتساع دائرة التعبيرات،

كما برهنت افتراضات فرويد عن اللاشعور بأنها افتراضات مثمرة •• انها تعالج ظواهـر تتعلـق بالسلوك الانساني مثـل النسيان ، والهفوات ، والأعراض العصابية والهستيرية ، والتي لا تكون نتاج النشاط الانساني الواعي مثل تعبيرات الأفكار والمشاعر والنوايا •

ان علم النفس لا يحدد نفسه فقط بربط تلك التعبيرات المختلفـة بسياق حياة الفرد ، أو بمعالجة محتوى تلك الحياة باعتبارها ظواهـــر للحياة الفردية ، وانما هو يهتم أيضا بوضعها في سياقات خاصة ، ان علم النفس يستخدم التصنيف حينما يميز الأفكار والعواطف وما شابه ذلك ، كما أنـه يعالج سياقات الموضوع حينمـا يعـالج الأنماط المختلفة مـن التعبيرات التي تحدث في فترات متفاوتة ، كما أن التفاعل بين أنمـاط الفعل العقلي المختلفة لانتاج التعبير (ومثال ذلك صبغ الذاكرة بالعاطفة) انما تتم معالجته في ضوء السياقات الوظيفية •

لقد وضعت وحددت واجبات علم النفس كدراسة انسانية فقلـت أنه يتناول التعبيرات ويهتم بمعانيها، والواقع أن دراسات علم النفس حاليا تدور حول : دراسة الذكاء والذاكرة ، التحليل النفسي ، وعلم النفس الاجتماعي الذي يعالج موضوعات مثل : الاتجاهات السياسية ، والانحياز العنصر ي ، والرأي العام ، والتقاليد التي تدور حوله • ومع ذلك فـان الانسان باعتبار أنه موجود فيزيقي فانه يسلك في بعض الاحيان سلوكـا ناجما عن انغماس شرطـي وهذه ليست مـن قبل التعبيرات ، كمـا أن الانسان يعيش أيضا في بيئة طبيعية تؤثر فيه ويتداخل معها ، وبقدر ما يكون لهذا التفاعل اثرا على سياقاتنا وتعبيراتنا ذات المعنى يكون منتميا الى الدراسة السيكولوجية • والواقع أنه سواء أكانت معالجة الأبحاث التي تدور حول هذا التفاعل قد تمت في ضوء علم النفس أو في ضوء

علوم أخرى فان هذا أمر اصطلاحي ولا يثير أي تساؤل هنا من حيث المبدأ .

ومع ذلك فثمة نقاش يدور حول ضرورة تحول علم النفس الى نموذج من نماذج العلوم الطبيعية لكي يكون أكثر « علمية » وفعالية ، ومن هذا المنطلق فيجب أن تحل التفسيرات التي تعطى في ضوء الشروط الآلية محل التفسيرات التي تعطى في ضوء فهم التعبيرات ، بحيث يمكن توحيد المعرفة في كافة العلوم ويتوقف التحليل المرتكز على الفهم . ان مثل هذا النقاش يمثل في الواقع هجوما على نظرية الدراسات الانسانية كلها لا على علم النفس وحده ، وهجوما على هيكل كبير من العلوم المتميزة باستخدام منهج الفهم الذي لا يمكن احلال غيره محله . ومع أن علم النفس قد ووجه بهذا الهجوم اكثر من سيره لأن له علاقة واضحة بالدراسات الفيزيقية ويعتمد عليها بصورة أكبر من مثيلتها بالنسبة لعلم التاريخ أو فقه اللغة ، فان على علم النفس أن يواجه هذا التحدي .

ان احلال التفسير الذي يتم في ضوء مذهب آلى محل الفهم يمكن أن يرفض على الأسس الأربعة التالية :

١ ـ ان التفسير الآلي ليس عمليا في حالتنا المعرفية الراهنة ، فنحن لا نعرف كثيرا عن الارتباط القائم بين الأفكار التي نستطيع أن نفهمها ، وعن العمليات الدماغية المصاحبة لهذه الأفكار أو المنتجة لها . انـي لا أعتقد أن باستطاعتنا أن نحقق الكثير باستخدام المناهج الميسرة لنا لفحص خلايا الدماغ .

٢ ـ ان الحادثات الميكروفيزيائية المصاحبة لعملية مثل زيارة عقل

انسان لبريجتون هي أمور معقدة ، بحيث يكون من المستحيل علينا عمليا وحتى نظريا أن نعطي وصفا دقيقا لها •

٣ ـ ان الافتراض المتضمن في أنه يجب أن نأخذ حتى الخطوة الأولى تجاه التفسير في ضوء المذهب الآلي هو أمر مثار التساؤل • اني اعتقد على وجه الخصوص بأن مثل هذا الافتراض يماثل فكرة أن الوحدات المركبة يمكن أن تفسر في ضوء بسائطها ، كتفسير الادراك بالاحساس ، وتفسير التعلم التصوري في ضوء تعلم الحيوان ، والدوافع الانسانية في ضوء السلوك الغريزي للحيوان • اننا نكون في خطر داهم حين نفسر ما هو معروف بما هو غير معروف ، لأن هذا الافتراض نفسه أكثر غموضا من معرفتنا بالادراك أو الدافعية • وهناك مقتطفات أربعة نقتطفها من كتاب « علم النفس في الوقت الحاضر » لـ روباك A. A. Roback تؤيد هذه النقطة :

أ ـ ان كلا من اللغويات والطبيعيات الوصفية (التي تتضمن كل مراحل درجات السلوكية) رائعة في دقة تحديداتها ، لكن الحياة تتناول دوما الرغبات والمشاعر والأهداف والدوافع والمثل ، واذا قمنا بتحويل هذه الى مثيرات واستجابات ، فان بحثنا عن الوقائع يكون مضللا • نحن لا نستطيع أن نستخرج هدفا من رد فعل الصوت أو الضوء ••• كما أننا لا نستطيع أن نستخرج مكعبا من المربع ، أو مربعا من الخط (روباك) •

ب ـ ان التصورات البسيطة عن السلوك التي تعطي في ضوء آلية المثير ـ الاستجابة تسقط في تصوير العملية حينما تتقدم أو تتطور (أندرسون) •

جـ ـ ان علم النفس يوجه جهوده الى البرهنة على ان الانسان لا يختلف سيكولوجيا عن العضويات الدنيا كما تم افتراض ذلك بوجه عام. لقد أصبحت النتيجة الرئيسية لمذهب التطور على أيـدي علماء النفس المتأخرين ليست اثراءا لحقل الظواهر البيولوجية فـي تضمين الصفات الغير العاديةللانسان ـ كقدراتهم الخاصة فيالحياة الاجتماعية، وامكاناتهم في العلم والفن ـ ولكن رد القدرات الانسانية الى عضويات أدنـى . وهذه النقلة تؤدي الى التقليل مـن قيمة المميزات الانسانيـة الخاصة . (آ ش) .

د ـ ان العمليات المركبة مثل التعلم ، وحل المشكلة ، وتكوين التصور، درست أوليا في حيوانات ما قبل الانسان التي ـ أيا ما كانت اتجاهاتها ـ تتصف ـ بصورة ما ـ بأن لـديها تلك القدرات .. لكـن حتـى اذا استطعنا الحصول على اجابة من القرد ، فاننا سوف نظل في انتظار اجابة الانسان ، وهاهنا يجب على الاتجاه المقارن الصادق أن يمنعنا من اقامة تعميمات مبينة على نوع معين ويطلقها على كل الأنواع . (آ ش) .

ان هذه الاعتراضات على احلال التفسير الآلي محل الفهم هـي اعتراضات جادة على الرغم من أنها ليست حاسمة ، اذ يمكن أن تقـام ضدها مناقشات عديدة .

٤ ـ ان اعتراضي الأخير هو كما اعتقد حاسم . أن الفهم يكشف لنا عن شيء يختلف عما أعرفه خلال التفسير الآلي . ان المعرفة الممكنة خلال الفهم فقط ذات أهمية أصيلة . وعلى الرغم من أن عدم استخدامنا للمعرفة الآلية العلمية يتأدى بنا الى نواحي تقص فاننا سوف نظـل ـ لأسباب عملية ونظرية ـ في حاجة الى أن نفهم الطبيعة الانسانية . فاذا سألنـا لماذا كان هذا الاعلان مثيرا ؟ أو لماذا يكون الثواب والعقاب مؤثرا على

قيام ابني بواجبه المنزلي ؟ فانني لا أتوقع أن تأتيني الاجابة من الأوعية الدموية أو الخلايا الدماغية • ان العلاقة بالعلوم الأخرى واردة هنا أيضا فأنا لا أستطيع أن أتصور فهم التعبيرات على أنها منعزلة عن التاريخ أو الدين المقارن • واذا كان على التعميمات السيكولوجية أن تساعد هذه العلوم فان هذه العلوم يجب أن تكون ملائمة لمحتوى هذه التعميمات •

وكنتيجة لهذا فانه من المهم أن تؤكد على الوظائف التي تخدم التعريف الصوري لعلم النفس القائم في ضوء سياقات التعبير • وبالطبع يمكننا أن نناقش أن ما نعرفه ككل عن علم النفس انما يرجع الى ما نعرفه عن الحقل الذي يتناوله هذا العلم ، وعن المناهج التي يستخدمها • ومع ذلك فان التقدم في ميدان علم النفس انما ووجه بغموض تصوري ، وبغياب للاطار التصوري الموحد • ان علماء النفس غالبا ما يتحدثون بلغة مختلفة ، وليس ثمة ارتباط بين الخطوط المختلفة للمدخل، كما أن المشاكل يتم تناولها من وجهات نظر متباينة بدون أي ربط بينها • ان ما يسمى بمدارس علم النفس المختلفة يمكن أن يرتبط بمجموعات منفصلة من الباحثين يمثلون اتجاهات مختلفة ، وككل فهم لا يتقابلون •

ومن المهم أن نصل الى تعريف يقف وراء الأصول الابستمولوجية لعلم النفس ككل • ان هناك بعض التعريفات الضيقة عن علم النفس يكون لها تأثيرها الفاسد عليه ، من أهمها تعريفه بأنه « الدراسة المضبوطة للسلوك الظاهر والعلني » • اني أعتقد أن هذا التعريف ضيق أو محدود لأنه يغلق الأبواب على خطوط بحث ممكنة ومثمرة مثل تفسير الأحلام، أو استخدام الاسقاط ، فان قيل بأن الاستماع الى شخص يتحدث عن أحلامه هو أمر يمكن ملاحظته باعتباره سلوكا ظاهرا فان هذا يمثل نصف الحقيقة • ومن ناحية أخرى فان هذا التعريف يعتبر مضللا أو فاسدا

لأننا تتحدث عن سلوك الغازات وبصورة أكبر عن سلوك الحيوانات . لكن الاختلافات بين السلوك الانساني وبين سلوك الغازات أو حتى الحيوانات هي اختلافات كبيرة تفوق أوجه التشابه بينها ، وهذه يجب أن تجد تعبيرا في تعريفنا اذا أردنا ألا نطبق مناهج الملاحظة والتجربة المستخدمة في حقل العلوم الفيزيقية على فهم الانسان .

اني اعتقد بأننا يجب أن نكون على حذر من التعريف التالي « ان علم النفس هو علم العقل » ، وذلك لأننا اذا تحدثنا عن « العقل » و « والقدرات » و « الدوافع » و « الغرائز » على اطلاقها ، فانه يمكن أن نقاد بسهولة الى الميتافيزيقا ، أو يختلط فهمنا بكيانات ميتافيزيقية غامضة . وكنتيجة لذلك فان المدخل السيكولوجي يمكن أن يكون مضللا اذا ارتكز على عمليات غامضة مثل الحدس والبصيرة بالمعنى الذي ندرك بها تلك الكيانات الميتافيزيقية الغامضة .

انني لا أنكر أن علم النفس يدور حول السلوك الانساني فهذا أمر مفيد ، كما أنه مما لا يمكن تحاشيه أن نحدد علم النفس في ضوء هذين المصطلحين (سلوك انساني ــ عقل) هو هراء لا فائدة منه ، ويحمل في ذاته متضمنات فاسدة ، ذلك لأننا اذا بدأنا دراسة موضوعية بافتراضات مسبقة ثابتة ومتجسدة في تعريف العلم فاننا سوف نشوه ما نرى ، أو نتجاهل ما لا يتوافق مع افتراضاتنا المسبقة . ان علم النفس الذي يتم تعريفه في ضوء التعبيرات هو علم النقيض من ذلك تجريبي ومضبوط ، فنحن نلاحظ التعبيرات ملاحظة فعلية ، وحينما نفهمها فاننا نجد أنفسنا أمام محتويات عقلية معينة . اننا يجب أن نتعامل مع هذه التعبيرات في المستوى التركيبي الذي تحدث فيه .

ان القصد بعقل مفتوح الى التعبيرات كما تحدث في مواقف

ودوائر الحياة المختلفة وفي الآداب والسير الذاتية يمكن أن يمدنا بالكثير من المواد الوصفية التي يتطلبها علم النفس من أجل تقدمه ... ومثل هذه الأوصاف وغيرها يجب أن تنتقى من أنماط مختلفة من الناس ومن مستويات ثقافية متفاوتة . نحن نحتاج الى ذلك ، والى كمية هائلة منه ، في سبيل صياغة النظرية في علم النفس .

ان الباحث التجريبي الذي يتمتع بعقل مفتوح يفكر في كميات هائلة من التعبيرات التي تكون في متناوله ، والتي قد تستخدم في علم النفس أو لا تستخدم فيه بسبب نقص الأدوات والخطط التفسيرية التي تواجه الحياة الانسانية التي تقدم نفسها لنا . ان ما يثر اهتمامنا ليس هو « الغرائز » و « القدرات » و « الامكانيات العامة » ، وانما هو التعبيرات المركبة كطموحنا في الحصول على عمل معين أو كالذكريات السارة أو المخجلة عن حب قديم لنا . وحينما نحصل فقط على أدلة تراكمية نسقية من هذا النوع ، وحينما نفهم ما يحدث واقعيا فيما لا حصر له من الحالات فاننا نستطيع أن نبدأ في استخلاص النتائج النظرية وفي انتاج تعميمات ذات أهمية أصيلة ، وفي تقييم العلوم الأخرى ذات الصلة بعلم النفس ، من أجل التبصر في الطبيعة الانسانية .

٣ ـ المدخل الاجتماعي .

ان الكثير مما قلناه عن التاريخ وعلم النفس ينطبق مع بعض التغيير على علم الاجتماع ، فالمدخل الاجتماعي ينطبق أيضا تطبيقا كليا على كل التعبيرات القائمة في ـ والمتأثرة بالسياقات الاجتماعية التي يعالجها علم الاجتماع . كما أن علم الاجتماع ـ في المقابل ـ يعتمد على ويرتبط بالعلوم الأخرى بما فيها العلوم الفيزيقية بنفس الطريقة التي يعتمد فيها التاريخ وعلم النفس على تلك العلوم . علاوة على أن الأسباب

الابستمولوجية التي تتدخل في تحديد علم الاجتماع في ضوء التعبيرات هي نفس الأسباب التي أعطيتها لعلم النفس • وكل ما نحتاجه الآن هو أن ننظر في أفضل طريقة لتعريف علم الاجتماع ، وأن نكتشف طريقة محددة يمارس بها الفهم دوره في هذه الدائرة •

لقد عرّف علم الاجتماع تعريفات مختلفة بأنه دراسة المجتمع ، والأنساق الاجتماعية ، والسلوك الاجتماعي ، وتفاعل الجماعات التي تكوّن المجتمع ، والبناء الاجتماعي ، والمؤسسات الاجتماعية • ان الاختلافات في تأكيد واحد من هذه التعريفات ، أو ما يشابهها لا يهمنا هنا • فاذا ما انتقلنا الى « التطبيق » فاننا سنجد أن بعض علماء الاجتماع يتجهون الى تفسير موضوعاتهم بنوع من الدراسة الشمولية للمجتمع ، بينما يقتصر البعض الآخر على نسق خاص يعالج صور العلاقات • ولا يجب :ن نفرد مجالا هنا للحديث عن مناقشة أساسية للأسس الابستمولوجية لعلم الاجتماع •

ولا أن تنفق جهدنا في دراسة تفسير خاص لعلم الاجتماع ، فان ذلك سيتأدى بنا الى احباط هدفنا المتجه الى اللقاء الضوء على محاولة علماء الاجتماع تحقيق ما يرغبون تحقيقه بطرقهم أو باجراءاتهم المختلفة • ومع ذلك فان كل التعريفات التي ذكرناها أيضا تتسم بأنها غير كافية في تحقيق هدفنا ، لأن مصطلحات مثل « مجتمع » و « اجتماعي » تحتوي على كل الافتراضات التي من واجبنا أن نفحصها •

نحن في حاجة الى تعريف مصطلح « اجتماعي » Social كما يستخدم في وصف الأفعال والأنساق وغير ذلك ، وذلك في ضوء التصورات الناضجة المذكورة في هذا الكتاب ، ولكي نحقق هذا الهدف فانه يجب أن نشير الى دائرة موضوع علم الاجتماع • ان السياق

الاجتماعي هو ـ بالمعنى الواسع ـ واحد يتفاعل فيه أشخاص على الرغم من أننا لا نهتم بالتفاعل الفيزيقي المجرد • فحين شخص ما عرضيا بشخص آخر فان هذا لا يكوّن موقفا اجتماعيا •

ويمكن أن نحدد السياق الاجتماعي بأنه ذلك الذي يتأثر التعبير فيه ، ويفهم بدقة في ضوء علاقته بالتعبيرات الأخرى التي لا تقف في نفس السياق الوجودي لحياة الفرد • ان كل التعبيرات تقف في سياقات اجتماعية ، وبالتالي فيمكن أن نعرّف علم الاجتماع بأنه دراسة للعلاقة القائمة بين تعبيرات مختلف الأفراد في سياق اجتماعي أو أنه دراسة لتعبيرات كيانات وجودية ناجمة عن العلاقة القائمة بين تعبيرات الأفراد • ومثال الدراسة الأولى التوتر الزوجي ومثال الدراسة الثانية وظائف النقابات • أما أهمية الفهم الصحيح لتلك السياقات ، وما اذا كان المدخل الاجتماعي ملائما لها أولا ، فان هذا يعتمد على التعبير وعلى اهتمام الباحث • فاذا رضينا بتفسير الشجار الزوجي على أنه فقدان الزوج لروح المرح وان نضع ذلك في هيئة التعميم التالي « الأناس غير المرحين يكونون شركاء زواج سيئين » ، فاننا انما نحدد أنفسنا بمدخل سيكولوجي • لكن اذا أخذنا الازعاج أو الاثارة المتبادلة بين الزوجين والتوتر الناتج عن الموقف الزواجي في الاعتبار فان الموقف يصبح اجتماعيا والمدخل يكون اجتماعيا كذلك •

ان الموقف الذي تتأثر فيه تعبيرات فرد ما بتعبيرات أفراد آخرين هو موقف مركب ومعقد • ودعونا نعطي مثالا يوضح ذلك : اننا قد نفكر ، مرة أخرى ، في انسان يلقي محاضرة ، فالى المدى الذي يعبر فيه عن أغراض وأفكار خاصة به تكون المحاضرة تعبيرا شخصيا ، واضح أن هذا ليس هو الأمر كله ، ذلك أن اللغة التي يستخدمها أصبحت على

م... يه بواسطة ما لا حصر له من المتحدثين قبله ، كما أن أفكاره
م... ...راءاته وبمناقشاته مع الآخرين ، علاوة على أن محتوى محاضرته
انما يتحدد بمتطلبات عمله ، وبحاجات الطلاب ، وربما بأسئلتهم الخاصة •

والسياقات المختلفة هذه ، والتي تؤلف موضوع علم الاجتماع يمكن أن تصنف ، فبعضها يكون وجوديا يؤلف كيانات تدوم في الزمان ، وبعضها يكون موضوعا مثل كل تعبيرات أفكار المحاضرة أو الكتاب الذي ارتكزت عليه آراء المحاضر ، وبعضها يكون وظيفيا يتمثل في علاقة محاضرة باخرى من خلال اطار برنامج تعليمي • كما أن هذه السياقات تقف ــ في مقابل ذلك ــ في سياقات أوسع ، فالجامعة تقف في سياق تصنيفي من حيث أنها تشبه الجامعات الأخرى التي لا حصر لها والمنتشرة في العالم كله • وهي ترتبط بالسياق الوجودي الخاص بحياة المجتمع ، وتلعب دورها في السياق الوظيفي الخاص بالنظام التعليمي كله • ان هذه الشبكة الكلية من السياقات هي ما نسميها بالمجتمع •

ولغرض معين فاننا سنعتبر التمييز الرئيسي بين السياقات هو ذلك القائم بين السياقات الوجودية وبين غيرها من السياقات • فبين هذه الأخيرة توجد انتظامات وتشابهات توصف عادة بأنها تكوّن البناء الاجتماعي ، انني أطلق على هذه بمصطلحاتي الخاصة اسم السياقات التصنيفية • ان خاصية التعبيرات يتم تحديدها حسب رغبة الشخص الذي يعبر عن نفسه بحيث يجب أن يكون تعبيره مشابها للتعبيرات الأخرى ، بمعنى أن يتطابق تعبيره مشابها للتعبيرات الأخرى، بمعى أن يتطابق تعبيره مع العرف السائدة أو النمط المعاصر ••• هناك ببساطة الرغبة في التصنيف بطريقة معينة تجعل تعبيرات الفرد منتمية الى نمط معين ،

والتقاليد ، والعادات ، والاصطلاحات والمرتبة ، والطبقة يمكن أن تفسر على هذا المنوال • فالطبقة الاجتماعية ، على سبيل المثال ، يمكن وصفها بأنها تجمع من الناس يفكرون بنفس الطريقة ، ويوافقون على تعبيرات مشتركة ، ويتزيون بذي معين ، ولهم اتجاهات اخلاقية محددة (اذا أصبحت مثل هذه الطبقة على وعي بالاهتمامات المشتركة وعبرت عنها بأفكار وأفعال فانها تصبح حينئذ سياقا وجوديا) •

وهناك نمط آخر من السياقات الغير وجودية يتكون من المواقف المعنية ، فالوجود في حفلة ، أو العمل في جماعة صغير أو العضوية في مقابلة رسمية ، تؤثر في التعبيرات بطرق نمطية والتعميمات منها أمر ممكن •

ان علم الاجتماع يتناول كلا من السياقات الوجودية والسياقات غير الوجودية ولكنه يهتم بوجه خاص من السياقات الأولى بالأنساق الاجتماعية ، والمجتمعات، والتنظيمات التي تعالج باعتبارها كيانات توصف بأنها ذات أهداف وأفعال • ان « التنظيم » هنا تصور محدد بدقة يعني أنه سياق يحكم تعبيرات الناس الخاصة بهم وفقا لنمط له أهداف وقواعد محددة ، وسوف اسمي هذا النمط باسم « مؤسسة » ان الاتحاد التجاري مؤسسة ، لكن الوحدة الجزئية تنظيم ، وهما يمثلان كلا من سياقات الموضوع والسياقات الوظيفية : الأول لأنه يهتم عادة بأهداف خاصة ، والثاني لأن التعبيرات المختلفة ترتبط فيه كوسائل لتحقيق الغاية العامة • ونحن نعني بالأنساق الاجتماعية وظائفية أكثر شمولا ، وسياقات موضوع أيضا تحتوي على تنظيمات تساعدها على تحقيق وظائفها • وبهذا المعنى نحن نتحدث عن النسق التعليمي والنسق الاقتصادي وهلم جرا •

ان سياقات التعبيرات هي في ذاتها سياقات مركبة • ان القصيدة

الشعرية هي تعبير في ذاتها كما أنها سياق بالنسبة الى الكلمة التي توجد فيها في آن واحد ، ومن ثم فما يقال عن التعبيرات ينطبق على السياقات. ويتبع ذلك أن هذه يمكن أن تقوم في سياقات أوسع ، في أكثر من سياق في نفس الوقت ، وتؤلف نوعا من نقطة التماس بين السياقات . وحينما نطبق هذه النتائج على التنظيمات فانها تساعدنا على فهم الصراع الذي يثار بينها والذي يبقى دون تفسير اذا اقتصرنا على التفكير فيها في ضوء أنساق خلال أنساق وحسب . ان المصنع يمكن أن يكون مثالا على « تنظيم » ، فهو يقف في سياق الصناعة ككل التي هي جزء من النسق الصناعي للمنطقة ، أن المصنع لا ينتج البضائع وحسب، ولكن يجب أن يعطي العمل في منطقة معينة . والانتاج في حده الأقصى يتضمن حركة وانتقال العمال الى منطقة أخرى قد تتصارع مع وظيفة العمالة الزائدة في هذه المنطقة . وبسبب أن المصنع يقف في سياقات متفاوتة ، ويخدم وظائف متباينة ، فان الصراع يكون كامنا في الموقف كله .

ان التأكيد الدائم في هذا الكتاب يتمثل في أن الفهم هو فهم أولي بالتعبيرات ، وفهم المحتوى العقلي من خلال تلك التعبيرات وهما معا بالاضافة الى ما أشرت اليه في الفصل السابق عن السياقات الوجودية يوضحون أن الاصرار على منهج الفهم لا يؤدي الى نزعة سيكولوجية أو الى مذهب فردي منهجي . ان الأمر ليس هو أن نفهم الفرد ، وأن نفهم السياقات التي تقوم فيه من خلال هذا الفرد . نحن نستطيع أن نفهم السياقات ذات التداخل الشخصي مباشرة من خلال تعبيرات الأفراد . وفي حالة السياقات التصنيفية تتمكن نحن من فهم الفكرة أو الأفكار المقبولة بواسطة عدد من الناس . لكن مسألة ما هي تلك الأفكار وكيف تؤثر في التعبيرات وهي مسألة ذات أهمية أصيلة ، مسألة لا تتصل بالنقطة السيكولوجية الخاصة بلماذا يود الأفراد أن يقبلوا هذه الأفكار .

ان تقاليد الزي تحدد ما يجعل المرأة جذابة وفاتنة ، لكن هذا لا ينجم بسبب أن الرجال والنساء يجدون شيئا جذابا ، ولكن بسبب أن هذا هو تقاليد الزي • وحينما نسأل شخصا لماذا ترتدي هذه السيدة نوعا معينا من القبعات فانه يجيب بأنها سوف ترد على ذلك بقولها « ان كل سيدة ترتديها » ولا يمكن أن تقول « أنا أحبها » أو « انها تناسبني » • وبالطبع فان هناك مصممين أو معلقين على الازياء وهم يساهمون في ابداع زي جديد ، لكنهم رغم ذلك جزء من السياق المركب ، كما أننا لسنا في حاجة الى فهم عملياتهم العقلية الفردية • ولكي نفهم تقاليد الزي، وما الذي يجعل المرأة تبدو أنيقة في زمان معين ومكان معين ، فان علينا أن نقرأ مقالات ، وأن نلاحظ أنواع الزي ، وأن ندرس الاختلافات ، وأن ننظر حولنا ونحن نسير في الطريق •

(ان هذا يعد جانبا واحدا من اهتمام رجل علم الاجتماع ، ويمكن أن نضيف الى ذلك اذا أردنا الحديث عن السياق التصنيفي ، أن تقاليد الزي تقف أيضا في سياقات أخرى • وعلى سبيل المثال السياق الوظيفي للحياة الاقتصادية لأنه يثير عملية الشراء) •

وهذا ينطبق بنفس الطريقة على سياق الموضوع ، ففهم الموضوع يختلف تماما عن فهم الأفراد • نحن نستطيع أن نفهم عقائد المسيحية أو آداب منطقة ما ، ولكن هذا يختلف عن فهم رجال الكنيسة أو فهم الشاعر • وعلى سبيل المثال ، فحين نفهم قصيدة فيجب أن نفهم اللغة ، والصور الشعرية ، وتقاليد الحب الرومانتيكي ، كما شعر بها الشاعر •

وأخيرا ففي فهمنا للسياقات الوجودية فاننا نستوعب تقييمات وأهداف ترتبط بكيان متميز يدوم في الزمان • فالنادي مثلا يدوم كما

هو ويظل محتفظا بطبيعته رغم تغير أعضائه ، ان النادي مؤسسة تخدم أغراضا خاصية ، وله قواعد مالية ، وتعليمات محددة يخضع لها أفراده وموظفوه العاملون في السكرتارية ، وهو يمتلك ملقبات وهلم جرا . ويمكن لنا أن نفهم ما هو هذا النادي بالقراءة عن تكوينه وبملاحظة نشاط أعضائه . وهؤلاء الأعضاء ، وعملهم ، يلعبان دورا متميزا يتحدد بواسطة طبيعة التنظيم والتعبير عنه وعلى الرغم من وجود علاقات هامة ، تستحق الدراسة ، بين شخصية الفرد وبين الدور الذي يؤديه فلا يمكن التوحيد بينهما . ونفس الأمر ينطبق على المصنع وعامليه ، وعلى الدولة ومواطنيها .

ان فهم مثل هذه السياقات ليس أمرا ممكنا وحسب ولكنه ضروري أيضا . فربما نقبل على فهم كيف يقيم النسق التعليمي لهذه المنطقة صعوبة بالنسبة « لجون » فيما يتعلق بتعليمه الخلفية الثقافية العريفية والمتباينة بواسطة دراسة الأفعال التعليمية ومتطلبات البحث وما شابه ذلك من مواد . نحن لا نستطيع أن نفهم المشكلة وأن نصيغ اجابتنا في ضوء الأفراد ، فليس الوزير أو الرؤساء المركزيين أو المحليين هم الذين يؤثرون في تعليم جون . ان ما نستوعبه بدراسة الأدلة هي فلسفة التعليم ، وصيغ الأهداف ، وتختلف الوسائل المحققة لتلك الأهداف . ولكي نفهم ذلك فمن الضروري والممكن أن نعرف كيف تنجت فلسفة التعليم وحققت الموافقة عليها ، وما هي التوترات والمصالحات التي تمت بين مختلف الأفراد . ان معرفة نمو السياقات ، ومعرفة تغيرها ، واتناجها ، يكوّن موضوع دراسات منفصلة .

واذا أردنا أن نلخص هذا كله ، فاننا يمكن أن نقول بأن الواجب الرئيسي لعالم الاجتماع يتمثل في وصف وفهم السياقات المتداخلة

والأشخاص التي تقف التعبيرات فيها • وتصنيف هذه والنظر في العلاقات القائمة بينها على مستوى السياقات الأكبر ، وتحليل الطريقة التي اتنجت السياقات وفقها التوافقات القائمة بين التعبيرات مثل التطابق والتعـاون أو الصراع ، وأخيرا دراسة أحداث العـلاقات المختلفـة لتغييرات فـي السياقات •

ان هذا النقاش حول التاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع يبين كيف أن المدخل المقترح في هذا الكتاب يمكن أن يستخدم في تحديد هـذه العلوم وغيرها ، وأن يؤدي الى ارتفاع المشاكل الرئيسية المتضمنة فـي ثناياها ، ومن بين المسائل التي أثيرت الاعتماد التداخلي المزدوج بين هذه العلوم • ويمكننا الآن أن تنظر بصورة نسقية في العلاقة القائمة بـين مختلف العلوم خلال حقل الدراسات الانسانية الـذي يؤلف • الأسس النظرية للتعاون الداخلي بين العلوم •

الفَصل العَاشِر

التعاون الداخلي بين العلوم

١ ـ الاعتماد المتبادل بين العلوم .

٢ ـ المدخل المتعدد الابعاد .

التعاون الداخلي بين العلوم

١ ـ الاعتماد المتبادل بين العلوم .

لقد كشفنا النقاب في ثنايا هذا الكتاب عن طبيعة وموضوع ومناهج الدراسات الانسانية ، وذكرنا في الفصل السابق بوجه خاص الملامح المميزة للانساق العلمية الفردية ، وعلينا الآن أن نتتبع بصورة نسقية الاعتماد الداخلي المتبادل بين هذه الأنساق العلمية واضعين نصب أعيننا أساسه الابستمولوجي وضرورة مناقشة الحاجة الى تكامل وتعاون هذا الاعتماد الداخلي .

لقد لخص الأستاذ أ.س. رسل في عدد Listener الصادر في السادس من يوليو ١٩٦١ نتائج كتاب Pyke المسمى « حدود العلم » بقوله « ان التقسيم التقليدي للعلم الى الفيزياء والكيمياء والفلك ...الخ كان هو الفكرة السائدة في العلم ، وهي في حد ذاتها فكرة طيبة بالنسبة الى الطلاب والأساتذة والباحثين ، وتعد خطأ مفيدا يعيننا على تخطي الجهل ، لكنها ليست مدخلا ضروريا يعيننا على فهم الطبيعة . ان الدكتور Pyke لم يبرهن على أن هذه التقسيمات يجب أن تنتهي ، فلقد تساءل عما اذا كانت الحدود القائمة بين العلوم هي مجرد اصطلاحات ، وعما اذا كان التقدم الذي تم والذي يمكن أن يتم قد قطع اشواطا كبيرة

عن طريق تجاهل هذه الحدود... أم أن انجازا كبيرا قد تم بسبب معالجة الأفكار والنظريات والمماثلات والتقنيات الخاصة بعلم واحد بعيدا عن أي علم آخر . وفي الحاضر نحن نطبق فكرة التطور لا على النباتات والحيوانات وحسب بل على جزيئيات الانسان أيضا . ان أدوات الفيزياء أصبحت تستخدم في توضيح الكيمياء ، وبناء البروتونات هي أحد مفاتيح مغاليق الطبيعة الحية للخلية ، والاكتشافات الخاصة بالجزء الأصغر من الذرة — أي النواة — تساعد عالم الفلك — وهو على الطرف المضاد — على فهم العالم الأكبر » .

ان هذا ينطبق أيضا على الدراسات الانسانية وعلى العلاقات القائمة بينها ، فلقد رأينا في الفصل السابع من هذا الكتاب أن موضوع العلوم المتخصصة يمكن أن تعالج نفس الواقع من وجهات نظر مختلفة . ان التعبيرات العقلية ومشاكل فهمها ليست سيكولوجية أو اجتماعية أو اقتصادية .. انها ظواهر سيكولوجية واجتماعية واقتصادية .. انها تقف في سياقات من هذا النوع ويمكن أن تفهم من خلال تلك السياقات . ان القول بأن سميث أمضى عطلته في ايطاليا يمكن أن يقوم في سياق سيكولوجي ، لأن هذا تعبير يعبر عن رغباته واهتماماته ويؤثر في أفعاله الأخرى كأن يقتصد مالا أو أن يتعلم اللغة الايطالية . لكن هذا التعبير نفسه يمكن أن يقوم أيضا في سياق اجتماعي حيث أنه يمكن أن يشير الى تغيير عادات واهتمامات رجال الأعمال ، كما أن اختيار سميث قضاء عطلته في ايطاليا بالذات دون قضائها في بريجتون أو بلاكبول قد يكون له أسباب ونتائج اقتصادية ، وهاهنا يقف التعبير في سياق اقتصادي . ومن ثم فان هذا الفعل يتطابق مع ، ويمكن أن يفهم خلال هذه السياقات المختلفة .

ويمكن لنا أن نصف الواقع الانساني بأن له أبعادا عديدة تماما كما نصف المشاكل الانسانية الخاصة بذلك ، وأن نصف مشاكل العلوم الفردية بأنها مشاكل ذات بعد واحد ، اذ لما كان كل علم فردي يعالج تجريدا واحدا من الواقع العيني فان نتائجه لا بد وأن تكون محددة وذات جانب واحد ، ليس ثمة كائن انساني هو ببساطة « انسان اقتصادي » ، ولا يمكن أن نفهم مثل هذا الانسان لو كان كذلك • وليس ثمة فعل انساني يمكن أن يفهم في ضوء مصطلحات سيكولوجية بحتة دون الاشارة الى الظروف الاجتماعية • ان الجناح والتعصب والعلاقات الصناعية المتوترة هي أمثلة قليلة تعبر عن واقع عالمنا المعاصر ، ولكي تسأل عن تفسير ذلك فلا يمكنك أن تجد هذا التفسير في الجانب السيكولوجي وحده أو الجانب الاجتماعي وحده أو التاريخي وحده أو الاقتصادي وحده •• ان كل هذه السياقات مجتمعة قد تكون ملائمة لفهم واقع عالميا ، كما أن التفسيرات ذات المصطلحات المختلفة يمكن أن تترابط في تفسير واحد كامل • وانه لأمر يعود الى السذاجة الابستمولوجية أن نخلط بين تفسير يعطي في ضوء علم واحد وبين تفسير كامل لموضوع ما •

ان نتائج العلوم الفردية لا يمكن أن تتأدى بنا الى فهم كامل لمشكلة واقعية عينية ، ولكن يجب أن تمد يد العون الى علم ما من علوم أخرى من نفس دائرته • ويمكن أن ندرك هذا أوليا ولا نحتاج الى أن نبرهن على صحته أو أن نكتشفه تجريبيا ، ومع ذلك يمكن أن نعطي أمثلة على اكتشافات تجريبية نبعت عن أبحاث مضنية ، نبدأ الآن بمثال منها وليكن من ميدان الجناح : لقد ركزت أبحاث عديدة على عوامل معينة أو على مجموعات معينة ـ من العوامل مثل علاقة الجانح بوالديه وبالجيرة وبالمعايير الاجتماعية لمنطقته وما شابه ذلك • ثم تؤسس هذه الأبحاث

ارتباطات معينة بين الجناح وبين عوامـل مثل : الأسرة المفككة ، والأم العاملة ، والمناطق المتخلفة ، وعضوية الجماعة ، وعدم النضج العاطفي • ولكن ثبت أن لا واحد من هذه النظريات قادرة على أن تبرهن على كفايتها وكفاءتها بذاتها ، كما أن المنظور الواحدي الجانب الذي نظرت منه هذه النظريات عرّضها حديثا لأوجه نقد جارحة ، فلقد تبين أن أطفال الأسـر المفككة ، وكل أعضاء الجماعات ، وكل أولاد الجيرة الفقيرة ، ليسـوا جميعا آثمين أو جانحين • ان السياقات ذات العلاقات المتداخلة والمركبة يمكن أن تساعدنا وحدها على فهم مشكلة الجناح لـدى الأفراد تلـك المشكلة ذات الأبعاد العديدة •

وهناك مثال ممتاز آخر عن قصور المدخل المتخصص والنقاط التي يجب أن يصحح بها نستقيه من ذلك البحث الجاد الذي نجده في كتاب « الشخصية المسيطرة » وفي المجلد الذي يعقب نفس هذا الكتاب والذي يحتوي على عدد من التعليقات وأوجه النقد • لقد تناول الباحثون بحثهم هذا من منظور سيكولوجي ، لكن حينما واجهوا بأمانة تعقد موضوعهم المختار ظنوا أن الصعوبات التي واجهتهم انمـا تتصل بدراسات علـم المناهج •

استخدم الباحثون تقنيات مختلفة ، وكانوا يغيرون أدوات البحث في ضوء ما يظهر لهم باستمرار خلال عملية بحثهم ، كما استخدموا عددا من الاستبيانات ، وغيروا فيها وبدلوا ، واستعانوا بتحليل نقدي للكتب والمقالات والعبارات التي تعبر عن التعصب ، وعمقوا بحثهم بمجموعة من المقابلات Interviews وبالوعي بالموضوع، وبالاختبارات المخططة• ثم قاموا بترجمة ما جمعوه الى معادلات وتقديرات احصائية ، وغـذوا اطار بحثهم بافتراضات مستقاة في معظمها من نظرية التحليل النفسي •

بدأ هذا البحث بمشكلة التعصب ، وانتقل الى مجموعة من النظريات التي تم اختبار كل منها : لقد قررت أول نظرية منها أن الناس الذين يتعصبون ضد جماعة معينة (كاليهود مثلا) يميلون الى التعصب ضد جماعات أخرى (كالزنوج والكاثوليك مثلا) كما يميلون الى تعظيم جماعتهم أو موطنهم الخاص ، ويسلمون بذلك تسليما أعمى • وفي المرحلة الثانية من هذا البحث ربط الباحثون بين التعصب وبين نظرية سياسية عامة تقرر أن المتعصب يميل الى أن يكون محافظا ورجعيا وأن غير المتعصب يكون ليبراليا ويساريا وتقدميا • أما الفرض الثالث الذي ثبت بالدليل فهو أن المتعصب والرجعي يتشاركان في عدد عريض من الاتجاهات الاجتماعية : انهما يميلان الى اتخاذ مواقف سخرية وانتقاد تجاه الجنس الآخر ، ويعتقدان بتفوق الرجال على النساء ، ويعجبان بالنظام والقيادة ، ويؤيدان عقاب الجرائم عقابا رادعا • وفي المرحلة التالية من البحث ربط الباحثون بين تلك الاتجاهات وبين السمات الشخصية ، فالمتعصب من الناس يميل الى التمسك بالتقاليد ، والجدية في التفكير ، والاشادة بالآداب والأخلاق ، والاعتقاد بالخرافات • أما المرحلة الأخيرة من البحث فكانت بمثابة محاولة لربط هذه السمات الشخصية بعلاقة طفولة المتعصب بوالديه من مثل الأب الجاف أو القاسي الذي يخمد أو يستأصل في ابنه أي علامة من علامات التمرد أو الاستقلال •

لم يستطع البحث أن يحيط ـ مع ذلك ـ احاطة كاملة بثراء المواد المقترحة والمقدمة من عدة أنحاء ، وبالطبع فأنا لا أريد أن أخضع هذا الى اعتبارات نقدية ، فما أريده الآن هو أن أعود الى المشكلة الخاصة التي كان على الباحثين أن يواجهوها وهي مشكلة قصور المدخل السيكولوجي وحده على معالجة مسألة التعصب ، هذا القصور الذي

بدى أمامهم في المساهمات النقدية التالية التي ظهرت في المعجم الملحق بالكتاب .

لقد تمثلت المشكلة فيما تبينوه من وجود حالات لا تتلاءم مع الصورة التي وضعوها .. فلقد وجدوا أناسا يساريين وربما ماركسيين ليسوا ضد السامية أو الزنوج ولا يمجدون أو يعظمون أمريكا ، ومع ذلك يظهرون نفس السمات الرئيسية لشخصية الرجعي المعادي للسامية . ترى ما هو الخطأ في معامل الارتباط هذا ؟

ان الذوق الشائع العام يقترح بلا شك الاجابة التي أعطاها E. Shils بصورة منظمة وهي أن الأذكياء من علماء النفس والطب النفسي الذين تعاونوا في هذا البحث العظيم كانوا سذجا في صياغة مقولاتهم السياسية ، فالانتشار الفعلي مما يسمى باليسار الى ما يسمى باليمين ليس هو ببساطة تقدما منتظما من عقلية متفتحة راديكالية الى أخرى محافظة استبدادية .. فهناك استبداديون دجماطيقيون في اليسار ، وهناك استبداديون دجماطيقيون في اليمين ، وليس من المدهش اذن أن يظهر الأولون نفس السمات الشخصية التي يظهرها الاستبدادي الدجماطيقي اليميني . وبالطبع فان الاستبدادي اليساري ليس ضد السامية ولا يقبل هذا وسبب ذلك واضح عند طلاب السياسة ، فالماركسية لا تعرف التمييز بين الأجناس ، أو القوميات ، ومن هنا فهي تنفي معاداة السامية ولا تعتبر أمريكا الرأسمالية على أنها وحدها منطقة الله الخاصة . ومن ثم فان الاستبيانات والمقابلات التي ركزت على تصور الشخص المتعصب على أنه « يميني متطرف » لم تكشف عن تعصب « اليساري الاستبدادي المتطرف » ، ذلك التعصب الموجه ضد البورجوازية ، والذي يعجب اعجابا لا تشوبه أي شائبة بروسيا . والواقع أن هذه الخصائص لا يمكن

أن تأتي الى النور الا كنتيجة للاجابة على استبيان يؤسس على فهم دقيق بالاطار السياسي الذي يوجه المتعصبين من أعضاء اليسار الى قنوات خاصة .. أنا لا أناقش مسألة ما اذا كان الماركسيون جميعا متعصبين أم لا .. وبالطبع فهناك بعض الاعتقادات مثل الفاشية أو الماركسية الارثوذكسية تلجأ الى التعصب بوجه خاص . وبعض الاتجاهات السياسية يمكن أن يقبل بالخرافات أو القطعيات بصورة أكبر أو أقل ، بل يمكن أن يكون الليبرالي ضيق العقل ودجماطيقي في نقاط معينة ؛ لكن النقطة الرئيسية هنا هي أن التعصب يتلون أو يصطبغ بالايديولوجية .

ليس من الصعب علينا أن نستخلص الدروس من هذين المثالين بأسلوبنا ومصطلحاتنا الخاصة ، فالتعبير مثل ظهور التعصب هو نقطة تماس سياقات عديدة : تاريخية وسياسية وسيكولوجية ، وهو (أي التعبير) لا يمكن أن يفهم بدقة الا اذا تعززت البصيرة المكتسبة من سياق ما ببصائر مكتسبة من سياقات أخرى ، فمثل هذه البصائر الأخيرة تصحح البصيرة الأولى . أنا لم أناقش ملاءمة السياقات الاقتصادية والتاريخية لفهم « التعصب » مع أن لهما علاقة كبيرة بهذا الفهم ويمكن أن يدخلا ضمن السياقات التي ذكرتها . ومثال ذلك انه اذا وجدت طائفة يهودية قليلة العدد وأخرى أرمينية، ولكن هذه الأخيرة تنافس باقي المواطنين اقتصاديا أو في سوق العمل ، فان التعصب يميل الى أن يتعصب ضد الأرمني أكثر من التعصب ضد اليهودي .

ويمكن أن تتنوع الأمثلة الى ما لا حدود له ، فهناك على سبيل المثال نظريات سيكولوجية عن القيادة تعالج سمات يجب أن تتوفر في القادة، وهناك أيضا نظريات اجتماعية تركز على الدور الاجتماعي للقادة.. ونظريات أخرى عديدة . لكن لا يمكن لنظرية منفردة منها أن تدعى

كفاءتها وكفايتها ، ومن هنا تكون حاجتنا ماسة الى مدخل علمي متداخل لفهم مثل هذه الظواهر الخاصة .

ولما كان تحديد كل علم انما يتم طبقا للتجريدات التي يعالجها ووفقا للمناهج التي يستخدمها ، فان نتائجه لا بد وأن تكون واحدية الجانب . اذ علما منفردا من العلوم لا يمكن الا أن يكون اسهاما محددا بفهم بعد واحد لمشاكل لها أبعاد أخرى . وحينما نعتقد أن كل علم انما يكوّن نفسه ذاتيا بحيث يبدو مستقلا عن غيره ، فان جانبه الأحادي يصبح أمرا مضللا . ولعل من أسوأ ما يكون أن يتم اختيارنا للمشاكل بسبب سهولتها وامكان اخضاعها لمنهج معين ، دون أن يكون لدينا هدف أو غرض واسع الرؤية ، ان مثل هذا العمل يعد مجهودا ضائعا لا معنى له ، فليست كل ذرة من المعلومات بصالحة لأن تسهم في بناء صرح المعرفة . والواقع أنه اذا كان للدراسات الانسانية أن تتقدم خطوات الى الأمام وأن تقدم اسهاما فعالا في كل من الفهم النظري للانسان والحل العملي لمشاكله الملحة (مثل مشكلة الجناح) فمن الضروري لها أن تتخذ لنفسها استراتيجية واضحة تعمل على الربط والتعاون بين مداخل علوم مختلفة ، وأن تعالج كل المشكلات علاجا تكامليا .

٢ ـ المدخل المتعدد الابعاد .

لا يمكن أن نستعيض عن المدخل المتكامل بتجميع آلي للأنساق العملية ، فمثل هذا التجميع ليس كافيا وغير مرغوب فيه رغم أنه قد يجتمع في فريق بحث واحد ما هو سيكولوجي مع ما هو أنثربولوجي أو ما هو اقتصادي مع ما هو اجتماعي . ان الأمر هنا يماثل أن ننشر في كتاب واحد دراسات سيكولوجية وتاريخية واجتماعية تتناول موضوع

القيادة • ان مثل هذا التجميع يمدنا بالمادة العلمية لكن ذلك لا يعوضنا عن الفهم الشامل للمشكلة الانسانية • ان مدخلا فلسفيا عريضا سيفيد في الاشارة الى الأساس النظري للتعاون والتداخل بين العلوم • واذا كان من الضروري ــ كما رأينا ــ أن نعيد فحص العلاقة القائمة بين العلوم الطبيعية وفحص أساس تعاونها فانه يكون من الضروري بصورة أكبر أن نفحص ذلك في الدراسات الانسانية التي لا تمتلك الا اطارات نظرية غير متينة البنيان •

ان الأمر يكون مضللا حين نفكر في التعاون المتداخل بين الأنساق العلمية في ضوء علاقة نسق كلي بأنساق جزئية ، فلا معنى لقولك بأن علم الاجتماع يرتكز على التاريخ أو على الانثربولوجيا الاجتماعية الا اذا أخذنا ذلك القول باعتباره اشارة مختزلة لنوع جزئي من العلاقة • ولا معنى أيضا لأن ترد سيكولوجية الجناح الى ناحيتها الاجتماعية باعتبار أن الأولى جزء من الثانية ، ان الأنساق المختلفة تتلاءم بينها على مستوى التعبيرات ــ سواء كانت تلك التعبيرات فردية أم كانت جماعية ــ التي تتعامل معها • ولأن التعبيرات غير متخصصة فانها تكون بمثابة نقاط التقاء أو تقاطع أو تماس السياقات المختلفة التي تكوّن موضوعات العلوم المتفاوتة ، ولكي نفهم هذه التعبيرات فمن الضروري أن نرجع الى أنساق أو علوم عديدة • والواقع أن متطلبات فهم مواقف معينة تمدنا بالقواعد التي تترابط وتتعاون المداخل المختلفة طبقا لها ، ويمكن أن نفهم التعبير في ضوء سياق قبل أن ندرك أنه ينتمي الى سياق آخر ، ومثال ذلك اذا فهمنا فعلا شخصيا على أنه ينتمي الى سياق اجتماعي فهل تكون ثمة مشكلة اذا تلاءم مع هذا الفعل سياق سيكولوجي ؟ •

لقد ذكرنا سابقا أن كل التعبيرات لا بد وأن تقوم لا محالة في سياقات عديدة في نفس الوقت ، فتعبيرات شخص ما تكون جزءا من

حياته الفردية ، كما أنها تنتمي الى السياق التاريخي لأنها لاحقة لتعبيرات أخرى أثرت عليها بالتراكم ، ولما كانت هذه التعبيرات تتأثر بما يسبقها وتؤثر فيما يتلوها من تعبيرات أفراد آخرين فيمكن أن نقرر بأن لها سياقا اجتماعيا ، وكونها تشابه تعبيرات أخرى ، فانها تقوم أيضا في سياق تصنيفي ، كما أن لها سياق موضوع حيث أنها تعبر عن فكرة جزئية معينة تتحدد بمصطلحات قانونية أو ملاحظات دينية أو نشاطات اقتصادية• ومن ثم فان المداخل التاريخية أو السيكولوجية أو الاجتماعيةفي تحديدها نسقا كالاقتصاد أو التشريع من حيث الموضوع يمكن أن تكون ملائمة من حيث المبدأ لفهم كل تعبير •

ويمكن أن نوضح هذا بمثال « سرقة سيارة » ونعتبره التعبير الذي نريد فهمه ، فحينما ننتبه أولا الى الخواص الواضحة لهذا الفعل فاننا نضعه مع ما يشابهه ونميزه عما يختلف معه ، أي أننا نضعه في سياق تصنيفي • واذا كانت السيارة قد اخذت بدون علم صاحبها ، ولم تكن هناك نية في ارجاعها ، فاننا هنا سنتناول حالة سرقة لا حالة استعارة وهاهنا يمكننا تحديد مكان التعبير في سياق موضوع معين • ثم أن تحديد قيمة السيارة هو أمر اقتصادي ، وبيان أن هذه الحالة جريمة أو خيانة هو أمر يتعلق بالقضاء ، ثم علينا أن نعرف بعد ذلك كيف حدثت السرقة •• هل حدثت عمدا وبسبق الاصرار ؟ هل للص جنايات سابقة ؟ ان هذا يعد جزءا مما أسميه بالسياق التاريخي • وحينما نسأل لماذا ارتكب هذا الشخص حادث السرقة فان هذا يعد موضوعا سيكولوجيا ، وهاهنا علينا أن نبحث في سياق حياة هذا الشخص •• هل هو من أسرة مفككة ؟ هل يشعر بأنه مكروه ؟ هل يريد أن ينتقم من أبيه ؟ • وأخيرا اذا أردنا أن نعرف لماذا أخذ الانتقام من أبيه هذه الصورة ، فان الاجابة ستكون سوسيولوجية بالضرورة تتمثل في أن هذا الفعل (السرقة) يتبع نمطا سائدا في الجيرة أو المجتمع ، كما

تتمثل في طلب الجاني أن يتصف بالجرأة والجسارة بين أصدقائه ومعاصريه.
ان الاجابات التالية « هـذه محاولة للحصول علـى شيء مـن لا شيء » « هذه خطيئة » « هذا فعل انتقام من أب مكروه » « هذا فعل لرجل جسور جريء » هي اجابات عديدة ممكنة على السؤال « ما هذا الذي حدث ؟ » لكن لا توجد اجابة واحدة منها يمكن أن تدعى أنهـا وحدها الاجابة الصحيحة ، وذلك لأن الاجابات كلها تصنع معنى الفعل ، كما أنها تعتمد على بعضها البعض ، فلا يمكن أن تكون تلك الحادثـة فعل انتقام دون أن تكون خطيئة ، ولا يمكن أن تكون الأخيرة دون أن تأخذ شيئا له قيمة معينة وهكذا .

ويمكن بالطبع أن نعطي أمثلة أخرى للمعاني المختلفة لأي تعبيـر آخر . وفي الواقع فان عملية الحصول على فهم للتعبير بربطه بالسياقات المختلفة التي يوجد فيها انما تمدنا بحالة نموذجية مثلي لما يجب أن يكون عليه المدخل الذي ينبغي أن نستخدمه في الدراسات الانسانية .

ويمكن لمثل هذا المدخل المتعدد الأبعاد أن يتقدم خطوة فخطوة ، اذ يجب أن نبدأ من سياق واحد ، ونحدد نسقه المنتمي اليه حسب تدريب الباحث واهتمامه ، وحسب خاصية التعبير ، وحسب الدائرة التي يكون للتعبير فيها أضخم تأثير وأوضحه . ويجب أن يدرك الباحث أن مقيـاس فهمه لا يرجع وحسب الى مدخله الخاص (المتخصص فيه) ولكن يرجع أيضا الى تحقيق الشروط الابستمولوجية للفهم كما ذكرناها سابقا مهمـا كان من عدم الاكتمال التام لهـذا التحقيق ، فخـلال الألفة بالطبيعـة الانسانية ، والمعرفة بالخلفية الثقافية ، والوعي بالسياق الواقعي ، يكون الباحث قادرا على فهم بعض العلاقات التي يتضمنها التعبير مثار النظر . ان هذا الفهم المبدأي سيتأدى به الى سياق يكشف له عن البناء الأساسي للمشكلة . ليس ثمة نقطة بداية بحتة ومحددة بدقة يمكن أن تبدأ منهـا

الأبحاث الفردية أو الدراسات الانسانية عامة ، ومن ثم فيجب أن نبدا بتوجيه أنفسنا أولا نحو ذلك الربط المبدأي الذي يربط بين بعض الافكار وبعضها البعض ، فهذا الربط يجب أن يسبق المشروعات المنهجية الدقيقه ويجعلها ممكنة . واذا تجاهلناه فان هذا التجاهل يعد بمثابة تكذيب الطبيعة الحقيقية للبحث العلمي .

وبوجه عام يمكننا القول بأن أي مدخل نسقي علمي متعدد الأبعاد يواجه الفهم الواقعي للمشاكل الانسانية يجب أن يرتكز على تنقية وتنقيح العمليات المعرفية المركبة بصورة تصبح الخبرة اليومية معها ذات معنى لنا . واذا اتبعنا ـ بدلا من ذلك ـ مدخلا واحدي البعد يرتكز على افتراضات ومناهج علم واحد ويطبق نتائجه ـ رغم ذلك ـ على علوم أخرى فاننا نشوه بذلك الواقع ، ونجلب التشكك وعدم التصديق لهذا العلم الجزئي مثار النظر . ان مصير « التحليل النفسي » مثال على ذلك، فهناك بعض الشك حول فائدة بعض نظريات وافتراضات فرويد التي حصلت على تأثير فذ على حياتنا العقلية وعلى تقدم العلوم المختلفة . ومما جعل التحليل النفسي عرضة للنقد والسخرية والشك هو ادعاء بعض ممارسيه قدرتهم على تحديد الاجابات النهائية على المشاكل العقلية والثقافية وحتى التاريخية كما شك الناس أيضا في التفسير الماركسي للتاريخ والسياسة ذلك التفسير الذي ادعى لنفسه منزلة علمية لأسباب مماثلة . فبينما أثمر تأكيد هذا التفسير على أهمية الواقع الاقتصادي فان الفروض التي صاحبته دائما والقائلة بأن هذا الواقع هو الواقع الأكثر أهمية ، أو أنه العامل الوحيد الذي يجب أن نضعه في الحسبان حولت النظرية الماركسية الى دجماطيقية عقيمة .

ومع ذلك ، فحتى الاعتراف بأن التعبيرات يمكن أن تفهم فقط

وبدقة في ضوء السياقات العديدة التي تقوم فيها ، وأن هذا يتضمن تعاون عدة أنساق أو علوم ، لا يعكس تماما التعاون الداخلي بين المداخل المختلفة ، اذ أن مجرد اكتشاف سياق مفرد واحد قد يتضمن مدخلا تداخلي العلوم وذلك لأن تعميمات علم ما قد توضح روابط قائمة بين تعبيرات تتصل بسياق ينتمي أكثر الى علم آخر يكون قريبا من موضوع تخصصه ، ومثال ذلك قد تمدنا التعميمات الاجتماعية أو السيكولوجية برؤية للطريق الذي تترابط وفقه التعبيرات في سياق تاريخي ، كما أن التقدم في الاقتصاد والنظرية الاجتماعية يساعد في الواقع علم تدوين التاريخ ، تماما كما برهنت التصورات التفسيرية للتحليل النفسي على فائدتها في مجال الانثربولوجيا الاجتماعية .

وبالاضافة الى ذلك يجب أن نذكر أن الخطوط المختلفة للمدخل المتعدد الأبعاد مثل الخطوط السيكولوجية والتاريخية والاجتماعية ليست متساوية في الامتداد أو الانتشار مع الأنساق أو العلوم التي تميزها . ان أي متخصص يميل الى استخدام العديد منها في دائرته الخاصة ، فعالم النفس — على سبيل المثال — يستخدم المدخل التاريخي في تكوين تاريخ الحالة ، وبدون أن يكون مؤرخا أو مستخدما لمواد تاريخية فانه يستخدم مناهج مشابهة لمناهج المؤرخ ، ويمكنه حينئذ أن يتعلم بجهده ومهارته .

وهكذا فاننا دائما ما نصل ونتخطى حدود المدخل واحدي البعد أو العلم المفرد حالما نركز الاتنباه الى متطلبات فهم التعبيرات . لكننا حينما نريد أن نصيغ هذا المدخل المتعدد الأبعاد في منهج صارم أو خطة جادة فاننا نخفي أو نحجب الحاجة الى التفتح العقلي والمرونة .

الفصل الحادي عشر

المعرفة الانسانية

١ ـ السياقات ذات المعنى كموضوع لكل الدراسات الانسانية .

٢ ـ الفهم كعنصر اساسي لمناهج الدراسات الانسانية .

المعرفة الانسانية

١ ـ السياقات ذات المعنى كموضوع لكل الدراسات الانسانية .

شهدت القرون القليلة الماضية نموا غير متوازن لمعرفتنا بالعالم ، فلقد انتقل الانسان من الانشغال بالمسائل اللاهوتية ومن اهتمامه بروحه الى الاهتمام بالقوى الطبيعية التي تحيطه ، كما أن البحث العلمي أعاد
الاهتمام بالقوى الطبيعية التي تحيطه ، كما أن البحث العلمي أعاد
الحساب التقريبي لاكتشاف العالم ، وأزاحت النظريات العلمية التأمل الميتافيزيقي ، وهاهنا توقف العالم عن أن يكون لغزا غامضا ، وأصبح الانسان بالمعرفة قويا مسيطرا على قوى عديدة .

لقد أصبح من الطبيعي أن نقوم بمحاولة تطبيق تلك الانجازات العقلية على المعرفة الانسانية ، وأن نستخدم المناهج العلمية التي تكشف عن مكونات العمليات الفيزيقية في السلوك الانساني ، وأن نأمل في أن تلقى الآلة التي صنعت لانتاج عمليات عقلية الضوء عن كيف يعمل العقل، وأن يؤدي تمكيننا من معالجة استجابات الفئران لمنبهات مضبوطة الى تمكننا من تطبيق نفس الأمر على الانسان .

ان المدخل المتعدد الأبعاد أثمر بعض النتائج لكنه خيب الآمال ، لقد عاننا قليلا على فهم بعض المشاكل الانسانية الكبرى كالجناح ،

والاضطراب الاجتماعي ، والأمراض العقلية ، والصراعات الدولية ، لكنه لم يشف غليلنا تماما • لقد طلب منا أن نكون صبورين لأن تطبيق المناهج العلمية على الدائرة الانسانية يثير صعوبات خاصة •• ومع ذلك فنحن نشعر بأن شيئا ما قد يظهر •• فنحن لا نزال ننتظر نيوتن العلوم الانسانية •

ان تشييد الدراسات الانسانية على غرار العلوم الطبيعية بحيث تكون نموذجا مشابها لها تماما هو في رأيي ضلال عقلي ، وعقم علمي، وخطر أخلاقي : هو ضلال عقلي لأنه يتجاهل العمليات المعرفية المألوفة ، وعقم علمي لأنه لا ينتج المعرفة التي نحتاجها ، وخطر أخلاقي لأنه يقبل تصور الانسان على أنه شيء آخر في عالم مادي طبيعي ، والواقع انه يجب علينا أن نعود الى الأسس ، وأن نهتم بالاطار الملائم لمعرفة الانسان•

ان التمييز الأساسي بين نمطي العمليات المعرفية ضروري وهام جدا، فمعرفة سرعة الضوء تختلف عن معرفة ماذا يعنيه الشخص بتحريك يده، تتضمن الحالتان ادراكا لوقائع فيزيقية : قراءة لوحات الآلة في الحالة الأولى ، ورؤية يد تتحرك في الحالة الثانية ، كما تتضمنان أفكارا ، لكننا ندرك في الحالة الأولى واقعة فيزيقية بواسطة الفكرة ، وندرك في الحالة الثانية الفكرة بواسطة واقعة فيزيقية • اني اسمي النوع الأول من المعرفة بالادراك أو الاستيعاب Comprehension واسمي النوع الثاني بالفهم Understanding .

وحينما نعطي الاطار النظري لكل من هاتين العمليتين المعرفيتين اللتين تحدثان دائما في الحياة اليومية ، فان هذا يعني أننا نقيم نظرية المعرفة على قدميها • وهذا يمكننا أيضا من اقامة تمييز واضح بين العلوم التي تهتم بالادراك أو الاستيعاب وبين الدراسات الانسانية التي ترتكز

على الفهم • ان النوع الأخير (الدراسات الانسانية) هو النوع الوحيد الذي نفهم من خلاله الواقع التاريخي المركب والاجتماعي المعقد للحياة الانسانية •

وعلى الرغم من أن للانسان خواصا فيزيقية هي موضوع العلم فان صفته الحاسمة أو الفاصلة هي أنه عاقل : انه يفكر ويفعل ويتعقب الغايات، انه يبدع العلم والفن والدين والمدن والآلات والقانون والنظم ، وكل هذه تكوّن سياقات ذات معنى يمكن بل ويجب أن تفهم • ومن ثم فلا يمكن أن نقتصر فقط في وصف الانسان على وقائعه الفيزيقية وحدها ، بل يجب أن ندخل في ، وأن نفهم العمليات العقلية التي يعطي بها الانسان لعالمه معنى • نحن لا نستطيع أن نعرف لماذا أصبح شخص ما « جانحا » بدون أن نفهم مخاوفه وتطلعاته واهتماماته وعاداته ومقاييسه الأخلاقية للمجتمع، ان مثل هذه الموضوعات الأخيرة تمثل موضوعات للدراسات الانسانية•

ان كل العلوم المهتمة بالانسان تتعامل مع أفعال واعية وأفكار وقيم وأهداف : فالتاريخ يعيد تكوين الماضي كقصة ذات معنى بواسطة اعادة القبض على الأفكار التي أثرت على الناس وعلى الأهداف التي تعقبوها، والفيلولوجيا تعالج تطور اللغات ، والفقه يعالج القواعد القانونية التي فرضها الناس على أنفسهم ، والانثربولوجيا الاجتماعية تهتم بالأفكار والتقييمات والقواعد التي تحدد السلوك في المجتمعات البدائية • نحن لا يكفينا أن يلقي الناس الماء على بعضهم البعض ، اننا نقنع فقط حينما نفهم أن ذلك يعد جزءا من التعميد أو طقوس التطهير •

ان علم النفس أيضا يجب أن يكون دراسة انسانية اذا أسهم اسهاما حاسما في معرفة الأنسان وفي حل مشاكله ولأن العمليات الواعية تدخل في أغلب ما يفعله الأنسان فان استجاباته لا يمكن أن

تفسر كما لو كانت ردود فعل آلة ذات طريقة واحدة في الاستجابة للدوافع . ان على النظرية التعليمية أن تأخذ في اعتبارها وجه الاختلاف بين تذكر رموز لا معنى لها وبين تعلم مادة ذات معنى ، كما أن على نظرية الادراك أن تعرف الدور الذي تلعبه التوقعات والأفكار التي لم يتم تصورها بعد . ان أي نقاش حول الشخصية يجب أن يضع في اعتباره اللغة والأفكار والأحكام المسبقة والمبادىء الأخلاقية ، وعلى علم النفس الاجتماعي أن يعالج موضوعات الدعاية والقيادة والعمل سواء بصورتها التقليدية أو غير التقليدية ، ولا يمكنه اذن أن يتجاهل الأفكار والقيم والأهداف .

ولا يمكن لعلم الاجتماع أن يقتنع بملاحظة الناس وذكر نتائج منتظمة عن سلوكهم ، ان على علم الاجتماع أن يبحث عن الأسباب المعقولة التي تقف وراء ذلك، فحينما نقرر أن عدد المنتحرين من الطلاب الكاثوليك أقل من غيرهم ، وأن نسبة المواليد ترتفع عادة بعد الحروب ، أو أن الناس ينفقون أموالهم بطريقة معينة ، فاننا لا نستطيع أن نستخلص مسألتنا الاجتماعية .. اننا نحصل فقط على مادة محتاجة الى دراسة أكثر . ان في استطاعتنا دائما أن نبين لماذا يفعل الناس ما يفعلونه بالاشارة الى المعتقدات الدينية أو الطموح الاجتماعي أو القواعد والأعراف .

انـي اعتقد بأن الاقتصاد أيضا دراسة انسانية ، حيث أنه يعالج علاقات ذات معنى ، ونظرا لأنني ذكرت ذلك من قبل فيجب أن أفسر رأيي الآن بصورة أكثر اكتمالا : اني أرى أن موضوع الاقتصاد هو التعبيرات ذات المعنى (كالأفعال القصدية ، وكالأشياء المنتجة ، وشرائها، والمنافسة في الأسواق، ونتائج ذلك كله) والتي تتضمن أهدافا أو أغراضا بالنسبة للأفراد والنقابات أو للأمم في حالة التخطيط المركزي . ان

الأفعال والأهداف التي تقف وراء التعبيرات الاقتصادية وتأثيراتها على الناس يمكن أن تفهم ، ومن ثم تكون بمثابة موضوع للدراسات الانسانية •

يمكن تحديد الاقتصاد بأنه علم منفصل في ضوء السياقات التي تعالج تعبيراته ، وهذه تتكون من العلاقات القائمة بين الانتاج والتسويق والعمالة ، كما أن الجمعيات والمصانع تكوّن سياقات وجودية ووظيفية ، والصناعة ككل تكوّن سياق موضوع • ومع ذلك فان الاقتصاد شأنه في ذلك شأن الدراسات الانسانية الأخرى لا يمكن أن يحقق الفهم الكامل في ضوء التعبيرات التي يعالجها في ضوء سياقه وحسب وذلك لأن هذه التعبيرات لا تقوم في الاقتصاد وحده بل وفي السياقات الاجتماعية والنفسية أيضا ، فحينما نسأل لماذا يعمل الناس ؟ ، ولماذا يطلبون أشياء معينة ؟ أو لماذا يتعقبون نظاما خاصا في البيع ؟ فان ذلك قد يتطلب تفسيرات نفسية واجتماعية بنفس الدرجة التي يتطلب فيها تفسيرات اقتصادية • وهذا يؤكد الحاجة الى وضع الاقتصاد في سياقات دراسات انسانية أخرى •

ان هذا القول يصبح غامضا اذا قبلنا بعض فروع الاقتصادية على أنها مماثلة لعلوم الطبيعة في تجريدها للارتباطات العلية القائمة بين الوقائع أو الحوادث عن السياقات الانسانية المركبة ، فالاقتصاد الصناعي على سبيل المثال يمكن أن يعالج العلاقات القائمة بين الآلة والعمالة بدون أن يحاول فهم الأسباب الآلية أو فهم اتجاهات العمال الذين تم الاستغناء عنهم • وبالمثل فان النظرية الاقتصادية تعالج الارتباطات العلية بين كيانات مجردة مثل : الأثمان والربح ، والسعر ، والعرض والطلب ، دون أية اشارات تفسيرية للناس الذين يشترون وينتجون ويستهلكون •

ان عوامل تناول الحياة الاقتصادية في ضوء آليات علية ، يمكن أن تحقق نتائج مفيدة • لكنها تكون محدودة القيمة ، ومضللة ، اذا لم ترتبط بدراسات أكثر شمولا من الدائرة الاقتصادية • ان فروعا اقتصادية مثل علم الاقتصاد التطبيقي ، ودراسة العلاقات الصناعية ، تضيف الى النظرية الاقتصادية الواحدية الجانب السياسات الاقتصادية القومية ، وبواعث العاملين ، وآمال العمال • وعلى الرغم من قبولنا واعتبارنا لبعض فروع الاقتصاد على أنها علوم كعلوم الطبيعة ، فانه لمن الهام أن نفكر في الاقتصاد على أنه دراسة انسانية • وهذا يجعلنا نقرر بأن القوى الاقتصادية لا يمكن أن تفهم بدقة الا من خلال سياق النشاطات والآمال الانسانية •

٢ ـ الفهم كعنصر أساسي لمناهج الدراسات الانسانية •

لقد رأينا أن الاقتصاد وسائر الدراسات الانسانية تعالج السياقات ذات المعنى ، وأنه ليس ثمة أسرار تغلف الطريقة التي يقربنا بها الفهم من تلك السياقات • ان الفهم ليس لعبة عجيبة تجلب الحظ للناس ، كما أنه ليس مشروعا اخترعه علماء الاجتماع •• انه عملية مألوفة تمكننا من توجيه أنفسنا في الحياة العامة •• انه يكشف عن المعنى كما يكشف البصر عن اللون • وحتى ان قيل بأن البلهاء نادرا ما يفهمون ، وأن الاطفال يكونون في بداية طريق الفهم ، فاننا جميعا نفهم العالم الانساني لأننا جزء منه •

ويجب على الدراسات الانسانية أن تعمق بصيرة الرأي العام ، وأن تجعلها منظمة ، اذا كان عليها أن تحقق هيكلا رئيسيا من المعرفة الموضوعية عن الانسان • ولكي تحقق تلك الغاية يجب عليها أن تربط الفهم بالعمليات

العقلية المختلفة ، وبتكنيك البحث ، وهما يؤلفان في مجموعهما المنهج العلمي. وعلى الرغم من اشتراك العلوم الطبيعية والدراسات الانسانيةفي المنهج، الا أن هذا المنهج يواجه في الدراسات الانسانية بصعوبات عدة خصوصا حينما تكون هناك أحيانا استحالة في اجراء التجارب ، أو حينما يعترض في أحيان أخرى على اجراء مثل هذه التجارب لأسباب أخلاقية ، أو حينما يتعذر التوصل الى الموضوعية أو فصلها ، أو حينما تستعصى المشاكل على التحليل بسبب تعقدها ، أو حينما يتعذر احالة الكيفيات الى كميات تخضع للمعالجة الرياضية . ولأجل هذه الأسباب فان الضبط الصوري المتحقق في النظريات العلمية يصعب الوصول اليه في الدراسات الانسانية. ومع ذلك فان استخدام الفهم يقدم تعويضا له قيمته الكبرى عن هذا القصور ، وذلك حينما يمكننا من فهم الارتباطات القائمة بين حوادث الدائرة الانسانية ، ذلك الفهم الذي لا يستطيعه العلم الطبيعي في اقتصاره على الملاحظة والتعميم فلا معنى لأن نسأل لماذا تسقط الأجسام وفقا لقانون الجاذبية ؟ ولكننا يمكن أن نسأل لماذا ينتحر الناس ؟ ولما ينجبون أطفالا ؟ أو لماذا ينفقون أموالهم في لعب القمار ؟ ومن خلال الفهم وحده يمكن أن نجد الاجابات على تلك الاسئلة أو على تلك المشاكل . ان الاعجاب الأعمى بالعلوم الطبيعية أفقد الباحثين قدرتهم على رؤية تلك الميزة التي تميز الدراسات الانسانية ، فالمدرسة السلوكية على سبيل المثال لا تستخدم منهج الفهم في نظريتها المعرفية بدعوى أن مثل هذا المنهج لا يوجد له نظير في العلوم الطبيعية .

ان الفهم ليس فقط عملية معرفية لا يمكن تحاشيها ، تتمكن من خلاله معرفة وقائع الدراسات الانسانية ، انه أيضا وسيلتنا في تفسير هذه الوقائع . العالم الفيزيقي موجود ويمكن ادراكه أو معرفته ، والعالم

الانساني له معنى يمكن فهمه ٠ ان استخـدام المعرفة الانسانية المرتكزة على فهم المعنى هو الخاصية الرئيسية لكـل الدراسات الانسانية وهـي تضعنا أمام تحديات معينة وفرص خاصة ٠

واذا لم نواجه تلك التحديات ونغتنم تلك الفرص فان البحث أيا ما كانت دقة أدواته سينتهي بنا الى قنوات عمياء ، ولقد رأينا سابقا أن أي جهد يبذل في العلوم الانسانية كالاقتصاد وعلم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي ويكون مرتكزا فقط على جمع المعطيات ووضعها فـي صور احصائية واستخلاص النتائج من الارتباطات القائمة بينها هو جهد ضائع تماما مالم يكن تصنيف المعطيات مرتكزا على فهم معناها ، وكانت النتائج مفسرة تفسيرا مبنيا على معنى ٠ ولقد تأكدت هذه النقطة فـي كتـاب السيدة / بربارا ووتون B. Wooton المسمى « بعلم الاجتماع وعلـم الأمراض الاجتماعية » حيث ذهبت الى أن مجموعة كبيرة عن الأبـحاث عن « الجناح » غير مقنعة وغير قاطعة أو باتة على الرغم مما تحتويه من ثراء في التفاصيل الاحصائية ، وذلك لأن تصنيف الأفعال الجانحة يرتكز عادة على خواص ظاهرة وأخرى باطنة ، ومع ذلك فنحن نبحث في النتيجة عن تفسير عام لحالات غير متساوية ٠ وأعطت السيدة « ووتون » مثـالا هاما تناولت فيه ما يسمى بجريمة « السرقة المصحوبة بالعنف » وبالأخص حالة طفل صغير دفع آخر من على « عجلته » واستولى منه علـى عشرة شلنات ٠ ولقد برهنت أيضا بالاشارة الى مقتطفات خاصة من عدة أبحاث على سهولة استخلاص نتائج مضللة من الأدلة الاحصائية ، وأعطت على سبيل المثال شرحا من بحث قام به جلوكس Gluecks حول تأثيـر الامهات على الجناح جاء فيه :

« ان أمهات الجانحين والبالغة نسبتهن ٤٧٪ تعملن خارج البيت

بينما تبلغ نسبة الأمهات العاملات خارج البيت لغير الجانحين ٣٣٪ » ان مثل هذه العبارة تتضمن بعض الأعمال مثل العمل في « بيت فيــه غرف مفروشة للايجار » وهو عمل ليس خارجيا تماما وحينما نميز بين الأعمال الوقتية والأعمال المنتظمة يظهر أن ٢٠،٤٪ من أمهات الجانحين و ١٨،٣٪ من أمهات غير الجانحين يعملن في أعمال منتظمة ، ومــن هنا نستنتج أن الاختلاف الكبير بين أمهات الجانحين وغير الجانحين انما يرتبط بالحالات التي تعمل فيها الأمهات في أعمال وقتية أو مؤقتة . وفي هذه المجموعــة سنجد أن ٢٦،٦٪ أمهات لجانحين أما نسبة أمهــات غير الجانحين فهــي ١٤،٧ ٪ . ومن هذا انتقل جلوكس Glueccks في قفزة واحدة مدهشة الى النتيجة التالية : « سواء أكان مدخلنا منتميا الى التحليل النفسي عن التأثير الضار بتطور الشخصية أو كان ببساطه مدخلا منتميا الى الملاحظة العادية والتجربة العامة ، فان اهمال الأمهات وعدم عنايتهن بالأطفال هما المنبعان الرئيسيان لسوء التوافق وللجناح . وبوضوح فان أمهات الأطفال الجانحين كمجموعة يتراخين أو يهملن العناية بأطفالهن أكثر من أمهــات غير الجانحين » . ان المعطيات الاحصائية في مثل هذه الحالة لا تتحدث عن نفسها ، اذ علينا هنا أن نفهم الوقائع حقيقية .

واذا أهملنا ذلك « الفهم » فاننا نميل الى أن نصل الى نتائج مضللة، وعلى سبيل المثال لا يمكن أن نصل الى تعميمات صادقة عن « السارقين » اذا صنفنا ببساطة أولئك الذين يسرقون دون اعتبار لما يعنيه فعل سرقتهم، فالبعض يسرق من أجل الغنى ، وقد تنجم السرقة في بعض الحالات عــن أخرق أو معتوه لا يدرك معنى الملكية (وهناك مثال عن ذلك نجده فــي كتاب Burt المسمى Juvenile Delinguent) وقد تنجم في بعضها الآخر عن الرغبة في الانتقام . وفي كتاب Searchligt on Delinguency نجــد حالــة طفــل يســرق استاذته لأنه يحبها . وليس من المدهش

أن نجد المجهودات الأصلاحية المرتكزة علــى نظريات الاجرام التــي لا تأخذ في اعتبارها تلك الاختلافات والتمايزات غير مؤدية الى نتائج مفيدة •

ومثال آخر عن الفشل في اعتبار معنــى الفعل يرتبط باستخــدام الاستبيانات • نعم ان عددا من الناس يجيبون اجابات عديدة ولكن أن تستخلص من تلك الاجابات نتائج نهائية حاسمة فهو أمر غير ممكن بــل وخطر ويقودنا الى الخطأ • ولكي نؤمن أنفسنا ضد هذه الكوارث علينا أن نسأل لماذا أجاب الناس على نحو معين دون نحو آخر ؟ هناك ببساطة من يريد أن يسعد الباحث القائم بالاستبيان ، وهناك من يريد أن يظهــر بمظهر الاحترام أو السفسطة ، وهناك ما هم خداعون بطبيعتهم •

ان هذه الامثلة وتلك التوضيحات تؤكد ـــ مرة أخرى ـــ علــى الحاجة العريضة للفهم في الدراسات الانسانية ، وعلــى أن التقدم فــي المعرفة الانسانية يعتمد على الاستخدام النقدي الهادف • والواقــع أن نظرية الفهم يمكن أن توضح الطريقة التي نتمكن بها من تصعيد الاهتمام بالمشاكل الانسانية ، وبيان كيفية حلها • ويمكن الحكم على القيمة العملية لنظرية الفهم بالاستناد الى ممارسيها والى طلبة العلوم أو الأنساق الانسانية المختلفة • والحق أن التنظير الفلسفي، وابتكار الطرق التصورية لا يمكن أن يحلا محل البحث المبدع ، ففي خلال تعقب العلوم تعقبا واقعيا يمكن فقط أن نكتشف الارتباطات الهامة ، وأن نصيــغ الفروض المثمرة ، وأن تطوّر المناهج ، وليس مــن واجب الفيلسوف أن يعلم عــالم الاجتماع عمله •• ان مــا يمكن للتصورات الفلسفية أن تفعله هــو أن تجعــل الافتراضات غير المنطوقة بنية الممارسات الناجحة ، وان تجعل الأساس النظري لهذه الممارسات واضحة •

انتهى بعون الله

LIST OF BOOKS REFERRED TO IN THE TEXT

Adorno, T. W. and others, *The Authoritarian personality,* pp. 65, 123 (New York 1950).

Aron, R. C. T., *La Sociologie allemande contemporaine,* p. 24 (Paris 1936) (trans.) *German Sociology* (London and New York 1957).

Berlin, I., *Historical Inevitability,* p. 72 (Oxford) 1954).

Burt, C., *The Young Delinquent* p. 137 (London 1944).

Christie, R. and Jahoda, M. (eds.), *Studies in the Scope and Method of the Authoritarian Personality,* p. 123 (New York 1954).

Descartes, R., *Discourse on Method and Meditations,* p. 12 (London 1960).

Dilthey, W., *Gesammelte Werke,* spec. Vol. VII, p. 24 (Stuttgart 1958). Trans. of relevant passages: H. P. Rickman: *Meaning in History* (London 1962).

Eissler, K. R. (ed.), *Searchlight on Delinquency,* p. 137 (London 1949).

Freud, S., *Zur Psychopathologie des Alltagslebens,* pp. 57, 109 (Frankfurt 1907). Trans. *The Psychopathology of Everyday Life* (London 1960).

Freud, S., *Die Traumdeutung,* p. 57 (Frankfurt 1900). Trans. *The Interpretation of Dreams* (London 1955).

Freud, S., *Ges. Werke Vol. I,* (Paper of 1896), p. 57 (Frankfurt 1924). Trans. *Complete Works* (London 1951).

Ginsberg, M., *Sociology,* p. 77 (Oxford 1934).

Hayek, F. A., *The Counter Revolution of Science. Studies in the Abuse of Reason,* pp. 31, 41 (New York 1964).

Hempel, C. G., *The Function of General Laws in History,* p. 32. Contained in *Theories of History,* ed. P. Gardiner (New York 1958).

Hobbes, th. Leviathan, p. 70 (London 1957).

Hughes, H. S., *Consciousness and Society. The Re-orientation of European Social Thought*, p. 24 (London 1959).

Kant, I., *The Critique of Pure Reason*, pp. 8, 24, 45 (London 1934).

Lundberg, G. A., *Foundations of Sociology*, p. 25 (New York 1964).

Mises, R. Von, *Positivism. A Study in Human Understanding*, pp. 25, 32 (New York 1956).

Maciver, *Society*, p. 31 (London 1950).

Nagel, E., *The Structure of Science*, pp. 29, 32, 41, 113 (London 1961).

Nagel, E., *The Logic of Historical Analysis*, p. 101. Contained in *Theories of History*, ed. P. Gardiner (New York 1958).

Parsons, Talcot, *The Structure of Social Action*, p. 24 (London 1949).

Pyke, M., *The Boundaries of Science*, p. 121 (London 1961).

Roback, A. A., (ed), *Present-Day Psychology*, p. 111 (London 1956).

Spinoza, B., *Ethic*, pp. 8, 70, in *Chief Works of Spinoza Vol. III* (New York 1951).

Weber. Max, Ges. Aufsatze - Zur Wissenshaft - slebre, p. 24 (tüzingen 1951). 3 essays from it trans, the methodology of social sciences. (New York 1950).

Weber, Max, *Wirtschaft und Gesellschaft*, p. 24 (Tübingen 1956). Trans. *The Theory of Social and Economic Organisation* (New York 1957).

Weber, Max, *Die Protestantische Ethik und der 'Geist' des Kapitalismus*, pp. 77, 102 (München 1964). Trans. *The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism* (London 1930).

Wootton, B., *Social Science and Social Pathology*, p. 136 (London 1959).

الفهرست

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة